العهد المدني

عهد الدعوة والجهـــاد والنجـــاح

obeikandl.com

obeikandl.com

مراحل الدعوة والجهاد

فى العهد المدني

يمكن تقسيم العهد المدنى إلى ثلاث مراحل:

١ - **مرحلة تأسيس المجتمع الإسلامى**، وتمكين الدعوة الإسلامية، وقد أثيرت فى هذه المرحلة القلاقل والفتن من الداخل، وزحف فيها الأعداء من الخارج؛ ليستأصلوا شأفة المسلمين، ويقلعوا الدعوة من جذورها. وقد انتهت هذه المرحلة بتغلب المسلمين وسيطرتهم على الموقف مع عقد صلح الحديبية فى ذى القعدة سنة ست من الهجرة.

٢ - **مرحلة الصلح مع العدو الأكبر**، والفراغ لدعوة ملوك الأرض إلى الإسلام، وللقضاء على أطراف المؤامرات. وقد انتهت هذه المرحلة بفتح مكة المكرمة فى رمضان سنة ثمان من الهجرة.

٣ - **مرحلة استقبال الوفود، ودخول الناس فى دين الله أفواجًا**. وقد امتدت هذه المرحلة إلى وفاة الرسول ﷺ فى ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة.

مساكن قبائل يثرب عند الهجرة

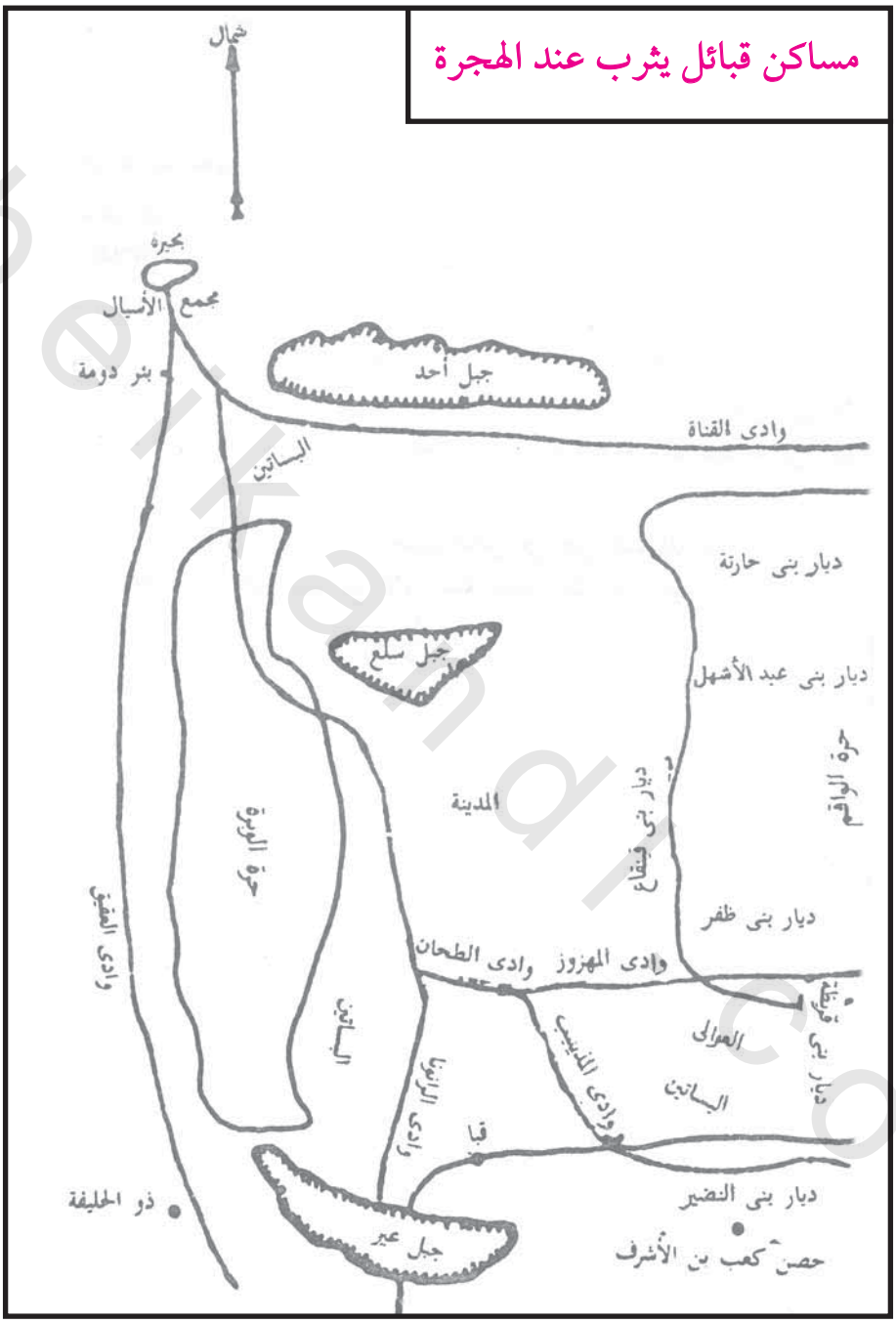

سكان المدينة وأحوالهم عند الهجرة

لم يكن معنى الهجرة التخلص والفرار من الفتنة فحسب، بل كانت الهجرة تعنى مع هذا تعاونًا على إقامة مجتمع جديد فى بلد آمن، ولذلك أصبح فرضًا على كل مسلم يقدر على الهجرة أن يهاجر ويسهم فى بناء هذا الوطن الجديد، ويبذل جهده فى تحصينه ورفعة شأنه.

ولاشك أن رسول الله ﷺ كان هو الإمام والقائد والهادى فى بناء هذا المجتمع، وكانت إليه أزمة الأمور بلا نزاع.

والذين قابلهم رسول الله ﷺ فى المدينة كانوا على ثلاثة أصناف، يختلف أحوال كل واحد منها بالنسبة إلى الآخر اختلافًا واضحًا، وكان يواجه بالنسبة إلى كل صنف منها مسائل عديدة غير المسائل التى كان يواجهها بالنسبة إلى الآخر.

وهذه الأصناف الثلاثة هى:

١ – أصحابه الصفوة الكرام البررة رضي الله عنهم.

٢ – المشركون الذين لم يؤمنوا بعد، وهم من صميم قبائل المدينة.

٣ – اليهود.

أ – والمسائل التى كان يواجهها بالنسبة إلى أصحابه هو أن ظروف المدينة بالنسبة إليهم كانت تختلف تمامًا عن الظروف التى مروا بها فى مكة، فهم فى مكة وإن كانت تجمعهم كلمة جامعة وكانوا يستهدفون هدفًا واحدًا، إلا أنهم كانوا متفرقين فى بيوتات شتى، مقهورين أذلاء مطرودين، لم يكن لهم من الأمر شيء، وإنما كان الأمر بيد أعدائهم فى الدين، فلم يكن هؤلاء المسلمون يستطيعون أن ينشئوا مجتمعًا إسلاميًّا جديدًا بمواده التى لا يستغنى عنها أى مجتمع إنسانى فى العالم؛ ولذلك نرى السور المكية تقتصر على تفصيل المبادئ الإسلامية، وعلى التشريعات التى يمكن العمل بها لكل فرد وحده، وعلى الترغيب فى البر والخير ومكارم الأخلاق والترهيب عن الرذائل والدنايا.

أما فى المدينة فكان أمر المسلمين بأيديهم منذ أول يوم، ولم يكن يسيطر عليهم أحد من الناس، وهذا يعنى أنهم قد آن لهم أن يواجهوا مسائل الحضارة والعمران، والمعيشة والاقتصاد، والسياسة والحكومة، والسلم والحرب، وأن تفصل لهم مسائل الحلال والحرام، والعبادة والأخلاق، وما إلى ذلك من شئون الحياة.

أى آن للمسلمين أن يكونوا مجتمعًا إسلاميًّا يختلف فى جميع مراحل الحياة عن المجتمع الجاهلى، ويمتاز عن أى مجتمع يوجد فى العالم الإنسانى، ويكون ممثلًا للدعوة الإسلامية التى عانى لها المسلمون ألوانًا من النكال والعذاب طيلة عشر سنوات.

ولا يخفى أن تكوين أى مجتمع على هذا النمط لا يمكن أن يستتب فى يوم واحد، أو شهر واحد، أو سنة واحدة، بل لابد له من زمن طويل يتكامل فيه التشريع والتقنين والتربية والتثقيف والتدريب والتنفيذ شيئًا فشيئًا، وكان الله كفيلًا بهذا التشريع، وكان رسول الله ﷺ قائمًا بتنفيذه والإرشاد إليه، وبتربية المسلمين وتزكيتهم وفق ذلك [. / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; Z [الجمعة:٢].

وكان الصحابة رضي الله عنهم مقبلين عليه بقلوبهم،يتحلون بأحكامه،ويستبشرون بها [? @ A B C D Z [الأنفال: ٢]. وليس تفصيل هذه المسائل كلها من مباحث موضوعنا، فنقتصر منها على قدر الحاجة.

وكان هذا أعظم ما واجهه رسول الله ﷺ بالنسبة للمسلمين، وهو الهدف الأسمى والمطلب النبيل المقصود من الدعوة الإسلامية والرسالة المحمدية، ومعلوم أنه ليس بقضية طارئة تطلب الاستعجال، بل هى قضية أصيلة تحتاج إلى آجال. نعم، كانت هناك قضايا طارئة تطلب الحل العاجل والحكيم، أهمها أن المسلمين كانوا على قسمين:

قسم كانوا فى أرضهم وديارهم وأموالهم، لا يهمهم من ذلك إلا ما يهم الرجل وهو آمن فى سِرْبِه، وهم الأنصار، وكان بينهم تنافر مستحكم وعداء مزمن منذ أمد بعيد.

وقسم آخر فاتهم كل ذلك، ونجوا بأنفسهم إلى المدينة، وهم المهاجرون، فلم يكن لهم ملجأ يأوون إليه، ولا عمل يكسبون به ما يسد حاجتهم، ولا مال يبلغون به قَوَامًا من العيش، وكان عدد هؤلاء اللاجئين غير قليل، ثم كانوا يزيدون يومًا فيوما؛ إذ كان قد أوذن بالهجرة لكل من آمن بالله ورسوله. ومعلوم أن المدينة لم تكن على ثروة طائلة فتزعزع ميزانها الاقتصادى، وفى هذه الساعة الحرجة قامت القوات المعادية للإسلام بشبه مقاطعة اقتصادية، قَلَّت لأجلها المستوردات وتفاقمت الظروف.

ب – **أما القوم الثانى** – وهم المشركون من صميم قبائل المدينة – فلم تكن لهم سيطرة على المسلمين، وكان منهم من يتخالجه الشكوك ويتردد فى ترك دين الآباء، ولكن لم يكن يبطن العداوة والكيد ضد الإسلام والمسلمين، ولم تمض عليهم مدة طويلة حتى أسلموا وأخلصوا دينهم لله.

وكان فيهم من يبطن شديد الإحن والعداوة ضد رسول الله ﷺ والمسلمين، ولكن لم يكن يستطيع أن يناوئهم، بل كان مضطرًّا إلى إظهار الودّ والصفاء نظرًا إلى الظروف، وعلى رأس هؤلاء عبد الله بن أبيّ، فقد كانت الأوس والخزرج اجتمعوا على سيادته بعد حرب بُعَاث - ولم يكونوا اجتمعوا على سيادة أحد قبله - وكانوا قد نظموا له الخَرْز، ليُتَوِّجُوه ويُمَلِّكُوه، وكان على وشك أن يصير ملكًا على أهل المدينة إذ بوغت بمجيء رسول الله ﷺ، وانصراف قومه عنه إليه، فكان يرى أنه استلبه الملك، فكان يبطن شديد العداوة ضده، ولما رأى أن الظروف لا تساعده على شركه، وأنه سوف يحرم بقايا العز والشرف وما يترتب عليهما من منافع الحياة الدنيا أظهر الإسلام بعد بدر، ولكن بقى مستبطنًا الكفر، فكان لا يجد مجالًا يكيد فيه برسول الله ﷺ وبالمسلمين إلا ويأتيه، وكان أصحابه - من الرؤساء الذين حرموا المناصب المرجوة فى ملكه - يساهمونه ويدعمونه فى تنفيذ خططه، وربما كانوا يتخذون بعض الشباب وسذجة المسلمين عميلًا لتنفيذ خطتهم من حيث لا يشعر.

جـ - **أما القوم الثالث** - وهم اليهود - فإنهم كانوا قد انحازوا إلى الحجاز زمن الاضطهاد الأشورى والرومانى كما أسلفنا، وكانوا فى الحقيقة عبرانيين، ولكن بعد الانسحاب إلى الحجاز اصطبغوا بالصبغة العربية فى الزى واللغة والحضارة، حتى صارت أسماؤهم وأسماء قبائلهم عربية، وحتى قامت بينهم وبين العرب علاقة الزواج والصهر، إلا أنهم احتفظوا بعصبيتهم الجنسية، ولم يندمجوا فى العرب قطعًا، بل كانوا يفتخرون بجنسيتهم الإسرائيلية - اليهودية - وكانوا يحتقرون العرب احتقارًا بالغًا وكانوا يرون أن أموال العرب مباحة لهم، يأكلونها كيف شاءوا، قال تعالى:] وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ Z [آل عمران: ٧٥]. ولم يكونوا متحمسين فى نشر دينهم، وإنما جل بضاعتهم الدينية هى: الفأل والسحر والنفث والرقية وأمثالها، وبذلك كانوا يرون أنفسهم أصحاب علم وفضل وقيادة روحانية.

وكانوا مَهَرَةً فى فنون الكسب والمعيشة، فكانت فى أيديهم تجارة الحبوب والتمر والخمر والثياب، كانوا يستوردون الثياب والحبوب والخمر، ويصدرون التمر، وكانت لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون، فكانوا يأخذون المنافع من عامة العرب أضعافًا مضاعفة، ثم لم يكونوا يقتصرون على ذلك، بل كانوا أكالين للربا، يعطون القروض الطائلة لشيوخ العرب وساداتهم؛ ليكسبوا بها مدائح الشعراء والسمعة الحسنة بين الناس بعد إنفاقها من

غير جدوى ولا طائلة، وكانوا يرتهنون لها أرض هؤلاء الرؤساء وزروعهم وحوائطهم، ثم لا يلبثون إلا أعوامًا حتى يتملكونها.

وكانوا أصحاب دسائس ومؤامرات وعتو وفساد؛ يلقون العداوة والشحناء بين القبائل العربية المجاورة، ويغرون بعضها على بعض بكيد خفى لم تكن تشعره تلك القبائل، فكانت تتطاحن فى حروب، ولم تكد تنطفئ نيرانها حتى تتحرك أنامل اليهود مرة أخرى لتؤججها من جديد. فإذا تم لهم ذلك جلسوا على حياد يرون نتائج هذا التحريض والإغراء، ويستلذون بما يحل بهؤلاء المساكين - العرب - من التعاسة والبوار، ويزودونهم بقروض ثقيلة ربوية حتى لا يحجموا عن الحرب لعسر النفقة. وبهذا التدبير كانوا يحصلون على فائدتين كبيرتين: هما الاحتفاظ على كيانهم اليهودى، وإنفاق سوق الربا؛ ليأكلوه أضعافًا مضاعفة، ويكسبوا ثروات طائلة.

وكانت فى يثرب منهم ثلاث قبائل مشهورة:

١- **بنو قَيْنُقَاع**: وكانوا حلفاء الخزرج، وكانت ديارهم داخل المدينة.

٢- **بنو النَّضِير**: وكانوا حلفاء الخزرج، وكانت ديارهم بضواحى المدينة.

٣- **بنو قُرَيْظة**: وكانوا حلفاء الأوس، وكانت ديارهم بضواحى المدينة.

وهذه القبائل هى التى كانت تثير الحروب بين الأوس والخزرج منذ أمد بعيد، وقد ساهمت بأنفسها فى حرب بُعَاث، كل مع حلفائها.

وطبعًا فإن اليهود لم يكن يرجى منهم أن ينظروا إلى الإسلام إلا بعين البغض والحقد؛ فالرسول لم يكن من أبناء جنسهم حتى يُسَكِّن جَأْشَ عصبيتهم الجنسية التى كانت مسيطرة على نفسياتهم وعقليتهم، ودعوة الإسلام لم تكن إلا دعوة صالحة تؤلف بين أشتات القلوب، وتطفئ نار العداوة والبغضاء، وتدعو إلى التزام الأمانة فى كل الشئون، وإلى التقيد بأكل الحلال من طيب الأموال، ومعنى كل ذلك أن قبائل يثرب العربية ستتآلف فيما بينها، وحينئذ لابد من أن تفلت من براثن اليهود، فيفشل نشاطهم التجارى، ويحرمون أموال الربا الذى كانت تدور عليه رحى ثروتهم، بل يحتمل أن تتيقظ تلك القبائل، فتدخل فى حسابها الأموال الربوية التى أخذتها اليهود، وتقوم بإرجاع أرضها وحوائطها التى أضاعتها إلى اليهود فى تأدية الربا.

كان اليهود يدخلون كل ذلك فى حسابهم منذ عرفوا أن دعوة الإسلام تحاول الاستقرار فى يثرب؛ ولذلك كانوا يبطنون أشد العداوة ضد الإسلام، وضد رسول الله ﷺ

منذ أن دخل يثرب، وإن كانوا لم يتجاسروا على إظهارها إلا بعد حين.

ويظهر ذلك جليًّا بما رواه ابن إسحاق عن أم المؤمنين صفية رضي الله عنها. قال ابن إسحاق: حدثت عن صفية بنت حيى بن أخطب أنها قالت: كنت أَحَبَّ ولد أبى إليه، وإلى عمى أبى ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذانى دونه. قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء فى بنى عمرو بن عوف غدا عليه أبى حيى بن أخطب، وعمى أبو ياسر بن أخطب مُغَلِّسِين، قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كَالَّيْن كسلانين ساقطين يمشيان الهُوَيْنَى. قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلىَّ واحد منهما، مع ما بهما من الغم. قالت: وسمعت عمى أبا ياسر، وهو يقول لأبى حيى بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما فى نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت[(١)].

ويشهد بذلك أيضًا ما رواه البخارى فى إسلام عبد الله بن سَلاَم رضي الله عنه. فقد كان حبرًا من فطاحل علماء اليهود، ولما سمع بمقدم رسول الله ﷺ المدينة فى بنى النجار جاءه مستعجلًا، وألقى إليه أسئلة لا يعلمها إلا نبى، ولما سمع ردوده ﷺ عليها آمن به ساعته ومكانه، ثم قال له: إن اليهود قوم بُهْتٌ، إن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم بَهَتُونِى عندك، فأرسل رسول الله ﷺ فجاءت اليهود، ودخل عبد الله بن سلام البيت. فقال رسول الله ﷺ: **«أى رجل فيكم عبد الله بن سلام؟»** قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا، وأخيرنا وابن أخيرنا - وفى لفظ: سيدنا وابن سيدنا. وفى لفظ آخر: خيرنا وابن خيرنا، وأفضلنا وابن أفضلنا - فقال رسول الله ﷺ: **«أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟»** فقالوا: أعاذه الله من ذلك -مرتين أو ثلاثا- فخرج إليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، قالوا: شرّنا وابن شرّنا، ووقعوا فيه. وفى لفظ: فقال: يا معشر اليهود، اتقوا الله، فوالله الذى لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق. فقالوا: كذبت[(٢)].

وهذه أول تجربة تلقاها رسول الله ﷺ من اليهود فى أول يوم دخل فيه المدينة.

وهذه هى الظروف والقضايا الداخلية التى واجهها الرسول ﷺ حين نزل بالمدينة.

أما من ناحية الخارج فكان يحيط بها من يدين بدين قريش، وكانت قريش ألد عدو للإسلام والمسلمين، جربت عليهم طوال عشرة أعوام - حينما كان المسلمون تحت أيديها

(١) ابن هشام ١/ ٥١٨، ٥١٩.

(٢) انظر: صحيح البخارى ١/ ٤٥٩، ٥٥٦، ٥٦١.

- كل أساليب الإرهاب والتهديد والمضايقة والتعذيب، والمقاطعة والتجويع، وأذاقتهم التنكيلات والويلات، وشنت عليهم حربًا نفسية مضنية مع دعاية واسعة منظمة، ولما هاجر المسلمون إلى المدينة صادرت أرضهم وديارهم وأموالهم، وحالت بينهم وبين أزواجهم وذرياتهم، بل حبست وعذبت من قدرت عليه، ولم تقتصر على هذا، بل تآمرت على الفتك بصاحب الدعوة ﷺ، والقضاء عليه وعلى دعوته، ولم تَأْلُ جهدًا فى تنفيذ هذه المؤامرة. فكان من الطبيعى جدًّا، حينما نجا المسلمون منها إلى أرض تبعد نحو خمسمائة كيلو متر، أن تقوم بدورها السياسى والعسكرى، لما لها من الصدارة الدنيوية والزعامة الدينية بين أوساط العرب بصفتها ساكنة الحرم ومجاورة بيت الله وسدنته، وتغرى غيرها من مشركى الجزيرة ضد أهل المدينة، وفعلًا قامت بذلك كله حتى صارت المدينة محفوفة بالأخطار، وفى شبه مقاطعة شديدة قَلَّتْ لأجلها المستوردات، فى حين كان عدد اللاجئين إليها يزيد يومًا بعد يوم، وبذلك كانت (حالة الحرب) قائمة بين هؤلاء الطغاة من أهل مكة ومن دان دينهم، وبين المسلمين فى وطنهم الجديد.

وكان من حق المسلمين أن يصادروا أموال هؤلاء الطغاة كما صودرت أموالهم، وأن يديلوا عليهم من التنكيلات بمثل ما أدالوا بها، وأن يقيموا فى سبيل حياتهم العراقيل كما أقاموها فى سبيل حياة المسلمين، وأن يكيلوا لهؤلاء الطغاة صاعًا بصاع حتى لا يجدوا سبيلًا لإبادة المسلمين واستئصال خضرائهم.

وهذه هى القضايا والمشاكل الخارجية التى واجهها رسول الله ﷺ بعدما ورد المدينة، وكان عليه أن يعالجها بحكمة بالغة حتى يخرج منها مكللًا بالنجاح.

وقد قام رسول الله ﷺ بمعالجة كل القضايا أحسن قيام، بتوفيق من الله وتأييده، فعامل كل قوم بما كانوا يستحقونه من الرأفة والرحمة أو الشدة والنكال،وذلك بجانب قيامه بتزكية النفوس وتعليم الكتاب والحكمة، ولا شك أن جانب التزكية والتعليم والرأفة والرحمة كان غالبًا على جانب الشدة والعنت، حتى عاد الأمر إلى الإسلام وأهله فى بضع سنوات، وسيجد القارئ كل ذلك جليًّا فى الصفحات الآتية.

المرحلة الأولى

بناء مجتمع جديد

قد أسلفنا أن نزول رسول الله ﷺ بالمدينة فى بنى النجار كان يوم الجمعة (١٢ ربيع الأول سنة ١ هـ/ الموافق ٢٧ سبتمبر سنة ٦٢٢م)، وأنه نزل فى أرض أمام دار أبى أيوب، وقال: «**هاهنا المنزل إن شاء الله**»، ثم انتقل إلى بيت أبى أيوب رضي الله عنه.

بناء المسجد النبوي:

وأول خطوة خطاها رسول الله ﷺ بعد ذلك هو بناء المسجد النبوى، واختار له المكان الذى بركت فيه ناقته ﷺ، فاشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه، وأسهم فى بنائه بنفسه، فكان ينقل اللبِن والحجارة ويقول:

«**اللهم لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخرة فاغْفِرْ للأنصار والمُهَاجِرَة**»

وكان يقول:

«**هذا الحِمَالُ لا حِمَال خَيْبَرَ هذا أَبَرُّ رَبَّنَا وأَطْهَر**»

وكان ذلك مما يزيد نشاط الصحابة فى العمل، حتى إن أحدهم ليقول:

لئن قَعَدْنا والنبى يَعْمَل لذاك مِنَّا العَمَلُ المُضَلَّل

وكانت فى ذلك المكان قبور للمشركين، وكان فيه خرب ونخل وشجرة من غَرْقَد، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فنبشت، وبالخَرِب فسويت، وبالنخل والشجرة فقطعت، وصفت فى قبلة المسجد، وكانت القبلة إلى بيت المقدس، وجعلت عضادتاه من حجارة، وأقيمت حيطانه من اللبن والطين، وجعل سقفه من جريد النخل، وعُمُده الجذوع، وفرشت أرضه بالرمال والحصباء، وجعلت له ثلاثة أبواب، وطوله مما يلى القبلة إلى مؤخره مائة ذراع، والجانبان مثل ذلك أو دونه، وكان أساسه قريبًا من ثلاثة أذرع.

وبنى بجانبه بيوتًا بالحجر واللبن، وسقفها بالجريد والجذوع، وهى حجرات أزواجه ﷺ، وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبى أيوب[(١)].

ولم يكن المسجد موضعًا لأداء الصلوات فحسب، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته، ومنتدى تلتقى وتتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التى طالما

(١) صحيح البخارى ١/ ٧١، ٥٥٥، ٥٦٠، وزاد المعاد ٢/ ٥٦.

نافرت بينها النزعات الجاهلية وحروبها، وقاعدة لإدارة جميع الشئون وبث الانطلاقات، وبرلمان لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية.

وكان مع هذا كله دارًا يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين الذين لم يكن لهم هناك دار ولا مال ولا أهل ولا بنون.

وفى أوائل الهجرة شرع الأذان، تلك النغمة العلوية التى تدوى فى الآفاق، وتهز أرجاء الوجود، تعلن كل يوم خمس مرات بأن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتنفى كل كبرياء فى الكون وكل دين فى الوجود، إلا كبرياء الله، والدين الذى جاء به عبده محمد رسول الله. وقد تشرف برؤيته فى المنام أحد الصحابة الأخيار عبد الله بن زيد بن عبد ربه رضي الله عنه فأقره النبى ﷺ، وقد وافقت رؤياه رؤيا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فأقره النبى ﷺ، والقصة بكاملها مروية فى كتب السنة والسيرة[(١)].

المؤاخاة بين المسلمين:

ثم إن النبى ﷺ بجانب قيامه ببناء المسجد - مركز التجمع والتآلف- قام بعمل آخر من أروع ما يأثره التاريخ، وهو عمل المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، قال ابن القيم: ثم آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلًا، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على المواساة، ويتوارثون بعد الموت دون ذوى الأرحام إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله عز وجل:] Ë Ì Í Î Ï Z [الأنفال: ٧٥] رد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة.

وقد قيل: إنه آخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية... والثبت الأول، والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام وأخوة الدار وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة فيما بينهم، بخلاف المهاجرين مع الأنصار. اهـ[(٢)].

ومعنى هذا الإخاء: أن تذوب عصبيات الجاهلية، وتسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يكون أساس الولاء والبراء إلا الإسلام.

وقد امتزجت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة وإسداء الخير فى هذه الأخوة، وملأت المجتمع الجديد بأروع الأمثال.

روى البخارى: أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد

(١) رواها الترمذى: كتاب الصلاة، باب بدء الأذان ١/ ٣٥٨، ٣٥٩، ح (١٨٩)، وأبو داود وأحمد وغيرهم.
(٢) زاد المعاد ٢/ ٥٦.

ابن الربيع، فقال لعبد الرحمن: إنى أكثر الأنصار مالًا، فاقسم مالى نصفين، ولى امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمها لى، أطلقها، فإذا انقضت عدتها فتزوجها، قال: بارك الله لك فى أهلك ومالك، وأين سوقكم؟ فدلوه على سوق بنى قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أَقِطٍ وسَمْنٍ، ثم تابع الغدو، ثم جاء يومًا وبه أثر صُفْرَة، فقال النبى ﷺ: «مَهْيَمْ؟» قال: تزوجت. قال: «كم سقت إليها؟» قال: نواة من ذهب[(١)].

وروى عن أبى هريرة قال: قالت الأنصار للنبى ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. قال: «لا»، فقالوا: فتكفونا المؤنة ونشرككم فى الثمرة. قالوا: سمعنا وأطعنا[(٢)].

وهذا يدلنا على ما كان عليه الأنصار من الحفاوة البالغة بإخوانهم المهاجرين، ومن التضحية والإيثار والود والصفاء، وما كان عليه المهاجرون من تقدير هذا الكرم حق قدره، فلم يستغلوه ولم ينالوا منه إلا بقدر ما يقيم أودهم.

وحقًا فقد كانت هذه المؤاخاة حكمةً فذةً، وسياسةً حكيمةً، وحلًا رشيدًا لكثير من المشاكل التى كان يواجهها المسلمون، والتى أشرنا إليها.

ميثاق التحالف الإسلامى[(٣)]:

وكما قام رسول الله ﷺ بعقد هذه المؤاخاة بين المؤمنين، قام بعقد معاهدة أزاح بها

---

(١) نواة الذهب كانت قيمتها يومئذ خمسة دراهم، وقيل: كان قدرها ربع دينار. و «مهيم»: ما شأنك. انظر: صحيح البخارى: باب إخاء النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار ١/ ٥٥٣.

(٢) صحيح البخارى: باب إذا قال: اكفنى مؤنة النخل... إلخ مع فتح البارى ٤/ ٣٣٧، ح ٢٠٤٩، وأيضا (٢٢٩٣، ٣٧٨١، ٣٩٣٧، ٥٠٧٢، ٥١٤٨، ٥١٥٣، ٥١٥٥، ٥١٦٧، ٦٠٨٢، ٦٣٨٦)، وقصة المؤاخاة مروية فى صحيح مسلم، ح (٢٥٢٩)، وسنن أبى داود، ح (٢٩٢٦)، والأدب المفرد، ح (٥٦١)، ومسند أبى يعلى ٤/ ٣٦٦ وغيرها من الكتب.

(٣) هذا التحالف مرحلة انتقالية تمر بها الأمم أثناء التكوين والبناء، قبل التكامل والنضج، وذلك ليتم نقلهم تدريجيا من وحداتهم القبلية المتفككة- المتناحرة فيما بينها فى غالب الأحوال- إلى وحدة إسلامية متماسكة، ولإذابة عصبيتهم الجاهلية فى حرارة الأخوة الدينية. أما إذا اكتمل هذا التكوين والبناء- أى تكوين الأمة وبناءها- وأرسيت قواعد الأخوة الدينية فيما بين أفرادها، فإنها تورث فيما بينهم وحدة وتوجب حقوقًا لا يبقى بعدها أى مجال لأى تشتت يحتاج إلى تحالف المسلمين فيما بينهم، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «**لا حلف فى الإسلام، وأيما حلف كان فى الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة**» (مسلم: فضائل الصحابة، باب المؤاخاة). أما قبل التكوين وفى مرحلة الانتقال فإن الحلف أمر مطلوب. قيل لأنس بن مالك: أبلغك أن النبى ﷺ قال: «**لا حلف فى الإسلام**»؟ فقال: قد =

ما كان بينهم من حزازات فى الجاهلية، وما كانوا عليه من نزعات قبلية جائرة، واستطاع بفضلها إيجاد وحدة إسلامية شاملة. وفيما يلى بنودها ملخصًا:

«هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم:

١ـ إنهم أمة واحدة من دون الناس.

٢ـ المهاجرون من قريش على رِبْعَتِهم[١] يتعاقلون بينهم، وهم يَفْدُون عَانِيهم[٢] بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وكل قبيلة من الأنصار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٣ـ وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا[٣] بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل.

٤ـ وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دَسِيعة[٤] ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين.

٥ـ وإن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم.

٦ـ ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر.

٧ـ ولا ينصر كافرًا على مؤمن.

٨ – وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم.

٩– وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

١٠– وإن سلم المؤمنين واحدة؛ لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

١١– وإن المؤمنين يبيء[٥] بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله.

١٢– وإنه لا يجير مشرك مالًا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن.

= حالف النبى ﷺ بين قريش والأنصار فى دارى. (صحيح البخارى: الكفالة ح (٢٢٩٤، ٦٠٨٣، ٧٣٤٠)، ولينظر: صحيح مسلم ٤/ ١٩٦٠، ح (٢٥٢٩)، وسنن أبى داود، ح (٢٩٢٦)، والأدب المفرد، ح (٥٦١)، ومسند أبى يعلى ٤/ ٣٦٦.

(١) على حالهم قبل الإسلام.
(٢) أسيرهم.
(٣) المثقل من الدين والعيال.
(٤) عطية.
(٥) يمنع ويكف.

١٣- وإنه من اعتبط[١] مؤمنًا قتلًا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول.

١٤- وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

١٥- وإنه لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثًا ولا يؤويه، وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صَرْف ولا عَدْل.

١٦- وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله - عز وجل - وإلى محمد ﷺ»[٢].

أثر المعنويات فى المجتمع:

بهذه الحكمة وبهذا التدبير أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد، كانت صورته الظاهرة بيانا وآثارًا للمعانى التى كان يتمتع بها أولئك الأمجاد بفضل صحبة النبى ﷺ، وكان النبى ﷺ يتعهدهم بالتعليم والتربية، وتزكية النفوس، والحث على مكارم الأخلاق، ويؤدبهم بآداب الود والإخاء والمجد والشرف والعبادة والطاعة.

سأله رجل: أى الإسلام خير؟ قال: «**تطعم الطعام، وتقرئ السلام على من عرفت ومن لم تعرف**»[٣].

قال عبد الله بن سلام: لما قدم النبى ﷺ المدينة جئت، فلما تبينت وجهه، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما قال: «**يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام**»[٤]

وكان يقول: «**لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه**»[٥].

ويقول: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[٦].

ويقول: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[٧].

ويقول: «**المؤمنون كرجل واحد، إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله**»[٨].

---

(١) قتله بلا جناية.
(٢) ابن هشام ١/ ٥٠٢، ٥٠٣.
(٣) صحيح البخارى ١/ ٦، ٩.
(٤) رواه الترمذى وابن ماجه والدارمى، مشكاة المصابيح ١/ ١٦٨.
(٥) رواه مسلم، مشكاة المصابيح ٢/ ٤٢٢.
(٦، ٧) صحيح البخارى ١/ ٦.
(٨) رواه مسلم، مشكاة المصابيح ٢/ ٤٢٢.

ويقول: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[١].

ويقول: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»[٢].

ويقول: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة»[٣].

ويقول: «ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء».[٤]

ويقول: «ليس المؤمن بالذى يشبع وجاره جائع إلى جانبه»[٥].

ويقول: «سِباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر»[٦].

وكان يجعل إماطة الأذى عن الطريق صدقة، ويعدها شعبة من شعب الإيمان[٧].

وكان يحثهم على الإنفاق، ويذكر من فضائله مايقع موقعه من القلوب، فكان يقول: «الصدقة تطفئ الخطايا كما يطفئ الماء النار»[٨].

ويقول: «أيما مسلم كسا مسلمًا ثوبًا على عُرى كساه الله من خُضر الجنة، وأيما مسلم أطعم مسلمًا على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، وأيما مسلم سقى مسلمًا على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم»[٩].

ويقول: «اتقوا الناء ولو بشق تمرة، فإن لم تجد فبكلمة طيبة»[١٠].

وبجانب هذا كان يحث حثًّا شديدًا على الاستعفاف عن المسألة، ويذكر فضائل الصبر

---

(١) متفق عليه، مشكاة المصابيح ٢/ ٤٢٢.
(٢) صحيح البخارى ٢/ ٨٩٦.
(٣) متفق عليه، مشكاة المصابيح ٢/ ٤٢٢.
(٤) سنن أبى داود ٢/ ٣٣٥، وجامع الترمذى ٢/ ١٤.
(٥) رواه البيهقى فى شعب الإيمان، مشكاة المصابيح ٢/ ٤٢٤.
(٦) صحيح البخارى ٢/ ٨٩٣، والترمذى: كتاب البر والصلة، باب (٥٢) ٤/ ٣١١، ح (١٩٨٣).
(٧) والحديث فى ذلك مروى فى الصحيحين، انظر: مشكاة المصابيح ١/ ١٢، ١٦٧.
(٨) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه، مشكاة المصابيح ١/ ١٤.
(٩) سنن أبى داود، مشكاة المصابيح ١/ ١٦٩، وجامع الترمذى ٤/ ٥٤٦، ح (٢٤٤٩).
(١٠) صحيح البخارى ١/ ١٩٠، ٢/ ٨٩٠.

والقناعة، فكان يعد المسألة كدوحًا أو خدوشًا أو خموشًا فى وجه السائل[١] اللهم إلا إذا كان مضطرًّا.

كما كان يبين لهم ما فى العبادات من الفضائل والأجر والثواب عند الله، وكان يربطهم بالوحى النازل عليه من المساء ربطًا موثقًا، فكان يقرؤه عليهم ويقرؤونه: لتكون هذه الدراسة إشعارًا بما عليهم من حقوق الدعوة وتبعات الرسالة، فضلًا عن ضرورة الفهم والتدبر.

وهكذا هذب تفكيرهم، ورفع معنوياتهم، وأيقظ مواهبهم، وزودهم بأعلى القيم والأقدار، حتى وصلوا إلى أعلى قمة من الكمال عرفت فى تاريخ البشر بعد الأنبياء.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: من كان مستنا فليستن بمن قد مات، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة؛ وأبرها قلوبًا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفًا، اختارهم الله لصحبة نبيه، ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على أثرهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم[٢].

ثم إن هذا الرسول القائد الأعظم ﷺ كان يتمتع من الصفات المعنوية والظاهرة، ومن الكمالات والمواهب، والأمجاد والفضائل، ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال بما جعلته تهوى إليه الأفئدة، وتتفانى عليه النفوس، فما يتكلم بكلمة إلا ويبادر صحابته رضي الله عنهم إلى امتثالها، وما يصدر من إرشاد أو توجيه إلا ويتسابقون إلى العمل به.

بمثل هذا استطاع النبى ﷺ أن يبنى فى المدينة مجتمعًا جديدًا أروع وأشرف مجتمع عرفه التاريخ، وأن يضع لمشاكل هذا المجتمع حلًّا تنفست له الإنسانية الصعداء، بعد أن كانت قد تعبت فى غياهب الزمان ودياجير الظلمات.

وبمثل هذه المعنويات الشامخة تكاملت عناصر المجتمع الجديد الذى واجه كل تيارات الزمان حتى صرف وجهتها، وحول مجرى التاريخ والأيام.

---

(١) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه والدارمى، مشكاة المصابيح ١/ ١٦٣.

(٢) رواه رزين، مشكاة المصابيح ١/ ٣٢.

معاهدة مع اليهود

بعد أن أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد وأمة إسلامية جديدة، بإقامة الوحدة العقدية والسياسية والنظامية بين المسلمين، بدأ بتنظيم علاقاته بغير المسلمين، وكان قصده بذلك توفير الأمن والسلام والسعادة والخير للبشرية جمعاء، مع تنظيم المنطقة فى وفاق واحد، فسن فى ذلك قوانين السماح والتجاوز التى لم تعهد فى ذلك العالم الملىء بالتعصب والأغراض الفردية والعرقية.

وأقرب من كان يجاور المدينة من غير المسلمين هم اليهود - كما أسلفنا - وهم وإن كانوا يبطنون العداوة للمسلمين، لكن لم يكونوا أظهروا أية مقاومة أو خصومة بعد، فعقد معهم رسول الله ﷺ معاهدة قرر لهم فيها النصح والخير، وترك لهم فيها مطلق الحرية فى الدين والمال، ولم يتجه إلى سياسة الإبعاد أو المصادرة والخصام.

وفيما يلى أهم بنود هذه المعاهدة:

بنود المعاهدة:

١- إن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، وكذلك لغير بنى عوف من اليهود.

٢- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

٣- وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.

٤- وإن بينهم النصح والنصحية، والبر دون الإثم.

٥- وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه.

٦- وإن النصر للمظلوم.

٧- وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٨- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٩- وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل، وإلى محمد رسول الله ﷺ.

١٠- وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها.

obeikandl.com

١١- وإن بينهم النصر على من دَهَم يثرب.. على كل أناس حصتهم من جابنهم الذى قبلهم.

١٢- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم[١].

وبإبرام هذه المعاهدة صارت المدينة وضواحيها دولة وفاقية، عاصمتها المدينة، ورئيسها - إن صح هذا التعبير - رسول الله ﷺ، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين.

ولتوسيع منطقة الأمن والسلام عاهد النبى ﷺ قبائل أخرى فى المستقبل بمثل هذه المعاهدة، حسب ما اقتضته الظروف، وسيأتى ذكر شىء عنها.

(١) انظر: ابن هشام ١/ ٥٠٣، ٥٠٤.

obeikandl.com

الكفاح الدامي

استفزازات قريش واتصالهم بعبد الله بن أبيّ:

تقدم ما أدلى به كفار مكة من التنكيلات والويلات على المسلمين فى مكة، ثم ما أتوا به من الجرائم التى استحقوا لأجلها المصادرة والقتال عند الهجرة، ثم إنهم لم يفيقوا من غيهم ولا امتنعوا عن عدوانهم بعدها، بل زادهم غيظًا أن فاتهم المسلمون ووجدوا مأمنًا ومقرًّا بالمدنية، فكتبوا إلى عبد الله بن أبى ابن سلول- وكان إذ ذاك مشركًا - بصفته رئيس الأنصار قبل الهجرة - فمعلوم أنهم كانوا قد اتفقوا عليه، وكادوا يجعلونه ملكًا على أنفسهم، لولا أن هاجر رسول الله ﷺ إليهم، وآمنوا به - كتبوا إليه وإلى أصحابه المشركين، يقولون لهم فى كلمات باتة:

إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم[(١)].

وبمجرد بلوغ هذا الكتاب قام عبد الله بن أبى ليمتثل أوامر إخوانه المشركين من أهل مكة - وقد كان يحقد على النبى ﷺ: لما يراه أنه استبله ملكه- يقول عبد الرحمن بن كعب: فلما بلغ ذلك عبد الله بن أبى ومن كان معه من عبدة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ، فلما بلغ ذلك النبى ﷺ لقيهم، فقال: **«لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر ما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم»**، فلما سمعوا ذلك من النبى ﷺ تفرقوا[(٢)].

امتنع عبد الله بن أبى ابن سلول عن القتال إذ ذاك، لما رأى خورًا أو رشدًا فى أصحابه، ولكن يبدو من تصرفاته أنه كان متواطئًا مع قريش، فكان لا يجد فرصة إلا وينتهزها لإيقاع الشر بين المسلمين والمشركين، وكان يضم معه اليهود، ليعينوه على ذلك، ولكن تلك هى حكمة النبى ﷺ التى كانت تطفئ نار شرهم حينا بعد حين[(٣)].

إعلان عزيمة الصد عن المسجد الحرام:

ثم إن سعد بن معاذ انطلق إلى مكة معتمرًا، فنزل على أمية بن خلف بمكة، فقال

(١، ٢) أبو داود: باب خبر النضير ٢/ ١٥٤.

(٣) انظر فى هذا الصدد: صحيح البخارى ٢/ ٦٥٥، ٦٥٦، ٩١٦، ٩٢٤.

لأمية: انظر لى ساعة خلوة لعلى أن أطوف البيت، فخرج به قريبًا من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان، من هذا معك؟ فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنًا وقد آويتم الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم، وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبى صفوان ما رجعت إلى أهلك سالمًا، فقال له سعد - ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتنى هذا لأمنعك ما هو أشد عليكم منه: طريقك على أهل المدينة[١].

قريش تهدد المهاجرين:

وكأن قريشًا كانت تعتزم على شر أشد من هذا، وتفكر فى القيام بنفسها للقضاء على المسلمين، وخاصة على النبى ﷺ.

ولم يكن هذا مجرد وهم أو خيال، فقد تأكد لدى رسول الله ﷺ من مكائد قريش وإرادتها على الشر ما كان لأجله لا يبيت إلا ساهرًا، أو فى حرس من الصحابة. روى الشيخان فى صحيحيهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: سهر رسول الله ﷺ مَقْدَمَه المدينة ليلة فقال: «**ليت رجلًا صالحًا من أصحابى يحرسنى الليلة**»، قالت: فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح، فقال: «**من هذا؟**» قال: سعد بن أبى وقاص، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما جاء بك؟**» فقال: وقع فى نفسى خوف على رسول الله ﷺ، فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ، ثم نام[٢].

ولم تكن هذه الحراسة مختصة ببعض الليالى، بل كان ذلك أمرًا مستمرًّا، فقد روى عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يحرس ليلًا حتى نزل:] Z [ ] \ [Z [المائدة: ٦٧]، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال: «**يا أيها الناس، انصرفوا عنى فقد عصمنى الله عز وجل**»[٣].

ولم يكن الخطر مقتصرًا على رسول الله ﷺ، بل كان يحدق بالمسلمين كافة، فقد روى أبى بن كعب، قال: لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه.

---

(١) صحيح البخارى: كتاب المغازى ٢/ ٥٦٣.

(٢) صحيح البخارى: كتاب الجهاد، باب الحراسة فى الغزو فى سبيل الله، ح (٢٨٨٥) فتح البارى ٦/ ٩٥ وح (٧٢٣١) فتح البارى ١٣/ ٢٣٢، وصحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضل سعد بن أبى وقاص ٤/ ١٨٧٥، ح (٤٠). والخشخشة: حركة لها صرت كصوت السلاح.

(٣) جامع الترمذى: تفسير سورة المائدة ٥/ ٢٣٤، ح (٣٠٤٦).

الإذن بالقتال:

فى هذه الظروف الخطيرة التى كانت تهدد كيان المسلمين بالمدينة، وتنبئ عن قريش أنهم لا يفيقون عن غيهم ولا يمتنعون عن تمردهم بحال، أنزل الله تعالى الإذن بالقتال للمسلمين ولم يفرضه عليهم، قال تعالى:] ! " # $ % ' ( ) * + , Z [الحج].

وأنزل معه آيات بين لهم فيها أن هذا الإذن إنما هو لإزاحة الباطل وإقامة شعائر الله، قال تعالى:] T U V W X Y Z [\ ] ^ _ ` a Z [الحج: ٤١].

وكان الإذن مقتصرًا على قتال قريش، ثم تطور فيما بعد مع تغير الظروف حتى وصل إلى مرحلة الوجوب، وجاوز قريشًا إلى غيرهم، ولا بأس أن نذكر تلك المراحل بإيجاز قبل أن ندخل فى ذكر الأحداث:

١- **اعتبار مشركى قريش محاربين؛** لأنهم بدأوا بالعدوان، فحق للمسلمين أن يقاتلوهم ويصادروا أموالهم دون غيرهم من بقية مشركى العرب.

٢- **قتال كل من تمالأ من مشركى العرب مع قريش واتحد معهم،** وكذلك كل من تفرد بالاعتداء على المسلمين من غير قريش.

٣- **قتال من خان أو تحيز للمشركين من اليهود الذين كان لهم عقد وميثاق مع** رسول الله ﷺ، ونبذ ميثاقهم إليهم على سواء.

٤- **قتال من بادأ بعداوة المسلمين من أهل الكتاب،** كالنصارى، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

٥- **الكف عمن دخل فى الإسلام، مشركًا كان أو يهوديًّا أو نصرانيًّا** أو غير ذلك، فلا يتعرض لنفسه وماله إلا بحق الإسلام، وحسابه على الله.

ولما نزل الإذن بالقتال رأى رسول الله ﷺ أن يبسط سيطرته على الطريق الرئيس الذى تسلكه قريش من مكة إلى الشام فى تجاراتهم، واختار لذلك خطتين:

الأولى: عقد معاهدات الحلف أو عدم الاعتداء مع القبائل التى كانت مجاورة لهذا الطريق، أو كانت تقطن ما بين هذا الطريق وما بين المدينة، وقد عقد ﷺ معاهدة مع جهينة قبل الأخذ فى النشاط العسكرى، وكانت مساكنهم على ثلاث مراحل من المدينة، كما عقد

معاهدات أخرى أثناء دورياته العسكرية، وسيأتى ذكرها.

الثانية: إرسال البعوث واحدة تلو الأخرى إلى هذا الطريق.

الغزوات والسرايا قبل بدر[١]:

ولتنفيذ هاتين الخطتين بدأ بالتحركات العسكرية فعلًا بعد نزول الإذن بالقتال، وكانت أشبه بالدوريات الاستطلاعية، وكان المطلوب منها كما أشرنا:

* الاستكشاف والتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة، والمسالك المؤدية إلى مكة.

* عقد المعاهدات مع القبائل التى مساكنها على هذه الطرق.

* إشعار مشركى يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم.

* إنذار قريش عُقبَى طيشها، حتى تفيق عن غَيِّهَا الذى لا يزال يتوغل فى أعماقها، وعلها تشعر بتفاقم الخطر على اقتصادها وأسباب معايشها فتجنح إلى السلم، وتمتنع عن إرادة قتال المسلمين فى عقر دارهم، وعن الصد عن سبيل الله، وعن تعذيب المستضعفين من المؤمنين فى مكة، حتى يصير المسلمون أحرارًا فى إبلاغ رسالة الله فى ربوع الجزيرة.

وفيما يلى أحوال هذه السرايا بالإيجاز:

١- سرية سيف البحر:

فى رمضان سنة ١هـ، الموافق مارس سنة ٦٢٣م، أمر رسول الله ﷺ على هذه السرية حمزة بن عبد المطلب، وبعثه فى ثلاثين رجلًا من المهاجرين يعترضون عيرًا لقريش جاءت من الشام، وفيها أبو جهل بن هشام فى ثلاثمائة رجل، فبلغوا سيف البحر من ناحية العيص[٢]، فالتقوا واصطفوا للقتال، فمشى مجدى بن عمرو الجهنى - وكان حليفًا للفريقين جميعًا - بين هؤلاء وهؤلاء حتى جحز بينهم فلم يقتتلوا.

وكان لواء حمزة أول لواء عقده رسول الله ﷺ، وكان أبيض، وحمله أبو مرثد كَنَّاز بن حصين الغَنَوِىّ.

---

(١) سمى المؤرخون ما خرج فيه النبى ﷺ بنفسه: غزوة، حارب فيها أم لم يحارب، وما خرج فيه أحد قادته: سرية.

(٢) العيص- بالكسر: مكان بين ينبع والمروة ناحية البحر الأحمر.

٢-سرية رَابغ:

فى شوال سنة ١ من الهجرة، الموافق أبريل سنة ٦٢٣م، بعث لها رسول الله ﷺ عبيدة ابن الحارث بن المطلب فى ستين رجلًا من المهاجرين، فلقى أبا سفيان - وهو فى مائتين - على بطن رابغ، وقد ترامى الفريقان بالنبل، ولم يقع قتال.

وفى هذه السرية انضم رجلان من جيش مكة إلى المسلمين، وهما المقداد بن عمرو البهرانى، وعتبة بن غَزْوَان المازنى، وكانا مسلمين خرجا مع الكفار ليكون ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين، وكان لواء عبيدة أبيض، وحامله مِسْطَح بن أُثاثة بن المطلب بن عبد مناف.

٣- سرية الخَرَّار[١]:

فى ذى العقدة سنة ١هـ، الموافق مايو سنة ٦٢٣م، بعث لها رسول الله ﷺ سعد بن أبى وقاص فى عشرين رجلا يعترضون عيرًا لقريش، وعهد إليه إلا يجاوز الخرار، فخرجوا مشاة يكمنون بالنهار، ويسيرون بالليل، حتى بلغوا الخرار صبيحة خمس، فوجدوا العير قد مرت بالأمس.

كان لواء سعد رضي الله عنه أبيض، وحمله المقداد بن عمرو.

٤-غزوة الأبواء أو وَدَّان[٢]:

فى صفر سنة ٢هـ، الموافق أغسطس سنة ٦٢٣م، خرج رسول الله ﷺ فيها بنفسه فى سبعين رجلًا من المهاجرين خاصة يعترض عيرًا لقريش، حتى بلغ ودان، فلم يلق كيدًا، واستخلف فيها على المدينة سعد بن عبادة رضي الله عنه.

وفى هذه الغزوة عقد معاهدة حلف مع عمرو بن مَخْشِىّ الضَّمْرِىّ، وكان سيد بنى ضمرة فى زمانه، وهذا نص المعاهدة: «**هذا كتاب من محمد رسول الله لبنى ضمره، فإنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وإن لهم النصر على من رامهم إلا أن يحاربوا دين الله، ما بَلَّ بَحْرُ صُوفَة، وأن النبى إذا دعاهم لنصره أجابوه**»[٣].

---

(١) الخرار- بالفتح فالتشديد: موضع بالقرب من الجحفة.

(٢) وَدّان- بالفتح فالتشديد: موضع بين مكة والمدينة، بينه وبين رابغ مما يلى المدينة ٢٩ ميلًا، والأبواء: موضع بالقرب من ودان.

(٣) انظر: المواهب اللدنية ١/ ٧٥ وشرحه للزرقانى. وما بل بحر صوفة: أى ما دام فى البحر ما يبلّ الصوفة.

وهذه أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة، وكان اللواء أبيض وحامله حمزة بن عبد المطلب.

٥- غزوة بُوَاط:

فى شهر ربيع الأول سنة ٢ هـ الموافق سبتمبر سنة ٦٢٣م، خرج فيها رسول الله ﷺ فى مائتين من أصحابه، يعترض عيرًا لقريش فيها أمية بن خلف الْجُمَحِىّ ومائة رجل من قريش، وألفان وخمسمائة بعير، فبلغ بواطا من ناحية رَضْوَى[١] ولم يلق كيدا.

واستخلف فى هذه الغزوة على المدينة سعد بن معاذ، واللواء كان أبيض، وحامله سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه.

٦-غزوة سَفَوان:

فى شهر ربيع الول سنة ٢هـ، الموافق سبتمبر سنة ٦٢٣م، أغار كُرْز بن جابر الفهرى فى قوات خفيفة من المشركين على مراعى المدينة، ونهب بعض المواشى، فخرج رسول الله ﷺ فى سبعين رجلًا من أصحابه لمطاردته، حتى بلغ واديًا يقال له: سفوان من ناحية بدر، ولكنه لم يدرك كرزًا وأصحابه، فرجع من دون حرب، وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى.

واستخلف فى هذه الغزوة على المدينة زيد بن حارثة، وكان اللواء أبيض، وحامله على ابن أبى طالب.

٧- غزوة ذى الْعُشَيْرَة:

فى جمادى الأولى، وجمادى الآخرة سنة ٢هـ، الموافق نوفمبر وديسمبر سنة ٦٢٣هـ، خرج فيها رسول الله ﷺ فى خمسين ومائة ويقال: فى مائتين، من المهاجرين، ولم يكره أحدًا على الخروج، وخرجوا على ثلاثين بعيرًا يعتقبونها، يعترضون عيرًا لقريش، ذاهبة إلى الشام، وقد جاء الخبر بفصولها من مكة، فيها أموال لقريش فبلغ ذا العشيرة[٢]، فوجد العير قد فاتته بأيام، وهذه هى العير التى خرج فى طلبها حين رجعت من الشام، فصارت سببًا لغزوة بدر الكبرى.

---

(١) بُوَاط ورضوى: جبلان فرعان أصلهما واحد من جبال جهينة مما يلى طريق الشام، بينه وبين المدينة نحو ٤٨ ميلًا.

(٢) العشَيرة- مصغرًا، ويقال: العشيراء بالمد، وقيل: العسيرة، بالمهملة: موضع بناحية ينبع.

وكان خروجه ﷺ فى أواخر جمادى الأولى، ورجوعه فى أوائل جمادى الآخرة، على ما قاله ابن إسحاق، ولعل هذه هو سبب اختلاف أهل السير فى تعيين شهر هذه الغزوة.

وفى هذه الغزوة عقد رسول الله ﷺ معاهدة عدم اعتداء مع بنى مُدْلِج وحلفائهم من بنى ضَمْرَة.

واستخلف على المدينة فى هذه الغزوة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى، وكان اللواء أبيض، وحامله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه.

٨- سرية نخلة:

فى رجب سنة ٢هـ، الموافق يناير سنة ٦٢٤م، بعث رسول الله ﷺ فيها عبدالله ابن جحش الأسدي إلى نخلة في اثنى عشر رجلا من المهاجرين، كل اثنين يعتقبان على بعير.

وكان رسول الله ﷺ كتب له كتابًا، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، ثم ينظر فيه. فسار عبد الله ثم قرأ الكتاب بعد يومين، فإذا فيه: «**إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم**». فقال: سمعًا وطاعة، وأخبر أصحابه بذلك، وأنه لا يستكرههم، فمن أحب الشهادة فلينهض، ومن كره الموت فليرجع، وأما أنا فناهض، فنهضوا كلهم، غير أنه لما كان فى أثناء الطريق أضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرًا لهما كانا يعتقبانه، فتخلفا فى طلبه.

وسار عبد الله بن جحش حتى نزل بنخلة، فمرت عير لقريش تحمل زبيبًا وأدمًا وتجارة، وفيها عمرو بن الحضرمى، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان مولى بنى المغيرة. فتشاور المسلمون وقالوا: نحن فى آخر يوم من رجب الشهر الحرام، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم، ثم اجتمعوا على اللقاء، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمى فقتله، وأسروا عثمان والحكم وأفلت نوفل، ثم قدموا بالعير والأسيرين إلى المدينة، وقد عزلوا من ذلك الخمس، وهو أول خمس كان فى الإسلام، وأول قتيل فى الإسلام، وأول أسيرين فى الإسلام.

وأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه، وقال: «**ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام**»، وتوقف عن التصرف فى العير والأسيرين.

ووجد المشركون فيما حدث فرصة لاتهام المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله، وكثر فى ذلك القيل والقال، حتى نزل الوحى حاسمًا هذه الأقاويل وأن ما عليه المشركون أكبر

وأعظم مما ارتكبه المسلمون:] L K J I H G F E D C B A @ ? > = < ; : 9 8 7 6 5 4 3 2 1 0 / . - , + *) (' & % $ # " ! Z [البقرة: ٢١٧].

فقد صرح هذا الوحى بأن الضجة التى افتعلها المشركون لإثارة الريبة فى سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها، فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها فى محاربة الإسلام، واضطهاد أهله، ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر سلب أموالهم وقتل نبيهم؟ فما الذى أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة، فأصبح انتهاكها معرة وشناعة؟ لا جرم أن الدعاية التى أخذ ينشرها المشركون دعاية تبتنى على وقاحة ودعارة.

وبعد ذلك أطلق رسول الله ﷺ سراح الأسيرين، وأدى دية المقتول إلى أوليائه[(١)].

* * *

تلكم السرايا والغزوات قبل بدر، لم يجر فى أحد منها سلب الأموال وقتل الرجال إلا بعد ما ارتكبه المشركون فى قيادة كرز بن جابر الفهرى، فالبداية إنما هى من المشركين مع ما كانوا قد أتوه قبل ذلك من الأفاعيل.

وبعد وقوع ما وقع فى سرية عبد الله بن جحش تحقق خوف المشركين وتجسد أمامهم الخطر الحقيقى، ووقعوا فيما كانوا يخشون الوقوع فيه، وعلموا أن المدينة فى غاية من التيقظ والتربص، تترقب كل حركة من حركاتهم التجارية، وأن المسلمين يستطيعون أن يزحفوا إلى ثلاثمائة ميل تقريبًا، ثم يقتلوا ويأسروا رجالهم، ويأخذوا أموالهم، ويرجعوا سالمين غانمين، وشعر هؤلاء المشركون بأن تجارتهم إلى الشام أمام خطر دائم، لكنهم بدل أن يفيقوا عن غيهم، ويأخذوا طريق الصلاح والموادعة - كما فعلت جهينة وبنو ضمرة - ازدادوا حقدًا وعيظًا، وصمم صناديدهم وكبراؤهم على ما كانوا يوعدون ويهددون به من قبل: من إبادة المسلمين فى عقر دارهم، وهذا هو الطيش الذى جاء بهم إلى بدر.

أما المسلمون فقد فرض الله عليهم القتال بعد وقعة سرية عبد الله بن جحش فى شهر شعبان سنة ٢هـ، وأنزل فى ذلك آيات بينات:] وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ ! " # $ % & ' ( )

(١) أخذنا تفاصيل هذه السرايا والغزوات من زاد المعاد ٢/ ٨٣- ٨٥، وابن هشام ١/ ٥٩١- ٦٠٥، وفى المصادر اختلاف فى ترتيب هذه الغزوات والسرايا، وفى تعيين عدد الخارجين فيها. واعتمدنا فى ذلك على تحقيق العلامة ابن القيم.

> = < ; : 9 8 7 6 5 4 3 2 1 0 / . - , + *
T S R Q P O N M L K J I H G F E D C B A @ ?
Z V U [البقرة].

ثم لم يلبث أن أنزل الله تعالى عليهم آيات من نوع آخر، يعلمهم فيها طريقة القتال، ويحثهم عليه، ويبين لهم بعض أحكامه: [فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ Z [محمد].

ثم ذم الله الذين طفقت أفئدتهم ترجف وتخفق حين سمعوا الأمر بالقتال: [ ) (: 9 8 7 6 5 4 3 2 1 0 / . - , + *) ; Z [محمد: ٢٠].

وإيجاب القتال والحض عليه، والأمر بالاستعداد له هو عين ما كانت تقتضيه الأحوال، ولو كان هناك قائد يسبر أغوار الظروف لأمر جنده بالاستعداد لجميع الطوارئ، فكيف بالرب العليم المتعال، فالظروف كانت تقتضى عراكًا داميًا بين الحق والباطل، وكانت وقعة سرية عبد الله بن جحش ضربة قاسية على غيرة المشركين وحميتهم، آلمتهم وتركتهم يتقلبون على مثل الجمر.

وآيات الأمر بالقتال تدل بفحواها على قرب العراك الدامى، وأن النصر والغلبة فيه للمسلمين نهائيا، انظر كيف يأمر الله المسلمين بإخراج المشركين من حيث أخرجوهم، وكيف يعلمهم أحكام الجند المتغلب فى الأسارى والإثخان فى الأرض حتى تضع الحرب أوزارها، هذه كلها إشارة إلى غلبة المسلمين نهائيًا. ولكن ترك كل ذلك مستورًا حتى يأتى كل رجل بما فيه من التحمس فى سبيل الله.

وفى هذه الأيام - فى شعبان سنة ٢هـ / فبراير ٦٢٤م - أمر الله تعالى بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، وأفاد ذلك أن الضعفاء والمنافقين من اليهود الذين كانوا قد دخلوا في صفوف المسلمين لإثارة البلبلة، انكشفوا عن المسلمين ورجعوا إلى ما كانوا عليه، وهكذا تطهرت صفوف المسلمين عن كثير من أهل الغدر والخيانة.

ولعل فى تحويل القبلة إشارة لطيفة إلى بداية دور جديد لا ينتهى إلا بعد احتلال

المسلمين هذه القبلة، أو ليس من العجب أن تكون قبلة قوم بيد أعدائهم، وإن كانت بأيديهم فعلا فلابد من تخليصها يوما ما إن كانوا على الحق.

وبهذه الأوامر والإشارات زاد نشاط المسلمين، واشتد شوقهم إلى الجهاد فى سبيل الله، ولقاء العدو فى معركة فاصلة لإعلاء كلمة الله.

* * *

obeikandl.com

غزوة بدر الكبرى

أول معركة من معارك الإسلام الفاصلة

سبب الغزوة:

سبق فى ذكر غزوة العُشَيْرَة أن عيرًا لقريش أفلتت من النبى ﷺ فى ذهابها من مكة إلى الشام، فلما قرب رجوعها من الشام إلى مكة بعث رسول الله ﷺ طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى الشمال ليقوما باكتشاف خبرها، فوصلا إلى الحَوْرَاء ومكثا حتى مر بهما أبو سفيان بالعير، فأسرعا إلى المدينة وأخبرا رسول الله ﷺ الخبر.

وكانت العير تحمل ثروات طائلة لكبار أهل مكة ورؤسائها: ألف بعير موقرة بأموال لا تقل عن خمسين ألف دينار ذهبى. ولم يكن معها من الحرس إلا نحو أربعين رجلا.

إنها فرصة ذهبية للمسلمين ليصيبوا أهل مكة بضربة اقتصادية قاصمة، تتألم لها قلوبهم على مر العصور، لذلك أعلن رسول الله ﷺ قائلًا: «**هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها**».

ولم يعزم على أحد بالخروج، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة، لما أنه لم يكن يتوقع عند هذا الانتداب أنه سيصطدم بجيش مكة - بدل العير- هذا الاصطدام العنيف فى بدر؛ ولذلك تخلف كثير من الصحابة فى المدينة، وهم يحسبون أن مضى رسول الله ﷺ فى هذا الوجه لن يعدو ما ألفوه فى السرايا والغزوات الماضية؛ ولذلك لم ينكر على أحد تخلفه فى هذه الغروة.

مبلغ قوة الجيش الإسلامى وتوزيع القيادات:

واستعد رسول الله ﷺ للخروج ومعه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا (٣١٣، أو ٣١٤، أو ٣١٧ رجلًا - ٨٢ أو ٨٣ أو ٨٦ من المهاجرين و ٦١ من الأوس و ١٧٠ من الخزرج) ولم يحتفلوا لهذا الخروج احتفالا بليغا، ولا اتخذوا أهبتهم كاملة، فلم يكن معهم إلا فرس[1] أو فرسان: فرس للزبير ابن العوام، وفرس للمقداد بن الأسود الكندى، وكان معهم سبعون بعيرا يعتقب الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وكان رسول الله ﷺ وعلىّ ومَرْثَدَ بن أبى مرثد

(١) وهذا رواه أبو يعلى فى مسنده ١/ ٢٤٢، ح (٢٨٠) و ١/ ٢٦٠، ح (٣٠٥)، وروى ذلك أيضًا الإمام أحمد فى مسنده ١/ ١٢٥، ١٣٨.

الغَنوِىّ يعتقبون بعيرًا واحدًا.

واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم، فلما كان بالرَّوْحَاء رد أبا لُبابة بن عبد المنذر، واستعمله على المدينة.

ودفع لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير القرشى العبدرى، وكان هذا اللواء أبيض.

وقسم جيشه إلى كتيبتين:

١- **كتيبة المهاجرين**: وأعطى رايتها على بن أبى طالب، ويقال لها: العُقَاب.

٢- **وكتيبة الأنصار**: وأعطى رايتها سعد بن معاذ. (وكانت الرايتان سوداوين).

وجعل على قيادة الميمنة الزبير بن العوام، وعلى الميسرة المقداد بن عمرو- وكانا هما الفارسين الوحيدين فى الجيش - كما سبق - وجعل على الساقة قيس بن أبى صَعْصَعَة، وظلت القيادة العامة فى يده ﷺ كقائد أعلى للجيش.

الجيش الإسلامى يتحرك نحو بدر:

وسار رسول الله ﷺ فى هذا الجيش غير المتأهب، فخرج من نقب المدينة، ومضى على الطريق الرئيسى المؤدى إلى مكة، حتى بلغ بئر الروحاء، فلما ارتحل منها ترك طريق مكة إلى اليسار، وانحرف ذات اليمين على النازية يريد بدرًا، فسلك فى ناحية منه حتى جزع واديًا [1] يقال له: رُحْقَان بين النازية وبين مَضِيق الصفراء، ثم مر على المضيق ثم انصب منه حتى قرب من الصفراء، ومن هنالك بعث بَسْبَس بن عمرو الجهنى وعدى بن أبى الزَّغْبَاء الجهنى إلى بدر يتجسسان له أخبار العير.

النذير فى مكة:

وأما خبر العير فإن أبا سفيان - وهو المسئول عنها - كان على غاية من الحيطة والحذر، فقد كان يعلم أن طريق مكة محفوف بالأخطار، وكان يتحسس الأخبار ويسأل من لقى من الركبان، ولم يلبث أن نقلت إليه استخباراته بأن محمدًا ﷺ قد استنفر أصحابه ليوقع بالعير، وحينئذ استأجر أبو سفيان ضَمْضَم بن عمرو الغفارى إلى مكة مستصرخًا لقريش بالنفير إلى عيرهم؛ ليمنعوه من محمد ﷺ وأصحابه، وخرج ضمضم سريعًا حتى أتى مكة، فخرخ ببطن الوادى واقفًا على بعيره، وقد جَدَع أنفه وحَوَّلَ رَحْلَه، وشَقَّ قميصه، وهو يقول: يا معشر

(١) جزع الوادى: قطعه عرضًا.

قريش، اللَّطِيمَة[١]، اللطيمة، أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث... الغوث.

أهل مكة يتجهزون للغزو:

فتحفز الناس سراعًا وقالوا: أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمى؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك، فكانوا بين رجلين: إما خارج، وإما باعث مكانه رجلًا، وأوعبوا[٢] فى الخروج فلم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبى لهب، فإنه عوض عنه رجلًا كان له عليه دين، وحشدوا من حولهم من قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بنى عدى فلم يخرج منهم أحد.

قوام الجيش المكي:

وكان قوام هذا الجيش نحو ألف وثلاثمائة مقاتل فى بداية سيره، وكان معه مائة فرس وستمائة دِرْع، وجمال كثيرة لا يعرف عددها بالضبط، وكان قائده العام أبا جهل بن هشام، وكان القائمون بتموينه تسعة رجال من أشراف قريش، فكانوا ينحرون يومًا تسعًا ويومًا عشرًا من الإبل.

مشكلة قبائل بنى بكر:

ولما أجمع هذا الجيش على المسير ذكرت قريش ما كان بينها وبين بنى بكر من العداوة والحرب، فخافوا أن تضربهم هذه القبائل من الخلف، فيكونوا بين نارين، فكاد ذلك يثنيهم، ولكن حينئذ تبدى لهم إبليس فى صورة سُرَاقة بن مالك بن جُعْشُم المدلجى - سيد بنى كنانة - فقال لهم: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشىء تكرهونه.

جيش مكة يتحرك:

وحينئذ خرجوا من ديارهم، كما قال الله:] 7 8 9 : ; < = Z [الأنفال: ٤٧]، وأقبلوا - كما قال رسول الله ﷺ - بحدهم وحديدهم يحادون الله ويحادون رسوله] T U V W X Z [القلم]، وعلى حمية وغضب وحنق على رسول الله ﷺ وأصحابه؛ لجرأة هؤلاء على قوافلهم.

تحركوا بسرعة فائقة نحو الشمال فى اتجاه بدر، وسلكوا فى طريقهم وادى عُسْفَان، ثم قُدَيْدًا، ثم الجُحْفَة، وهناك تلقوا رسالة جديدة من أبى سفيان يقول لهم فيها: إنكم إنما

---

(١) اللَّطِيمة: الإبل تحمل الطّيب.

(٢) جمعوا.

خرجتم لتحرزوا عيركم ورجالكم وأموالكم، وقد نجاها الله فارجعوا.

العير تفلت:

وكان من قصة أبى سفيان أنه كان يسير على الطريق الرئيسى، ولكنه لم يزل حذرًا متيقظًا، وضاعف حركاته الاستكشافية، ولما اقترب من بدر تقدم عيره حتى لقى مَجْدِيَّ بن عمرو، وسأله عن جيش المدينة، فقال: ما رأيت أحدًا أنكره إلا أنى قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثم استقيا فى شن لهما، ثم انطلقا، فبادر أبو سفيان إلى مناخهما، فأخذ من أبعار بعيرهما، ففته فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب، فرجع إلى عيره سريعًا، وضرب وجهها محولًا اتجاهها نحو الساحل غربًا، تاركًا الطريق الرئيسى الذى يمر ببدر على اليسار، وبهذا نجا بالقافلة من الوقوع فى قبضة جيش المدينة، وأرسل رسالته إلى جيش مكة التى تلقاها فى الجحفة.

هَمّ الجيش المكى بالرجوع، ووقوع الانشقاق فيه:

ولما تلقى هذه الرسالة جيش مكة هم بالرجوع، ولكن قام طاغية قريش أبو جهل فى كبرياء وغطرسة قائلًا: والله لا نرجع حتى نرد بدرًا، فنقيم بها ثلاثًا، فننحر الجَزُور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف لنا القِيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا.

ولكن - على رغم أبى جهل - أشار الأخْنَس بن شَرِيق بالرجوع فعصوه،فرجع هو وبنو زُهْرَة - وكان حليفًا لهم، ورئيسًا عليهم فى هذا النفير - فلم يشهد بدرًا زهرى واحد، وكانوا حوالى ثلاثمائة رجل،واغتبطت بنو زهرة بَعْدُ برأى الأخنس بن شريق، فلم يزل فيهم مطاعًا معظمًا.

وأرادت بنو هاشم الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل، وقال: لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع.

فسار جيش مكة وقوامه ألف مقاتل بعد رجوع بنى زهرة - وهو يقصد بدرًا - فواصل سيره حتى نزل قريبًا من بدر، وراء كثيب يقع بالعدوة القصوى على حدود وادى بدر.

موقف الجيش الإسلامى فى ضيق وحرج:

أما استخبارات جيش المدينة فقد نقلت إلى رسول الله ﷺ - وهو لا يزال فى الطريق

بوادى ذَفِرَان – خبر العير والنفير، وتأكد لديه بعد التدبر فى تلك الأخبار أنه لم يبق مجال لاجتناب اللقاء الدامى، وأنه لا بد من إقدام يبنى على الشجاعة والبسالة، والجراءة، والجسارة، فمما لا شك فيه أنه لو ترك جيش مكة يجوس خلال تلك المنطقة يكون ذلك تدعيمًا لمكانة قريش العسكرية، وامتدادًا لسلطانها السياسى، وإضعافًا لكلمة المسلمين وتوهينًا لها،بل ربما تبقى الحركة الإسلامية بعد ذلك جسدًا لا روح فيه، ويجرؤ على الشر كل من فيه حقد أو غيظ على الإسلام فى هذه المنطقة.

ثم هل هناك ضمان للمسلمين بامتناع جيش مكة عن مواصلة سيره نحو المدينة، حتى ينقل المعركة إلى أسوارها، ويغزو المسلمين فى عقر دارهم؟ كلا ! فلو حدث من جيش المدينة نكول ما، لكان له أسوأ الأثر على هيبة المسلمين وسمعتهم.

المجلس الاستشاري:

ونظرًا إلى هذا التطور الخطير المفاجئ عقد رسول الله ﷺ مجلسًا عسكريًّا استشاريًّا أعلى، أشار فيه إلى الوضع الراهن، وتبادل فيه الرأى مع عامة جيشه وقادته. وحينئذ تزعزع قلوب فريق من الناس،وخافوا اللقاء الدامى،وهم الذين قال الله فيهم:] [o n m l k j i h g f e d c b a ` _ ^ Z u t s r q p [الأنفال]، وأما قادة الجيش فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن،ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن،ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله،فنحن معك،والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى:] + , - . / 0 1 2 Z [المائدة]، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغِمَاد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

فقال رسول الله ﷺ خيرًا، ودعا له به.

وهؤلاء القادة الثلاثة كانوا من المهاجرين، وهم أقلية فى الجيش، فأحب رسول الله ﷺ أن يعرف رأى قادة الأنصار؛ لأنهم كانوا يمثلون أغلبية الجيش، ولأن ثقل المعركة سيدور على كواهلهم، مع أن نصوص العقبة لم تكن تلزمهم بالقتال خارج ديارهم، فقال بعد سماع كلام هؤلاء القادة الثلاثة: «**أشيروا علىّ أيها الناس**» وإنما يريد الأنصار، وفطن إلى ذلك قائد الأنصار وحامل لوائهم سعد بن معاذ.

فقال: والله، ولكأنك تريدنا يا رسول الله؟

قال: «أجل».

قال: فقد آمنا بك، فصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصُبُر فى الحرب، صُدُق فى اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تَقَرَّ به عينك، فسِرْ بنا على بركة الله.

وفى رواية: أن سعد بن معاذ قال لرسول الله ﷺ: لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقًّا عليها ألا تنصرك إلا فى ديارهم، وإنى أقول عن الأنصار وأجيب عنهم: فاظعن حيث شئت، وصِلْ حَبْل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فو الله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غِمْدان لنسيرن معك، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك.

فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: **«سيروا وأبشروا، فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم»**.

الجيش الإسلامى يواصل سيره:

ثم ارتحل رسول الله ﷺ من ذَفِرَان، فسلك على ثنايا يقال لها: الأصافر، ثم انحط منها إلى بلد يقال له: الدَّبَّة، وترك الحَنَّان بيمين - وهو كَثِيب عظيم كالجبل - ثم نزل قريبًا من بدر.

الرسول ﷺ يقوم بعملية الاستكشاف:

وهناك قام ﷺ بنفسه بعملية الاستكشاف مع رفيقه فى الغار أبى بكر الصديق رضي الله عنه، وبينما هما يتجولان حول معسكر مكة إذا هما بشيخ من العرب، فسأله رسول الله ﷺ عن قريش وعن محمد وأصحابه - سأل عن الجيشين زيادة فى التكتم - ولكن الشيخ قال: لا أخبركما حتى تخبرانى ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: **«إذا أخبرتنا أخبرناك»**، قال: أو ذاك بذاك؟ قال: **«نعم»**.

قال الشيخ: فإنه بلغنى أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان الذى به جيش المدينة- وبلغنى أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا - للمكان

الذى به جيش مكة.

ولما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «**نحن من ماء**»، ثم انصرف عنه، وبقى الشيخ يتفوه: ما من ماء؟ أمن ماء العراق؟

الحصول على أهم المعلومات عن الجيش المكي:

وفى مساء ذلك اليوم بعث ﷺ استخباراته من جديد ليبحث عن أخبار العدو، وقام لهذه العملية ثلاثة من قادة المهاجرين؛ على بن أبى طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحابه، ذهبوا إلى ماء بدر فوجدوا غلامين يستقيان لجيش مكة، فألقوا عليهما القبض، وجاءوا بهما إلى الرسول ﷺ وهو فى الصلاة، فاستخبرهما القوم، فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكره القوم، ورجوا أن يكونا لأبى سفيان - لاتزال فى نفوسهم بقايا أمل فى الاستيلاء على القافلة - فضربوهما ضربًا موجعًا حتى اضطر الغلامان أن يقولا: نحن لأبى سفيان فتركوهما.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الصلاة قال لهم كالعاتب: «**إذا صدقاكم ضربتموهما، وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله، إنهما لقريش**».

ثم خاطب الغلامين قائلًا: «**أخبرانى عن قريش**»، قالا: هم وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى، فقال لهما: «**كم القوم؟**» قالا: كثير. قال: «**ما عدتهم؟**» قالا: لا ندرى، قال: «**كم ينحرون كل يوم؟**» قالا: يومًا تسعًا ويومًا عشرًا، فقال رسول الله ﷺ: «**القوم فيما بين التسعمائة إلى الألف**»، ثم قال لهما: «**فمن فيهم من أشراف قريش؟**» قالا: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو البَخْتَرِىّ ابن هشام، وحكيم بن حِزام، ونَوْفَل بن خويلد، والحارث بن عامر، وطُعَيْمَة بن عدى، والنضر بن الحارث، وَزمْعَة بن الأسود، وأبو جهل ابن هشام، وأمية بن خلف فى رجال سمياهم.

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: «**هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها**».

نزول المطر:

وأنزل الله عز وجل فى تلك الليلة مطرًا واحدًا، فكان على المشركين وابلًا شديدًا منعهم من التقدم، وكان على المسلمين طلا طهرهم به، وأذهب عنهم رجس الشيطان، ووطأ به الأرض، وصلب به الرمل، وثبت الأقدام، ومهد به المنزل، وربط به على قلوبهم.

الجيش الإسلامى يسبق إلى أهم المراكز العسكرية:

وتحرك رسول الله ﷺ بجيشه ليسبق المشركين إلى ماء بدر، ويحول بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل عشاء أدنى ماء من مياه بدر، وهنا قام الحُبَاب بن المنذر كخبير عسكرى وقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلًا أنزلكه الله، ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ قال: «**بل هو الرأى والحرب والمكيدة**».

قال: يا رسول الله، إن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم - قريش - فننزله ونغوّر - أى نُخَرِّب - ما وراءه من القُلُب[1]، ثم نبنى عليه حوضًا، فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد أشرت بالرأى**».

فنهض رسول الله ﷺ بالجيش حتى أتى أقرب ماء من العدو، فنزل عليه شطر الليل، ثم صنعوا الحياض وغوروا ما عداها من القلب.

مقر القيادة:

وبعد أن تم نزول المسلمين على الماء اقترح سعد بن معاذ على رسول الله ﷺ أن يبنى المسلمون مقرًّا لقيادته؛ استعدادًا للطوارئ، وتقديرًا للهزيمة قبل النصر، حيث قال:

يا نبى الله، ألا نبنى لك عريشًا تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بِمَنْ وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام يا نبى الله ما نحن بأشد لك حبًّا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك.

فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له بخير، وبنى المسلمون عَرِيشًا على تل مرتفع يقع فى الشمال الشرقى لميدان القتال، ويشرف على ساحة المعركة.

كما تم اختيار فرقة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون رسول الله ﷺ حول مقر قيادته.

تعبئة الجيش وقضاء الليل:

ثم عبأ رسول الله ﷺ جيشه[2]. ومشى فى موضع المعركة، وجعل يشير بيده: «**هذا**

(١) القُلُب: الآبار.

(٢) انظر: جامع الترمذى: أبواب الجهاد، باب ما جاء فى الصف والتعبئة ١/ ٢٠١.

مصرع فلان غدًا إن شاء الله، وهذا مصرع فلان غدا إن شاء الله»[(١)]. ثم بات رسول الله ﷺ يصلى إلى جذع شجرة هنالك، وبات المسلمون ليلهم هادئى الأنفاس منيرى الآفاق، غمرت الثقة قلوبهم، وأخذوا من الراحة قسطهم؛ يأملون أن يروا بشائر ربهم بعيونهم صباحًا: [B C D E F G H I J K L M N O P Q R S T U V W X Z [الأنفال].

كانت هذه الليلة ليلة الجمعة، السابعة عشرة من رمضان فى السنة الثانية من الهجرة، وكان خروجه ﷺ فى ٨ أو١٢ من نفس الشهر.

الجيش المكى فى عرصة القتال، ووقوع الانشقاق فيه:

أما قريش فقضت ليلتها هذه فى معسكرها بالعدوة القصوى، ولما أصبحت أقبلت فى كتائبها، ونزلت من الكثيب إلى وادى بدر. وأقبل نفر منهم إلى حوض رسول الله ﷺ فقال: «دعوهم»، فما شرب أحد منهم يومئذ إلا قتل، سوى حكيم بن حزام، فإنه لم يقتل، وأسلم بعد ذلك، وحسن إسلامه، وكان إذا اجتهد فى اليمين قال: لا والذى نجانى من يوم بدر.

فلما اطمأنت قريش بعثت عُمَيْر بن وهب الجُمَحِى للتعرف على مدى قوة جيش المدينة، فدار عمير بفرسه حول العسكر، ثم رجع إليهم فقال: ثلاثمائة رجل، يزيدون قليلًا أو ينقصون، ولكن أمهلونى حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد؟

فضرب فى الوادى حتى أبعد، فلم ير شيئًا، فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئًا، ولكنى قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلًا منكم،فإذا أصابوا منكم أعدادكم فما خير العيش بعد ذلك؟ فروا رأيكم.

وحينئذ قامت معارضة أخرى ضد أبى جهل - المصمم على المعركة - تدعو إلى العودة بالجيش إلى مكة دونما قتال، فقد مشى حكيم بن حزام فى الناس، وأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، فهل لك إلى خير تذكر به إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمى - المقتول فى سرية نخلة - فقال عتبة: قد فعلت. أنت ضامن علىّ بذلك. إنما هو حليفى، فعلىّ عقله (ديته) وما أصيب من ماله.

(١) رواه مسلم عن أنس، انظر: مشكاة المصابيح ٢/ ٥٤٣.

ثم قال عتبة لحكيم بن حزام: فائت ابن الحَنْظَلِيَّةِ - أبا جهل، والحنظلية أمه - فإنى لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره.

ثم قام عتبة بن ربيعة خطيبًا فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدًا وأصحابه شيئًا، والله لئن أصبتموه لايزال الرجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلًا من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذى أردتم، وإن كان غير ذلك ألْفَاكُمْ ولم تَعَرَّضُوا منه ما تريدون.

وانطلق حكيم بن حزام إلى أبى جهل - وهو يهيئ درعًا له - قال: يا أبا الحكم، إن عتبة أرسلنى بكذا وكذا، فقال أبو جهل: انتفخ والله سَحْرُهُ[١] حين رأى محمدًا وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال، ولكنه قد رأى أن محمدًا وأصحابه أكلة جَزُور، وفيهم ابنه - وهو أبو حذيفة بن عتبة كان قد أسلم قديمًا وهاجر - فَتَخَوَّفَكُمْ عليه.

ولما بلغ عتبة قول أبى جهل: انتفخ والله سحره[١]، قال عتبة: سيعلم مُصَفِّر اسْتَه[٢] من انتفخ سحره، أنا أم هو؟ وتعجل أبو جهل، مخافة أن تقوى هذه المعارضة، فبعث على إثر هذه المحاورة إلى عامر بن الحضرمى - أخى عمرو بن الحضرمى المقتول فى سرية عبد الله بن جحش - فقال: هذا حليفك (أى عتبة) يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانْشُد خُفْرَتَك[٣]، ومَقْتَلَ أخيك، فقام عامر فكشف عن استه، وصرخ: واعمراه، واعمراه، فحمى القوم، وحَقِبَ[٤] أمرهم، واستوثقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأى الذى دعاهم إليه عتبة. وهكذا تغلب الطيش على الحكمة، وذهبت هذه المعارضة دون جدوى.

الجيشان يتراآن:

ولما طلع المشركون وتراءى الجمعان قال رسول الله ﷺ: **«اللهم هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائها وفَخْرها تُحَادُّك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم أحْنِهُم[٥] الغداة»** وقد قال رسول الله ﷺ - ورأى عتبة بن ربيعة فى القوم على جمل له أحمر: **«إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يَرْشُدُوا»**.

---

(١) السَّحْر: الرئة.
(٢) مصَفِّر استه: أى ضَرَّاط.
(٣) الخُفْرَة: العهد.
(٤) اشتد.
(٥) أهلكهم.

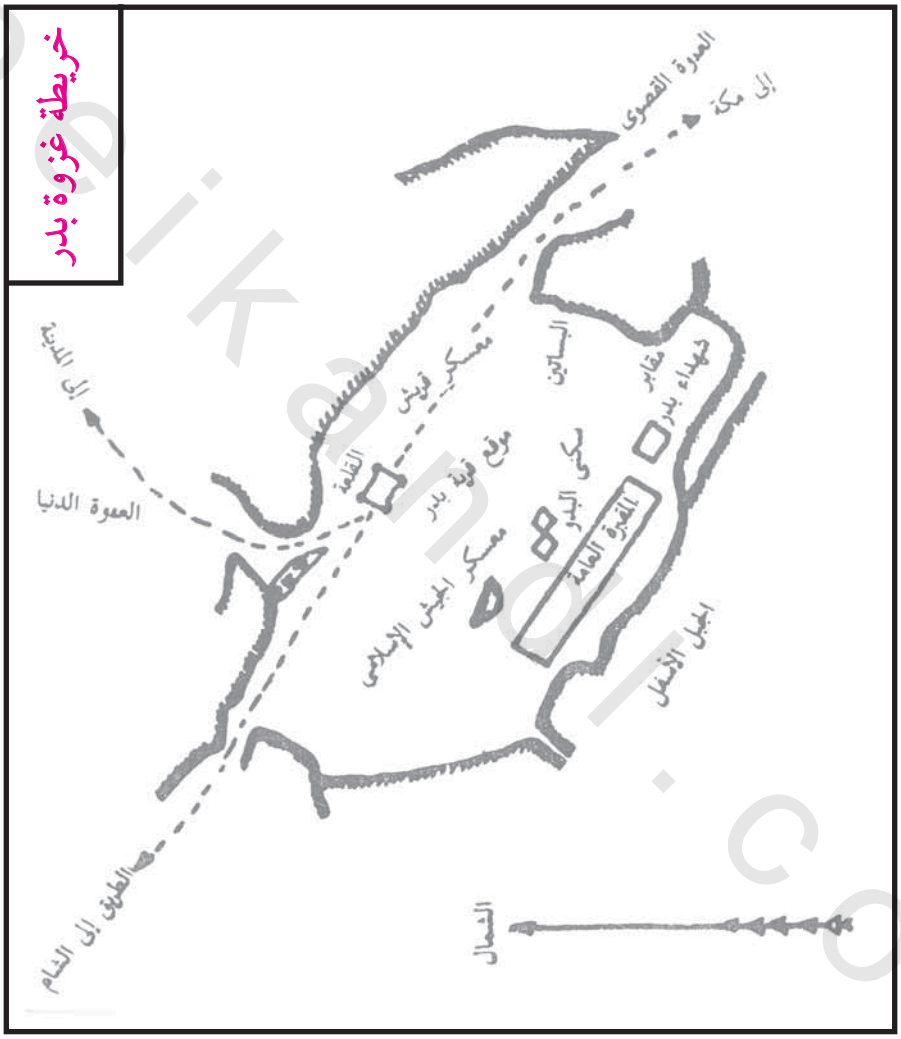
خريطة غزوة بدر
العدوة القصوى
إلى مكة
السافلة
معسكر قريش
مغابر
شهداء بدر
موقع قرية بدر
سكى البدر
القبوة العالية
معسكر الجيش الإسلامى
الجبل الأسفل
العدوة الدنيا
الطريق إلى الشام
الشمال

وعدل رسول الله ﷺ صفوف المسلمين، وبينما هو يعدلها وقع أمر عجيب، فقد كان فى يديه قِدْح يعدل به، وكان سَوَاد بن غَزِيَّة مُسْتَنْصِلًا[١] من الصف، فطعن فى بطنه بالقدح، وقال: «**استو يا سواد**»، فقال سواد: يا رسول الله، أوجعتنى فأقدنى، فكشف عن بطنه وقال: «**استقد**»، فاعتنقه سواد وقبل بطنه، فقال: «**ما حملك على هذا يا سواد؟**» قال: يا رسول الله، قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

ولما تم تعديل الصفوف أصدر أوامره إلى جيشه بألا يبدأوا القتال حتى يتلقوا منه الأوامر الأخيرة، ثم أدلى إليهم بتوجيه خاص فى أمر الحرب، فقال: «**إذا أكثبوكم** - يعنى اقتربوا منكم - **فارموهم، واستبقوا نبلكم**[٢]، **ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم**[٣]»، ثم رجع إلى العريش هو وأبو بكر خاصة،وقام سعد بن معاذ بكتيبة الحراسة على باب العريش.

أما المشركون فقد استفتح أبو جهل فى ذلك اليوم فقال: اللهم أقطعنا للرحم، وآتانا بما لانعرفه،فأحِنْه الغداة،اللهم أينا كان أحب إليك وأرضى عندك فانصره اليوم، وفى ذلك أنزل الله:] A B C D E G H I J K M N O P Q [R S T U V W X Y Z [ ] Z [الأنفال]

ساعة الصفر وأول وقود المعركة:

وكان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومى - وكان رجلًا شرسًا سيئ الخلق - خرج قائلًا: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه. فلما خرج خرج إليه حمزة ابن عبد المطلب رضي الله عنه، فلما التقيا ضربه حمزة فأطَنَّ[٤] قدمه بنصف ساقه وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دمًا نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن تبر يمينه، ولكن حمزة ثنى عليه بضربة أخرى أتت عليه وهو داخل الحوض.

---

(١) متقدما.

(٢) صحيح البخارى ٢/ ٥٦٨.

(٣) سنن أبى داود: باب فى سل السيوف عند اللقاء ٢ / ١٣.

(٤) أطار.

المبارزة:

وكان هذا أول قتل أشعل نار المعركة، فقد خرج بعده ثلاثة من خيرة فرسان قريش كانوا من عائلة واحدة، وهم عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، فلما انفصلوا من الصف طلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من شباب الأنصار عَوْف ومُعَوِّذ ابنا الحارث - وأمهما عفراء - وعبد الله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار. قالوا: أكِفَّاء كرام، ما لنا بكم حاجة، وإنما نريد بنى عمنا، ثم نادى مناديهم: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: «**قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا على**»، فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: من أنتم؟ فأخبروهم، فقالوا: أنتم أكفاء كرام، فبارز عبيدة - وكان أسن القوم - عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة، وبارز على الوليد[1]. فأما حمزة وعلى فلم يمهلا قرنيهما أن قتلاهما، وأما عبيدة فاختلف بينه وبين قرنه ضربتان، فأثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم كَرَّ على وحمزة على عتبة فقتلاه، واحتملا عبيدة وقد قطعت رجله، فلم يزل ضَمِنًا[2] حتى مات بالصفراء،بعد أربعة أو خمسة أيام من وقعة بدر، حينما كان المسلمون فى طريقهم إلى المدينة. وكان على يقسم بالله أن هذه الآية نزلت فيهم:] n o p q r Z الآية [الحج: ١٩].

الهجوم العام:

وكانت نهاية هذه المبارزة بداية سيئة بالنسبة للمشركين؛ إذ فقدوا ثلاثة من خيرة فرسانهم وقادتهم دفعة واحدة،فاستشاطوا غضبًا،وكروا على المسلمين كرة رجل واحد.

وأما المسلمون فبعد أن استنصروا ربهم واستغاثوه وأخلصوا له وتضرعوا إليه، تلقوا هجمات المشركين المتتالية، وهم مرابطون فى مواقعهم، واقفون موقف الدفاع، وقد ألحقوا بالمشركين خسائر فادحة، وهم يقولون: أحَد أحَد.

الرسول ﷺ يناشد ربه:

أما رسول الله ﷺ فكان منذ رجوعه بعد تعديل الصفوف يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول: «**اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك**»، حتى إذا

(١) هذا على ما قاله ابن إسحاق، وفى رواية أحمد وأبى داود: أن عبيدة بارز الوليد، وعليًّا بارز شيبة، وحمزة بارز عتبة. مشكاة المصابيح ٢/ ٣٤٣.

(٢) مريضا.

حَمِيَ الوَطِيسُ، واستدارت رحى الحرب بشدة واحتدم القتال، وبلغت المعركة قمتها، قال: **«اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدًا»**. وبالغ فى الابتهال حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فرده عليه الصديق، وقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك.

وأوحى الله إلى ملائكته: [^ _ ` a b c d e f g h Z [الأنفال: ١٢]،وأوحى إلى رسوله: [& ' ( ) * + , Z [الأنفال] – أى إنهم ردف لكم، أو يردف بعضهم بعضًا أرسالًا، لا يأتون دفعة واحدة.

نزول الملائكة:

وأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة واحدة، ثم رفع رأسه فقال: **«أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل على ثَنَاياه النَّقْعُ»** (أى الغبار) وفى رواية ابن إسحاق: قال رسول الله ﷺ: **«أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، وعلى ثناياه النقع»**.

ثم خرج رسول الله ﷺ من باب العريش وهو يثب فى الدرع ويقول: [Â Ã Ä Å Æ Z [القمر]،ثم أخذ حَفْنَةً من الحَصْبَاء، فاستقبل بها قريشًا وقال: **«شاهت الوجوه»** ورمى بها فى وجوههم، فما من المشركين من أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه من تلك القبضة، وفى ذلك أنزل الله: [' ( ) * + , - Z [الأنفال: ١٧].

الهجوم المضاد:

وحينئذ أصدر إلى جيشه أوامره الأخيرة بالهجمة المضادة فقال: **«شدوا»**، وحرضهم على القتال، قائلًا: **«والذى نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة»**، وقال وهو يحضهم على القتال: **«قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض»**، (وحينئذ) قال عُمَيْر بن الحُمَام: بَخْ بَخْ. فقال رسول الله ﷺ: **«ما يحملك على قولك: بخ بخ؟»** قال: لا، والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: **«فإنك من أهلها»**. فأخرج تمرات من قَرَنِه فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل[1].

(١) رواه مسلم ٢/ ١٣٩، مشكاة المصابيح ٢/ ٣٣١. والقَرَن: الجَعْبة، وهى تشبه الكيس.

وكذلك سأله عوف بن الحارث - ابن عفراء - فقال: يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده؟ قال: «**غَمْسُه يده فى العَدُوّ حاسرًا**»، فنزع درعا كانت عليه فقذفها، ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل.

وحين أصدر رسول الله ﷺ الأمر بالهجوم المضاد كانت حدة هجمات العدو قد ذهبت وفتر حماسه، فكان لهذه الخطة الحكيمة أثر كبير فى تعزيز موقف المسلمين، فإنهم حينما تلقوا أمر الشد والهجوم - وقد كان نشاطهم الحربى على شبابه - قاموا بهجوم كاسح مرير، فجعلوا يقلبون الصفوف، ويقطعون الأعناق. وزادهم نشاطًا وحدة أن رأوا رسول الله ﷺ يثب فى الدرع، وقد تقدمهم فلم يكن أحد أقرب من المشركين منه[(١)]، وهو يقول فى جزم وصراحة:] Â Ã Ä Å Z فقاتل المسلمون أشد القتال، ونصرتهم الملائكة. ففى رواية ابن سعد عن عكرمة قال: كان يومئذ يَنْدُر رأس الرجل لا يدرى من ضربه، وتندر يد الرجل لا يدرى من ضربها. وقال ابن عباس: بينما رجل من المسلمين يشتد فى إثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حَيْزُوم، فنظر إلى المشرك أمامه، فخر مستلقيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط، فاخْضَرَّ ذلك أجمع، فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة**»[(٢)].

وقال أبو داود المازنى: إنى لأتبع رجلًا من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى، فعرفت أنه قد قتله غيرى، وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب أسيرًا،فقال العباس: إن هذا والله ما أسرنى، لقد أسرنى رجل أجلح، من أحسن الناس وجهًا على فرس أبْلَق، وما أراه فى القوم، فقال الأنصارى: أنا أسرته يا رسول الله، فقال: «**اسكت، فقد أيدك الله بملك كريم**».

وقال على: قال لى رسول الله ﷺ يوم بدر، ولأبى بكر: «**مع أحدكما جبريل ومع الآخر ميكائيل، وإسرافيل ملك عظيم يشهد القتال، أو يكون فى القتال**»[(٣)].

---

(١) رواه البخارى: كتاب التفسير، باب قوله:] Â Ã Ä Å Z، ح(٤٨٧٥)، وأحمد فى المسند ١/ ٣٢٩.

(٢) روى مثل ذلك مسلم ٢/ ٩٣ وغيره. ويندر: ينقطع. واخضَرَّ: انقطع.

(٣) أحمد فى مسنده ١/ ١٤٧، والبزار، ح (١٤٦٧)، والحاكم فى المستدرك ٣/ ١٣٤، وقد صححه ووافقه الذهبى، وأبو يعلى فى مسنده ١/ ٢٨٤، ح (٣٤٠).

إبليس ينسحب عن ميدان القتال:

ولما رأى إبليس - وكان قد جاء فى صورة سراقة بن مالك بن جُعْشُم المدلجى كما ذكرنا، ولم يكن فارقهم منذ ذلك الوقت - فلما رأى ما يفعل الملائكة بالمشركين فر ونكص على عقبيه، وتشبث به الحارث بن هشام - وهو يظنه سراقة - فوكز فى صدر الحارث فألقاه، ثم خرج هاربًا، وقال له المشركون: إلى أين يا سراقة؟ ألم تكن قلت: إنك جار لنا، لا تفارقنا؟ فقال: [^ _ ` a b c d e f g h j k Z [الأنفال]، ثم فر حتى ألقى نفسه فى البحر.

الهزيمة الساحقة:

وبدأت أمارات الفشل والاضطراب فى صفوف المشركين، وجعلت تتهدم أمام حملات المسلمين العنيفة، واقتربت المعركة من نهايتها، وأخذت جموع المشركين فى الفرار والانسحاب المبدد، وركب المسلمون ظهورهم يأسرون ويقتلون، حتى تمت عليهم الهزيمة.

صمود أبى جهل:

أما الطاغية الأكبر أبو جهل، فإنه لما رأى أول أمارات الاضطراب فى صفوفه حاول أن يصمد فى وجه هذا السيل، فجعل يشجع جيشه ويقول لهم فى شراسة ومكابرة: لا يهزمنكم خذلان سراقة إياكم، فإنه كان على ميعاد من محمد، ولا يهولنكم قتل عتبة وشيبة والوليد، فإنهم قد عجلوا، فواللات والعزى لا نرجع حتى نقرنهم بالحبال، ولا ألفين رجلًا منكم قتل منهم رجلًا، ولكن خذوهم أخذًا حتى نعرفهم بسوء صنيعهم.

ولكن سرعان ما تبدت له حقيقة هذه الغطرسة، فما لبث إلا قليلًا حتى أخذت الصفوف تتصدع أمام تيارات هجوم المسلمين. نعم، بقى حوله عصابة من المشركين ضربت حوله سياجًا من السيوف، وغابات من الرماح، ولكن عاصفة هجوم المسلمين بددت هذا السياج، وأقلعت هذه الغابات، وحينئذ ظهر هذا الطاغية، ورآه المسلمون يجول على فرسه، وكان الموت ينتظر أن يشرب من دمه بأيدى غلامين أنصاريين.

مصرع أبى جهل:

قال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: إنى لفى الصف يوم بدر إذ التفت، فإذا عن يمينى وعن يسارى فتيان حديثا السن، فكأنى لم آمن بمكانهما، إذ قال لى أحدهما سرًّا من صاحبه: يا عم،

أرنى أبا جهل، فقلت: يابن أخى، فما تصنع به؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، قال: والذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك. قال: وغمزنى الآخر، فقال لى مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبى جهل يجول فى الناس. فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذى تسألانى عنه، قال: فابتدراه فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ، فقال: «**أيكما قتله؟**» فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، قال: «**هل مسحتما سيفيكما؟**» فقالا: لا. فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين فقال: «**كلاكما قتله**»، وقضى رسول الله ﷺ بسَلَبِه لمعاذ بن عمرو بن الجموح، والرجلان معاذ بن عمرو ابن الجموح ومُعَوِّذ ابن عفراء[١].

وقال ابن إسحاق: قال معاذ بن عمرو بن الجموح: سمعت القوم، وأبو جهل فى مثل الحَرَجَة - والحرجة: الشجر الملتف، أو شجرة من الأشجار لا يوصل إليها، شبه رماح المشركين وسيوفهم التى كانت حول أبى جهل لحفظه بهذه الشجرة - وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه، قال: فلما سمعتها جعلته من شأنى فصمدت نحوه، فلما أمكننى حملت عليه، فضربته ضربة أطَنَّتْ قدمه - أطارتها - بنصف ساقه، فوالله ما شبهتها حين طاحت إلا بالنواة تَطِيحُ من تحت مِرْضِخَة[٢] النوى حين يضرب بها. قال: وضربنى ابنه عكرمة على عاتقى فطرح يدى، فتعلقت بجلدة من جنبى، وأجهضنى القتال عنه، فلقد قاتلت عَامَّةَ يومى وإنى لأسحبها خلفى، فلما آذتنى وضعت عليها قدمى، ثم تَمَطَّيْتُ بها عليها حتى طرحتها[٣]، ثم مر بأبى جهل - وهو عَقِيرٌ - مُعَوِّذ ابن عفراء فضربه حتى أثبته، فتركه وبه رَمَق، وقاتل معوذ حتى قتل.

ولما انتهت المعركة قال رسول الله ﷺ: «**من ينظر ما صنع أبو جهل؟**» فتفرق الناس فى طلبه، فوجده عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وبه آخر رمق، فوضع رجله على عنقه وأخذ لحيته ليحتز رأسه، وقال: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزانى؟ أأعمد من رجل قتلتموه؟ أو هل فوق رجل قتلتموه؟[٤] وقال: فلو غير أكَّار[٥] قتلنى، ثم قال: أخبرنى لمن

---

(١) صحيح البخارى ١/ ٤٤٤، ٢/ ٥٦٨، ومشكاة المصابيح ٢/ ٣٥٢، وإنما خص بالسلب واحدًا منهما؛ لأن الثانى قتل شهيدًا فى نفس المعركة.

(٢) المِرضِخة: الحجر الذى يكسر به النوى.

(٣) بقى معاذ هذا إلى زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٤) أى: ليس علىّ عار فلن أبعد أن أكون رجلا قتله قومه. (٥) الأكَّار: الحَرَّاث.

الدائرة اليوم؟ قال: لله ورسوله، ثم قال لابن مسعود - وكان قد وضع رجله على عنقه: لقد ارتقيت مرتقى صعبًا يا رُوَيْعِيَ الغنم، وكان ابن مسعود من رعاة الغنم فى مكة.

وبعد أن دار بينهما هذا الكلام احتز ابن مسعود رأسه، وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبى جهل، فقال: «**اللهِ الذى لا إله إلا هو؟**» فرددها ثلاثًا، ثم قال: «**الله أكبر، الحمد لله الذى صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، انطلق أرنيه**»، فانطلقنا فأريته إياه، فقال: «**هذا فرعون هذه الأمة**».

من روائع الإيمان فى هذه المعركة:

لقد أسلفنا نموذجين رائعين من عمير بن الحمام وعوف بن الحارث - ابن عفراء - وقد تجلت فى هذه المعركة مناظر رائعة تبرز فيها قوة العقيدة وثبات المبدأ، ففى هذه المعركة التقى الآباء بالأبناء، والإخوة بالإخوة، خالفت بينهما المبادئ ففصلت بينهما السيوف، والتقى المقهور بقاهره فشفى منه غيظه.

١ - روى ابن إسحاق عن ابن عباس، أن النبى ﷺ قال لأصحابه: «**إنى قد عرفت أن رجالًا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهًا، لا حاجة لهم بقتالنا، فمن لقى أحدًا من بنى هاشم فلا يقتله، ومن لقى أبا البَخْتَرِيّ بن هشام فلا يقتله، ومن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله، فإنه إنما أخرج مستكرهًا**»، فقال أبو حذيفة بن عتبة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنه - أو لألجمنه - بالسيف، فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: «**يا أبا حفص، أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ بالسيف؟**»، فقال عمر: يا رسول الله، دعنى فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق.

فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفًا إلا أن تكفرها عنى الشهادة. فقتل يوم اليمامة شهيدًا.

٢ - وكان النهى عن قتل أبى البخترى؛ لأنه كان أكف القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة، وكان لا يؤذيه، ولا يبلغ عنه شىء يكرهه، وكان ممن قام فى نقض صحيفة مقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب.

ولكن أبا البخترى قتل على رغم هذا كله، وذلك أن المُجَذَّر بن زياد الْبَلَوِيّ لقيه فى المعركة ومعه زميل له، يقاتلان سويًّا، فقال المجذر: يا أبا البخترى، إن رسول الله ﷺ قد نهانا عن قتلك، فقال: وزميلى؟ فقال المجذر: لا والله ما نحن بتاركى زميلك، فقال: والله إذن لأموتن أنا وهو جميعًا، ثم اقتتلا، فاضطر المجذر إلى قتله.

٣ – كان عبد الرحمن بن عوف وأمية بن خلف صديقين فى الجاهلية بمكة، فلما كان يوم بدر مر به عبد الرحمن، وهو واقف مع ابنه على بن أمية، آخذًا بيده، ومع عبد الرحمن أدراع قد استلبها، وهو يحملها، فلما رآه قال: هل لك فى؟ فأنا خير من هذه الأدراع التى معك، ما رأيت كاليوم قط، أما لكم حاجة فى اللبن؟ – يريد أن من أسرنى افتديت منه بإبل كثيرة اللبن – فطرح عبد الرحمن الأدراع، وأخذهما يمشى بهما، قال عبد الرحمن: قال لى أمية بن خلف، وأنا بينه وبين ابنه: من الرجل منكم المعلم بريشة النعامة فى صدره؟ قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال: ذاك الذى فعل بنا الأفاعيل.

قال عبد الرحمن: فوالله إنى لأقودهما إذ رآه بلال معى – وكان أمية هو الذى يعذب بلالًا بمكة – فقال بلال: رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا. قلت: أى بلال، أسيرى. قال: لا نجوت إن نجا. قلت: أتسمع يابن السوداء. قال: لا نجوت إن نجا. ثم صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا. قال: فأحاطوا بنا حتى جعلونا فى مثل الْمَسَكَة[1]، وأنا أذب عنه، قال: فأخلف رجل السيف، فضرب رجل ابنه فوقع، وصاح أمية صيحة ما سمعت مثلها قط، فقلت: انج بنفسك، ولا نجاء بك، فوالله ما أغنى عنك شيئًا. قال: فَهَبَرُوهُمَا بأسيافهم حتى فرغوا منهما، فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالًا، ذهبت أدراعى، وفجعنى بأسيرى.

وروى البخارى عن عبد الرحمن بن عوف قال: كاتبت أمية بن خلف كتابًا بأن يحفظنى فى صاغيتى – أى خاصتى ومالى – بمكة، وأحفظه فى صاغيته بالمدينة... فلما كان يوم بدر خرجت إلى جبل لأحرزه حين نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس الأنصار فقال: أمية ابن خلف، لا نجوت إن نجا أمية، فخرج معه فريق من الأنصار فى آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه ليشغلهم، فقتلوه، ثم أبوا حتى يتبعونا، وكان رجلًا ثقيلًا، فلما أدركونا قلت له: ابرك، فبرك، فألقيت عليه نفسى لأمنعه، فتخللوه بالسيوف من تحتى حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلى بسيفه. وكان عبد الرحمن يرينا ذلك الأثر فى ظهر قدمه[2].

٤ – وقتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومئذ خاله العاص بن هشام بن المغيرة، ولم يلتفت إلى قرابته منه، ولكن حين رجع إلى المدينة قال للعباس عم رسول الله ﷺ، وهو فى الأسر: يا عباس

(١) الأسْورَة.

(٢) صحيح البخارى: كتاب الوكالة ١/ ٣٠٨.

أسلم، فوالله أن تسلم أحب إلى من أن يسلم الخطاب، وما ذاك إلا لما رأيت رسول الله ﷺ يعجبه إسلامك[١].

٥ - ونادى أبو بكر الصديق رضي الله عنه ابنه عبد الرحمن - وهو يومئذ مع المشركين - فقال: أين مالى يا خبيث؟ فقال عبد الرحمن:

لَـمْ يَـبْـقَ غَـيْـرُ شَـكَّـةٍ ويَعْبُوب وصَـارِمٍ يَقْتُلُ ضُـلاَّل الشِّيَبْ[٢]

٦ - ولما وضع القوم أيديهم يأسرون، ورسول الله ﷺ فى العريش، وسعد بن معاذ قائم على بابه يحرسه متوشحًا سيفه، رأى رسول الله ﷺ فى وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس، فقال له: «**والله لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟**» قال: أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان فى القتل بأهل الشرك أحب إلىّ من استبقاء الرجال.

٧ - وانقطع يومئذ سيف عُكَّاشَة بن مِحْصَن الأسدى، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جِذْلًا من حطب، فقال: «**قاتل بهذا يا عكاشة**»، فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزه، فعاد سيفًا فى يده طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله تعالى للمسلمين، وكان ذلك السيف يسمى العَوْن، ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد، حتى قتل فى حروب الردة وهو عنده.

٨ - وبعد انتهاء المعركة مر مصعب بن عمير العبدرى بأخيه أبى عزيز بن عمير الذى خاض المعركة ضد المسلمين،مر به وأحد الأنصار يشد يده، فقال مصعب للأنصارى: شد يديك به، فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك، فقال أبو عزيز لأخيه مصعب: أهذه وصاتك بى؟ فقال مصعب: إنه - أى الأنصارى - أخى دونك.

٩ - ولما أمر بإلقاء جيف المشركين فى القَلِيب، وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب، نظر رسول الله ﷺ فى وجه ابنه أبى حذيفة، فإذا هو كئيب قد تغير، فقال: «**يا أبا حذيفة، لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟**» فقال: لا والله، يا رسول الله، ما شككت فى أبى ولا مصرعه، ولكننى كنت أعرف من أبى رأيًا وحلمًا وفضلًا، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت

(١) رواه الحاكم فى المستدرك (فتح القدير للشوكانى ٢/ ٣٢٧).
(٢) الشَّكَّة: السلاح. واليعبوب: الفرس الكثير الجرى.

أرجو له أحزننى ذلك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيرًا.

قتلى الفريقين:

انتهت المعركة بهزيمة ساحقة بالنسبة للمشركين، وبفتح مبين بالنسبة للمسلمين، وقد استشهد من المسلمين فى هذه المعركة أربعة عشر رجلًا، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار.

أما المشركون فقد لحقتهم خسائر فادحة، قتل منهم سبعون، وأسر سبعون. وعامتهم القادة والزعماء والصناديد.

ولما انقضت الحرب أقبل رسول الله ﷺ حتى وقف على القتلى فقال: «**بئس العشيرة كنتم لنبيكم؛ كذبتمونى وصدقنى الناس، وخذلتمونى ونصرنى الناس، وأخرجتمونى وآوانى الناس**»، ثم أمر بهم فسحبوا إلى قليب من قُلُب بدر.

وعن أبى طلحة: أن نبى الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلًا من صناديد قريش، فقذفوا فى طَوِىّ[(١)] من أطواء بدر خَبِيث مُخْبث. وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرْصَة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها، ثم مشى، واتبعه أصحابه. حتى قام على شفة الرَّكِىّ[(٢)]، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، «**يا فلان بن فلان، يا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟**» فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ قال النبى ﷺ: «**والذى نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**» وفى رواية: «**ما أنتم بأسمع منهم، ولكن لا يجيبون**»[(٣)].

مكة تتلقى نبأ الهزيمة:

فر المشركون من ساحة بدر فى صورة غير منظمة؛ تبعثروا فى الوديان والشعاب، واتجهوا صوب مكة مذعورين، لا يدرون كيف يدخلونها خجلًا.

قال ابن إسحاق: وكان أول من قدم بمصاب قريش الحَيْسُمَان بن عبد الله الخزاعى، فقالوا: ما وراءك؟ قال: قتل عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو الحكم بن هشام وأمية بن خلف، فى رجال من الزعماء سماهم. فلما أخذ يعد أشراف قريش قال صفوان بن أمية وهو

(١) البئر الذى بناؤه بالحجارة. (٢) الركى: البئر.

(٣) متفق عليه، مشكاة المصابيح ٢/ ٣٤٥.

قاعد فى الحِجْر: والله إن يعقل هذا، فاسألوه عنى. قالوا: ما فعل صفوان بن أمية؟ قال: ها هو ذا جالس فى الحجر، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا.

وقال أبو رافع – مولى رسول الله ﷺ: كنت غلامًا للعباس وكان الإسلام قد دخلنا أهلَ البيت، فأسلم العباس، وأسلمت أم الفضل، وأسلمت، وكان العباس يكتم إسلامه، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر، فلما جاءه الخبر كبته الله وأخزاه، ووجدنا فى أنفسنا قوة وعزًّا، وكنت رجلًا ضعيفًا أعمل الأقداح، أنحتها فى حجرة زمزم، فوالله إنى لجالس فيها أنحت أقداحى وعندى أم الفضل جالسة، وقد سرنا ما جاءنا من الخبر، إذ أقبل أبو لهب يجر رجليه بشر حتى جلس على طُنُب الحجرة[(١)]، فكان ظهره إلى ظهرى، فبينما هو جالس إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، فقال له أبو لهب: هلم إلَىَّ، فعندك لعمرى الخبر، قال: فجلس إليه،والناس قيام عليه. فقال: يابن أخى، أخبرنى كيف كان أمر الناس؟ قال: ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا، يقتلوننا كيف شاءوا، ويأسروننا كيف شاءوا، وايم الله مع ذلك ما لمت الناس، لَقِينَا رجال بيض على خيل بُلْق بين السماء والأرض، والله ما تُلِيق شيئًا[(٢)]، ولا يقوم لها شيء.

قال أبو رافع: فرفعت طنب الحجرة بيدى، ثم قلت: تلك والله الملائكة. قال: فرفع أبو لهب يده، فضرب بها وجهى ضربة شديدة، فثاورته، فاحتملنى فضرب بى الأرض، ثم برك علىّ يضربنى، وكنت رجلًا ضعيفًا فقامت أم الفضل إلى عمود من عُمُد الحجرة فأخذته، فضربته به ضربة فَلَعَتْ[(٣)] فى رأسه شجة منكرة، وقالت: استضعفته أن غاب عنه سيده، فقام موليًا ذليلًا، فوالله ما عاش إلا سبع ليال حتى رماه الله بالعدسة (وهى قرحة تتشاءم بها العرب) فقتلته، فتركه بنوه، وبقى ثلاثة أيام لا تقرب جنازته، ولا يحاول دفنه، فلما خافوا السبة فى تركه حفروا له، ثم دفعوه بعود فى حفرته، وقذفوه بالحجارة من بعيد حتى واروه.

هكذا تلقت مكة أنباء الهزيمة الساحقة فى ميدان بدر، وقد أثر ذلك فيهم أثرًا سيئًا جدًّا، حتى منعوا النياحة على القتلى؛ لئلا يشمت بهم المسلمون.

ومن الطرائف أن الأسود بن المطلب أصيب ثلاثة من أبنائه يوم بدر، وكان يحب أن يبكى عليهم، وكان ضرير البصر، فسمع ليلًا صوت نائحة، فبعث غلامه، وقال: انظر هل

(١) طنب الحجرة: طرفها.
(٢) أى: لا تبقى شيئا.
(٣) شَقَّتْ.

أحل النَّحْبُ؟[١] هل بكت قريش على قتلاها؟ لعلى أبكى على أبى حكيمة - ابنه - فإن جوفى قد احترق، فرجع الغلام وقال: إنما هى امرأة تبكى على بعير لها أضلته، فلم يتمالك الأسود نفسه وقال:

أتبكى أن يضل لها بعير ... ويمنعها من النوم السُّهُود[٢]
فلا تبكى على بَكْرٍ ولكن ... على بَدْر تقاصرت الجُدُود[٣]
على بدر سَرَاة[٤] بنى هُصَيْص ... ومخزوم ورَهْط أبى الوليد
وبَكِّى إن بكيتِ على عَقِيلٍ ... وبَكِّى حارثا أسَدَ الأسود
وبَكِّيهم ولا تَسَمى جميعا ... وما لأبى حَكِيمة من نَدِيد
ألا قد ساد بعدهم رجال ... ولولا يوم بدر لم يسودوا

المدينة تتلقى أنباء النصر:

ولما تم الفتح للمسلمين أرسل رسول الله ﷺ بشيرين إلى أهل المدينة؛ ليعجل لهم البشرى، أرسل عبد الله بن رواحة بشيرًا إلى أهل العالية، وأرسل زيد بن حارثة بشيرًا إلى أهل السافلة.

وكان اليهود والمنافقون قد أرجفوا فى المدينة بإشاعة الدعايات الكاذبة، حتى إنهم أشاعوا خبر مقتل النبى ﷺ، ولما رأى أحد المنافقين زيد بن حارثة راكبًا القَصْوَاء - ناقة رسول الله ﷺ - قال: لقد قتل محمد، وهذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدرى ما يقول من الرعب، وجاء فَلاًّ[٥].

فلما بلغ الرسولان أحاط بهما المسلمون، وأخذوا يسمعون منهما الخبر، حتى تأكد لديهم فتح المسلمين، فَعَمَّت البهجة والسرور، واهتزت أرجاء المدينة تهليلًا وتكبيرًا، وتقدم رءوس المسلمين - الذين كانوا بالمدينة - إلى طريق بدر، ليهنئوا رسول الله ﷺ بهذا الفتح المبين.

قال أسامة بن زيد: أتانا الخبر حين سوينا التراب على رقية بنت رسول الله ﷺ التى كانت عند عثمان بن عفان، كان رسول الله ﷺ خلفنى عليها مع عثمان.

---

(١) البكاء بصوت.
(٢) الأرَق.
(٣) الحظوظ.
(٤) سَرَاة: خيار.
(٥) أى: منهزمًا.

الجيش النبوى يتحرك نحو المدينة:

أقام رسول الله ﷺ ببدر بعد انتهاء المعركة ثلاثة أيام، وقبل رحيله من مكان المعركة وقع خلاف بين الجيش حول الغنائم، ولما اشتد هذا الخلاف أمر رسول الله ﷺ بأن يرد الجميع ما بأيديهم، ففعلوا، ثم نزل الوحى بحل هذه المشكلة.

عن عبادة بن الصامت قال: خرجنا مع النبى ﷺ، فشهدت معه بدرًا، فالتقى الناس فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة فى آثارهم يطاردون ويقتلون، وأكبت طائفة على المغنم يحرزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ؛ لا يصيب العدو منه غِرَّة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها، وليس لأحد فيها نصيب،وقال الذين خرجوا فى طلب العدو: لستم أحق بها منا، نحن نحينا منها العدو وهزمناه، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرة، فاشتغلنا به، فأنزل الله:] ! " # %| & ' (| * + , - . | 0 1 2 3 4 5 6 Z [الأنفال]. فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين[1].

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ ببدر ثلاثة أيام تحرك بجيشه نحو المدينة ومعه الأسارى من المشركين، واحتمل معه النفل الذى أصيب من المشركين، وجعل عليه عبد الله بن كعب، فلما خرج من مَضِيق الصفراء نزل على كَثِيب بين المضيق وبين النَّازِيَة، وقسم هنالك الغنائم على المسلمين على السواء بعد أن أخذ منها الخمس.

وعندما وصل إلى الصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث - وكان هو حامل لواء المشركين يوم بدر، وكان من أكابر مجرمى قريش، ومن أشد الناس كيدًا للإسلام وإيذاء لرسول الله ﷺ - فضرب عنقه على بن أبى طالب.

ولما وصل إلى عِرْق الظُّبْيَة أمر بقتل عُقْبَة بن أبى مُعَيْط - وقد أسلفنا بعض ما كان عليه من إيذاء رسول الله ﷺ، فهو الذى كان ألقى سَلا جَزُور على ظهر رسول الله ﷺ وهو فى الصلاة، وهو الذى خنقه بردائه وكاد يقتله، لولا اعتراض أبى بكر رضي الله عنه - فلما أمر بقتله قال: من للصِّبْيَةِ يا محمد؟ قال: «النار»[2]. فقتله عاصم بن ثابت الأنصارى، ويقال: على ابن أبى طالب.

وكان قتل هذين الطاغيتين واجبًا؛ نظرًا إلى سوابقهما، فلم يكونا من الأسارى

(١) أخرجه أحمد ٥/ ٣٢٣، ٣٢٤، والحاكم ٢/ ٣٢٦.

(٢) روى ذلك أصحاب الصحاح، انظر: سنن أبى داود مع حاشيته عون المعبود ٣/ ١٢.

فحسب، بل كانا من مجرمى الحرب بالاصطلاح الحديث.

وفود التهنئة:

ولما وصل ﷺ إلى الرَّوْحَاء لقيه رءوس المسلمين - الذين كانوا قد خرجوا للتهنئة والاستقبال حين سمعوا بشارة الفتح من الرسولين - يهنئونه بالفتح. وحينئذ قال لهم سَلَمَة بن سلامة: ما الذى تهنئوننا به؟ فوالله إن لَقِينا إلا عجائز صُلْعًا كالْبُدْن المعُقَّلَةِ، فنحرناها، فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: «**يا بن أخى، أولئك الملأ**».

وقال أسيد بن حضير: يا رسول الله، الحمد لله الذى أظفرك، وأقر عينك، والله يا رسول الله ما كان تخلفى عن بدر وأنا أظن أنك تلقى عدوًّا، ولكن ظننت أنها عير، ولو ظننت أنه عدو ما تخلفت، فقال رسول الله ﷺ: «**صدقت**».

ثم دخل رسول الله ﷺ المدينة مظفرًا منصورًا قد خافه كل عدو له بالمدينة وحولها، فأسلم بشر كثير من أهل المدينة، وحينئذ دخل عبد الله بن أبى وأصحابه فى الإسلام ظاهرًا.

وقدم الأسارى بعد بلوغه المدينة بيوم، فقسمهم على أصحابه، وأوصى بهم خيرًا. فكان الصحابة يأكلون التمر، ويقدمون لأسرائهم الخبز، عملًا بوصية رسول الله ﷺ.

قضية الأسارى:

ولما بلغ رسول الله ﷺ المدينة استشار أصحابه فى الأسارى، فقال أبو بكر: يا رسول الله، هؤلاء بنو العم والعَشِيرة والإخوان، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله، فيكونوا لنا عضدًا.

فقال رسول الله ﷺ: «**ما ترى يابن الخطاب؟**» قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكن أرى أن تمكننى من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن عليًّا من عَقِيل ابن أبى طالب فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هوادة للمشركين. وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم.

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء: فلما كان من الغد قال عمر: فغدوت إلى النبى ﷺ وأبى بكر وهما يبكيان، فقلت: يا رسول الله، أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: «**أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، فقد عرض علىّ**

عذابهم أدنى من هذه الشجرة» – شجرة قريبة[١].

وأنزل الله تعالى:] مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ Z [الأنفال].

والكتاب الذى سبق من الله قيل: هو قوله تعالى:] فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً Z [محمد: ٤]. ففيه الإذن بأخذ الفدية من الأسارى؛ ولذلك لم يعذبوا، وإنما نزل العتاب لأنهم أسروا الكفار قبل أن يثخنوا فى الأرض، وقيل: بل الآية المذكورة نزلت فيما بعد، وإنما الكتاب الذى سبق من الله هو ما كان فى علم الله من إحلال الغنائم لهذه الأمة، أو من المغفرة والرحمة لأهل بدر.

وحيث إن الأمر كان قد استقر على رأى الصديق فقد أخذ منهم الفداء، وكان الفداء من أربعة آلاف درهم إلى ثلاثة آلاف درهم إلى ألف درهم، وكان أهل مكة يكتبون، وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن عنده فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم، فإذا حذقوا فهو فداء.

ومنّ رسول الله ﷺ على عدة من الأسارى فأطلقهم بغير فداء، منهم: المطلب بن حَنْطَب، وصَيْفى بن أبى رفاعة، وأبو عزة الجُمَحِى، وهو الذى قتله أسيرا فى أحد، وسيأتى.

ومنّ على خَتَنِه أبى العاص بشرط أن يخلى سبيل زينب، وكانت قد بعثت فى فدائه بمال بعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة، أدخلتها بها على أبى العاص، فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة، واستأذن أصحابه فى إطلاق أبى العاص ففعلوه، واشترط رسول الله ﷺ على أبى العاص أن يخلى سبيل زينب، فخلاها فهاجرت، وبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلًا من الأنصار، فقال: **«كونا ببطن يَأْجَج حتى تمر بكما زينب فتصحباها»**، فخرجا حتى رجعا بها. وقصة هجرتها طويلة ومؤلمة جدًّا.

وكان فى الأسرى سهيل بن عمرو، وكان خطيبًا مِصْقَعًا[٢]، فقال عمر: يا رسول الله، انزع ثنيتى سهيل بن عمرو يَدْلَعْ[٣] لسَانُه، فلا يقوم خطيبًا عليك فى موطن أبدًا، بيد أن

(١) تاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى، ص ٣٦.
(٢) بليغًا.
(٣) يخرج.

رسول الله ﷺ رفض هذا الطلب؛ احترازًا عن المُثْلَةِ، وعن بطش الله يوم القيامة.

وخرج سعد بن النعمان معتمرًا فحبسه أبو سفيان، وكان ابنه عمرو بن أبى سفيان فى الأسرى، فبعثوا به إلى أبى سفيان فخلى سبيل سعد.

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة:

وحول موضوع هذه المعركة نزلت سورة الأنفال، وهذه السورة تعليق إلهى - إن صح هذا التعبير - على هذه المعركة، يختلف كثيرًا عن التعاليق التى ينطق بها الملوك والقواد بعد الفتح.

إن الله تعالى لفت أنظار المسلمين - أولًا - إلى بعض التقصيرات الأخلاقية التى كانت قد بقيت فيهم، وصدر بعضها منهم؛ ليسعوا فى تحلية نفوسهم بأرفع مراتب الكمال، وفى تزكيتها عن هذه التقصيرات.

ثم ثَنَّى بما كان فى هذا الفتح من تأييد الله وعونه ونصره بالغيب للمسلمين. ذكر لهم ذلك لئلا يغتروا بشجاعتهم وبسالتهم، فتتسور نفوسهم الغطرسة والكبرياء، بل ليتوكلوا على الله، ويطيعوه ويطيعوا رسوله - عليه الصلاة والسلام.

ثم بين لهم الأهداف والأغراض النبيلة التى خاض الرسول ﷺ لأجلها هذه المعركة الدامية الرهيبة، ودلهم على الصفات والأخلاق التى تتسبب فى الفتوح فى المعارك.

ثم خاطب المشركين والمنافقين واليهود وأسارى المعركة، ووعظهم موعظة بليغة، تهديهم إلى الاستسلام للحق والالتزام به.

ثم خاطب المسلمين حول موضوع الغنائم، وقنن لهم مبادئ وأسس هذه المسألة.

ثم بين وشرع لهم من قوانين الحرب والسلم ما كانت الحاجة تمس إليها بعد دخول الدعوة الإسلامية فى هذه المرحلة، حتى تمتاز حروب المسلمين عن حروب أهل الجاهلية، ويتفوق المسلمون فى الأخلاق والقيم والمثل، ويتأكد للدنيا أن الإسلام ليس مجرد وجهة نظر، بل هو دين يثقف أهله عمليًا على الأسس والمبادئ التى يدعو إليها.

ثم قرر بنودًا من قوانين الدولة الإسلامية التى تقيم الفرق بين المسلمين الذين يسكنون داخل حدودها، والذين يسكنون خارجها.

وفى السنة الثانية من الهجرة فرض صيام رمضان، وفرضت زكاة الفطر، وبينت أنصبة الزكاة الأخرى، وكانت فريضة زكاة الفطر وتفصيل أنصبة الزكاة الأخرى تخفيفًا لكثير من

الأوزار التى كان يعانيها عدد كبير من المهاجرين اللاجئين الذين كانوا فقراء لا يستطيعون ضربًا فى الأرض.

ومن أحسن المواقع وأروع الصدقات أن أول عيد تعيد به المسلمون فى حياتهم هو العيد الذى وقع فى شوال سنة ٢هـ، إثر الفتح المبين الذى حصل لهم فى غزوة بدر. فما أروع هذا العيد السعيد الذى جاء به الله بعد أن تَوَّجَ هامتهم بتاج الفتح والعز، وما أروق منظر تلك الصلاة التى صلوها بعد أن خرجوا من بيوتهم يرفعون أصواتهم بالتكبير والتوحيد والتحميد، وقد فاضت قلوبهم رغبة إلى الله، وحنينًا إلى رحمته ورضوانه بعد ما أولاهم به من النعم،وأيدهم به من النصر، وقد ذكرهم بذلك قائلًا:] ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 Z [الأنفال].

النشاط العسكرى بين بدر وأحد

إن معركة بدر كانت أول لقاء مسلح بين المسلمين والمشركين، وكانت معركة فاصلة أكسبت المسلمين نصرًا حاسمًا شهد له العرب قاطبة. والذين كانوا أشد استياء لنتائج هذه المعركة هم أولئك الذين منوا بخسائر فادحة مباشرة؛ وهم المشركون، أو الذين كانوا يرون عزة المسلمين وغلبتهم ضربًا قاصمًا على كيانهم الدينى والاقتصادى، وهم اليهود. فمنذ أن انتصر المسلمون فى معركة بدر كان هذان الفريقان يحترقان غيظًا وحنقًا على المسلمين؛] لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا Z [المائدة: ٨٢]، وكانت فى المدينة بطانة للفريقين دخلوا فى الإسلام حين لم يبق مجال لعزهم إلا فى الإسلام، وهم عبد الله بن أبى وأصحابه، ولم تكن هذه الفرقة الثالثة أقل غيظًا من الأوليين.

وكانت هناك فرقة رابعة، وهم البدو الضاربون حول المدينة، لم يكن يهمهم مسألة الكفر والإيمان، ولكنهم كانوا أصحاب سلب ونهب، فأخذهم القلق، واضطربوا لهذا الانتصار، وخافوا أن تقوم فى المدينة دولة قوية تحول بينهم وبين اكتساب قوتهم عن طريق السلب والنهب، فجعلوا يحقدون على المسلمين وصاروا لهم أعداء.

وتبين بهذا أن الانتصار فى بدر كما كان سببًا لشوكة المسلمين وعزهم وكرامتهم، كذلك كان سببًا لحقد جهات متعددة، وكان من الطبيعى أن يتبع كل فريق ما يراه كفيلًا لإيصاله إلى غايته.

فبينما كانت المدينة وما حولها تظاهر بالإسلام، وتأخذ فى طريق المؤامرات والدسائس الخفية كانت فرقة من اليهود تعلن بالعداوة، وتكاشف عن الحقد والغيظ، وكانت مكة تهدد بالضرب القاصم، وتعلن بأخذ الثأر والنقمة، وتهتم بالتعبئة العامة جهارًا، وترسل إلى المسلمين بلسان حالها، تقول:

ولا بد من يوم أغرّ مُحَجَّل يطول استماعى بعده للنوادب

وفعلًا فقد قادت غزوة قاصمة إلى أسوار المدينة عرفت فى التاريخ بغزوة أحد، والتى كان لها أثر سيئ على سمعة المسلمين وهيبتهم.

وقد لعب المسلمون دورًا هامًّا للقضاء على هذه الأخطار، تظهر فيه عبقرية قيادة النبى ﷺ، وما كان عليه من غاية التيقظ حول هذه الأخطار، وما كان عليه من حسن التخطيط للقضاء عليها، ونذكر فى السطور الآتية صورة مصغرة منها:

غزوة بنى سُلَيم بالكُدْر

أول ما نقلت استخبارات المدينة إلى النبى ﷺ بعد بدر أن بنى سليم وبنى غَطَفَان تحشد قواتها لغزو المدينة، فباغتهم النبى ﷺ فى مائتى راكب فى عقر دراهم، وبلغ إلى منازلهم فى موضع يقال له: الكُدْر[١]. ففر بنو سليم، وتركوا فى الوادى خمسمائة بعير استولى عليها جيش المدينة، وقسمها رسول الله ﷺ بعد إخراج الخمس، فأصاب كل رجل بعيرين، وأصاب غلاما يقال له: «يسار» فأعتقه.

وأقام النبى ﷺ فى ديارهم ثلاثة أيام، ثم رجع إلى المدينة.

وكانت هذه الغزوة فى شوال سنة ٢ هـ بعد الرجوع من بدر بسبعة أيام، أو فى المحرم للنصف منه، واستخلف فى هذه الغزوة على المدينة سِبَاع بن عُرْفُطَة. وقيل: ابن أم مكتوم[٢].

مؤامرة لاغتيال النبى ﷺ

كان من أثر هزيمة المشركين فى وقعة بدر أن استشاطوا غضبًا، وجعلت مكة تغلى كالمِرْجَل ضد النبى ﷺ، حتى تآمر بطلان من أبطالها أن يقضوا على مبدأ هذا الخلاف والشقاق ومثار هذا الذل والهوان فى زعمهم، وهو النبى ﷺ.

جلس عمير بن وهب الجمحى مع صفوان بن أمية فى الحِجْر بعد وقعة بدر بيسير - وكان عمير من شياطين قريش ممن كان يؤذى النبى ﷺ وأصحابه وهم بمكة - وكان ابنه وهب بن عمير فى أسارى بدر، فذكر أصحاب القَلِيب ومصابهم، فقال صفوان: والله إن فى العيش بعدهم خير.

قال له عمير: صدقت والله، أما والله لولا دَيْن على ليس له عندى قضاء، وعيال أخشى عليهم الضَّيْعةَ بعدى لركبتُ إلى محمد حتى أقتله، فإن لى قِبَلَهُمْ عِلَّةً، ابنى أسير فى أيديهم.

---

(١) الكدر، بالضم فالسكون: طير فى لونها كدرة، وهو ماء من مياه بنى سليم يقع فى نجد على الطريق التجارية الشرقية الحيوية بين مكة والشام.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٩٠، وابن هشام ٢/ ٤٣، ٤٤.

فاغتنمها صفوان وقال: على دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالى، أواسيهم ما بقوا، لا يسعنى شىء ويعجز عنهم.

فقال له عمير: فاكتم عنى شأنى وشأنك. قال: أفعل.

ثم أمر عمير بسيفه فشُحِذَ له وسُمَّ، ثم انطلق حتى قدم به المدينة، فبينما هو على باب المسجد ينيخ راحلته رآه عمر بن الخطاب - وهو فى نفر من المسلمين يتحدثون ما أكرمهم الله به يوم بدر - فقال عمر: هذا الكلب عدو الله عمير ما جاء إلا لشر. ثم دخل على النبى ﷺ، فقال: يا نبى الله، هذا عدو الله عمير قد جاء متوشحًا سيفه، قال: «**فأدخله على**»، فأقبل إلى عمير فلَبَّبَهُ بحَمَالة سيفه، وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ، فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به، فلما رآه رسول الله ﷺ - وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه - قال: «**أرسله يا عمر، ادن يا عمير**»، فدنا وقال: أَنْعِمُوا صباحًا، فقال النبى ﷺ: «**قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة**».

ثم قال: «**ما جاء بك يا عمير؟**» قال: جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم، فأحسنوا فيه.

قال: «**فما بال السيف فى عنقك؟**» قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئًا؟

قال: «**اصدقنى، ما الذى جئت له؟**» قال: ما جئت إلا لذلك.

قال: «**بل قعدتَ أنت وصفوان بن أمية فى الحِجْر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين على وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى، والله حائل بينك وبين ذلك**».

قال عمير: أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحى، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام، وساقنى هذا المساق، ثم تشهد شهادة الحق. فقال رسول الله ﷺ: «**فقهوا أخاكم فى دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره**».

وأما صفوان فكان يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر. وكان يسأل الركبان عن عمير، حتى أخبره راكب عن إسلامه فحلف صفوان ألا يكلمه أبدًا، ولا ينفعه بنفع أبدا.

ورجع عمير إلى مكة وأقام بها يدعو إلى الإسلام، فأسلم على يديه ناس كثير[١].

غزوة بنى قينقاع

قدمنا بنود المعاهدة التى عقدها رسول الله ﷺ مع اليهود، وقد كان حريصًا كل الحرص على تنفيذ ما جاء فى هذه المعاهدة، وفعلًا لم يأت من المسلمين ما يخالف حرفًا واحدًا من نصوصها. ولكن اليهود الذين ملأوا تاريخهم بالغدر والخيانة ونكث العهود، لم يلبثوا أن تمشوا مع طبائعهم القديمة، وأخذوا فى طريق الدس والمؤامرة والتحريش وإثارة القلق والاضطراب فى صفوف المسلمين. وهاك مثلًا من ذلك:

نموذج من مكيدة اليهود:

قال ابن إسحاق: مر شاس بن قيس - وكان شيخًا (يهوديًا) قد عسا[٢]، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية، فقال: قد اجتمع ملأ بنى قَيْلَةَ بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شابًّا من يهود كان معه، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعَاث وما كان من قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا حتى توائب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جَذَعَة - يعنى الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية التى كانت بينهم - وغضب الفريقان جميعًا، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة - والظاهرة: الحَرَّة - السلاح السلاح، فخرجوا إليها (وكادت تنشب الحرب).

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال: **«يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر وألف بين قلوبكم».**

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا، وعانق الرجال من

(١) ابن هشام ١/ ٦٦١-٦٦٣.
(٢) كبر.

الأوس والخزرج بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس[١].

هذا نموذج مما كان اليهود يفعلونه ويحاولونه من إثارة القلاقل والفتن فى المسلمين، وإقامة العراقيل فى سبيل الدعوة الإسلامية، وقد كانت لهم خطط شتى فى هذا السبيل. فكانوا يبثون الدعايات الكاذبة، ويؤمنون وجه النهار، ثم يكفرون آخره؛ ليزرعوا بذور الشك فى قلوب الضعفاء، وكانوا يضيقون سبل المعيشة على من آمن إن كان لهم به ارتباط مالى، فإن كان لهم عليه يتقاضونه صباح مساء، وإن كان له عليهم يأكلونه بالباطل، ويمتنعون عن أدائه وكانوا يقولون: إنما كان علينا قرضك حينما كنت على دين آبائك، فأما إذ صبوت فليس لك علينا من سبيل[٢].

كانوا يفعلون كل ذلك قبل بدر على رغم المعاهدة التى عقدوها مع رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ وأصحابه يصبرون على كل ذلك؛ حرصًا على رشدهم، وعلى بسط الأمن والسلام فى المنطقة.

بنو قَينُقَاع ينقضون العهد:

لكنهم لما رأوا أن الله قد نصر المؤمنين نصرًا مؤزرًا فى ميدان بدر، وأنهم قد صارت لهم عزة وشوكة وهيبة فى قلوب القاصى والدانى- تميزت قدر غيظهم، وكاشفوا بالشر والعداوة، وجاهروا بالبغى والأذى.

وكان أعظمهم حقدًا وأكبرهم شرًّا كعب بن الأشرف - وسيأتى ذكره - كما أن شر طائفة من طوائفهم الثلاث هم يهود بنى قينقاع، كانوا يسكنون داخل المدينة - فى حى باسمهم - وكانوا صاغة وحدادين وصناع الظروف والأوانى، ولأجل هذه الحرف كانت قد توفرت لكل رجل منهم آلات الحرب، وكان عدد المقاتلين فيهم سبعمائة، وكانوا أشجع يهود المدينة، وكانوا أول من نكث العهد والميثاق من اليهود.

فلما فتح الله للمسلمين فى بدر اشتد طغيانهم، وتوسعوا فى تحرشاتهم واستفزازاتهم، فكانوا يثيرون الشغب، ويتعرضون بالسخرية، ويواجهون بالأذى كل من ورد سوقهم من المسلمين حتى أخذوا يتعرضون بنسائهم.

---

(١) ابن هشام ١/ ٥٥٥، ٥٥٦.

(٢) ذكر المفسرون نماذج لفعلاتهم هذه فى تفسير سورة آل عمران وغيرها.

وعندما تفاقم أمرهم واشتد بغيهم، جمعهم رسول الله ﷺ، فوعظهم ودعاهم إلى الرشد والهدى، وحذرهم مغبة البغى والعدوان، ولكنهم ازدادوا فى شرهم وغطرستهم.

روى أبو داود وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما أصاب رسول الله ﷺ قريشًا يوم بدر، وقدم المدينة، جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع. فقال: «**يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشًا**». قالوا: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله تعالى: [D E F G H I J K L M N O P Q R S T U V W X Y Z [\ ] ^ _ ` a b c d e f g h i j k l m n ¬ Z [آل عمران][(١)].

كان فى معنى ما أجاب به بنو قينقاع هو الإعلان السافر عن الحرب، ولكن كظم النبى ﷺ غيظه، وصبر المسلمون، وأخذوا ينتظرون ما تتمخض عنه الليالى والأيام.

وازداد اليهود – من بنى قينقاع – جراءة، فقلما لبثوا أن أثاروا فى المدينة قلقًا واضطرابًا، وسعوا إلى حتفهم بظلفهم، وسدوا على أنفسهم أبواب الحياة.

روى ابن هشام عن أبى عون: أن امرأة من العرب قدمت بجَلَبٍ لها، فباعته فى سوق بنى قينقاع، وجلست إلى صائغ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فَعَمَد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها – وهى غافلة – فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله – وكان يهوديًّا – فشدت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع[(٢)].

الحصار ثم التسليم ثم الجلاء:

وحينئذ عِيلَ صبر رسول الله ﷺ، فاستخلف على المدينة أبا لُبَابة بن عبد المنذر، وأعطى لواء المسلمين حمزة بن عبد المطلب، وسار بجنود الله إلى بنى قينقاع، ولما رأوه تحصنوا فى حصونهم، فحاصرهم أشد الحصار، وكان ذلك يوم السبت للنصف من شوال سنة ٢هـ

(١) سنن أبى داود مع عون المعبود ٣/ ١١٥، وابن هشام ١/ ٥٥٢.
(٢) ابن هشام ٢/ ٤٧، ٤٨.

ودام الحصار خمس عشرة ليلة إلى هلال ذى القعدة، وقذف الله فى قلوبهم الرعب - فهو إذا أرادوا خذلان قوم وهزيمتهم أنزله عليهم وقذفه فى قلوبهم - فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ فى رقابهم وأموالهم ونسائهم وذريتهم، فأمر بهم فكتفوا.

وحينئذ قام عبد الله بن أبى ابن سلول بدور نفاقه، فألح على رسول الله ﷺ أن يصدر عنهم العفو، فقال: يا محمد، أحسن فى موالى - وكان بنو قينقاع حلفاء الخزرج - فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فكرر ابن أبى مقالته فأعرض عنه، فأدخل يده فى جيب درعه، فقال له رسول الله ﷺ: «أرسلنى»، وغضب حتى رأوا لوجهه ظُلَلًا[١]، ثم قال: «ويحك، أرسلنى». ولكن المنافق مضى على إصراره وقال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى أربعمائة حاسر[٢] وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود، تحصدهم فى غداة واحدة؟ إنى والله امرؤ أخشى الدوائر.

وعامل رسول الله ﷺ هذا المنافق - الذى لم يكن مضى على إظهار إسلامه إلا نحو شهر واحد فحسب - عامله بالحسنى. فوهبهم له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أَذْرُعَات الشام، فقل أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم.

وقبض رسول الله ﷺ منهم أموالهم، فأخذ منها ثلاث قِسِى ودرعين وثلاثة أسياف وثلاثة رماح، وخمس غنائمهم، وكان الذى تولى جمع الغنائم محمد بن مسلمة[٣].

غزوة السَّوِيق

بينما كان صفوان بن أمية واليهود والمنافقون يقومون بمؤامراتهم وعملياتهم، كان أبو سفيان يفكر فى عمل قليل المغارم ظاهر الأثر، يتعجل به؛ ليحفظ مكانة قومه، ويبرز ما لديهم من قوة، وكان قد نذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدًا، فخرج فى مائتى راكب ليبرَّ يمينه، حتى نزل بصدْر قَناة إلى جبل يقال له: ثَيْبٌ، من المدينة على بَرِيد[٤] أو نحوه، ولكنه لم يجرؤ على مهاجمة المدينة جهارًا، فقام بعمل هو أشبه بأعمال القرصنة، فإنه دخل فى ضواحى المدينة فى الليل مستخفيًا تحت جنح الظلام، فأتى حيى بن أخطب، فاستفتح بابه، فأبى وخاف، فانصرف إلى سَلاَّم ابن مِشْكَم سيد بنِى النضير، وصاحب كنزهم إذ ذاك، فاستأذن عليه فأذن، فَقَرَاه وسقاه الخمر، وبَطَن له من خبر الناس، ثم خرج

(١) كناية عن تغير وجه النبى ﷺ.
(٢) لا درع له.
(٣) زاد المعاد ٢/ ٧١، ٩١، وابن هشام ٢/ ٤٧-٤٩.
(٤) البريد: مسافة اثنى عشر ميلا.

أبو سفيان فى عقب ليلته حتى أتى أصحابه، فبعث مفرزة منهم، فأغارت على ناحية من المدينة يقال لها: «العُرَيض»، فقطعوا وأحرقوا هناك أصْوَارًا[١] من النخل، ووجدوا رجلًا من الأنصار وحليفًا له فى حرث لهما فقتلوهما، وفروا راجعين إلى مكة.

وبلغ رسول الله ﷺ الخبر، فسارع لمطاردة أبى سفيان وأصحابه، ولكنهم فروا ببالغ السرعة، وطرحوا سويقًا كثيرًا من أزوادهم وتموياتهم، يتخففون به، فتمكنوا من الإفلات، وبلغ رسول الله ﷺ إلى قَرْقَرَةِ الكُدْر، ثم انصرف راجعًا. وحمل المسلمون ما طرحه الكفار من سويقهم، وسموا هذه المناوشة بغزوة السويق. وقد وقعت فى ذى الحجة سنة ٢ هـ بعد بدر بشهرين، واستعمل على المدينة فى هذه الغزوة أبا لبابة بن عبد المنذر[٢].

غزوة ذى أمر

وهى أكبر حملة عسكرية قادها رسول الله ﷺ قبل معركة أحد، قادها فى المحرم سنة ٣ هـ.

وسببها: أن استخبارات المدينة نقلت إلى رسول الله ﷺ: أن جمعًا كبيرًا من بنى ثعلبة ومحارب تجمعوا، يريدون الإغارة على أطراف المدينة، فندب رسول الله ﷺ المسلمين، وخرج فى أربعمائة وخمسين مقاتلًا ما بين راكب وراجل، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان.

وفى أثناء الطريق قبضوا على رجل يقال له: جُبَّار من بنى ثعلبة، فأدخل على رسول الله ﷺ، فدعاه إلى الإسلام فأسلم، فضمه إلى بلال، وصار دليلًا لجيش المسلمين إلى أرض العدو.

وتفرق الأعداء فى رءوس الجبال حين سمعوا بقدوم جيش المدينة. أما النبى ﷺ فقد وصل بجيشه إلى مكان تجمعهم، وهو الماء المسمى (بذى أمر) فأقام هناك صفرًا كله - من سنة ٣ هـ - أو قريبًا من ذلك، ليشعر الأعراب بقوة المسلمين، ويستولى عليهم الرعب والرهبة، ثم رجع إلى المدينة[٣].

---

(١) جماعة.
(٢) زاد المعاد ٢/ ٩٠، ٩١، وابن هشام ٢/ ٤٤، ٤٥.
(٣) ابن هشام ٢/ ٤٦، وزاد المعاد ٢/ ٩١، ويذكر أن محاولة اغتيال النبى ﷺ من قبل دعثور أو غورث المحاربى كانت فى هذه الغزوة. والصحيح أنها فى غير هذه الغزوة، انظر: صحيح البخارى ٢/ ٥٩٣.

قتل كعب بن الأشرف

كان كعب بن الأشرف من أشد اليهود حنقًا على الإسلام والمسلمين، وإيذاء لرسول الله ﷺ، وتظاهرا بالدعوة إلى حربه.

كان من قبيلة طيئ – من بنى نَبْهان – وأمه من بنى النضير، وكان غنيًّا مترفًا معروفًا بجماله فى العرب، شاعرًا من شعرائها. وكان حصنه فى شرق جنوب المدينة خلف ديار بنى النضير.

ولما بلغه أول خبر عن انتصار المسلمين، وقتل صناديد قريش فى بدر قال: أحق هذا؟ هؤلاء أشراف العرب، وملوك الناس، والله إن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها.

ولما تأكد لديه الخبر، انبعث عدو الله يهجو رسول الله ﷺ والمسلمين، ويمدح عدوهم ويحرضهم عليهم، ولم يرض بهذا القدر حتى ركب إلى قريش، فنزل على المطلب بن أبى وَدَاعة السهمى، وجعل ينشد الأشعار يبكى فيها على أصحاب القَلِيب من قتلى المشركين، يثير بذلك حفائظهم، ويذكى حقدهم على النبى ﷺ، ويدعوهم إلى حربه، وعندما كان بمكة سأله أبو سفيان والمشركون: أديننا أحب إليك أم دين محمد وأصحابه؟ وأى الفريقين أهدى سبيلًا؟ فقال: أنتم أهدى منهم سبيلا، وأفضل، وفى ذلك أنزل الله تعالى:] È Ç Ö Õ Ô Ó Ò Ñ Ð Ï Î Í Ì Ë Ê É × Ø Ù Ú Û Z [النساء].

ثم رجع كعب إلى المدينة على تلك الحال، وأخذ يشبب فى أشعاره بنساء الصحابة، ويؤذيهم بسلاطة لسانه أشد الإيذاء.

وحينئذ قال رسول الله ﷺ: «**من لكعب بن الأشرف؟ فإنه آذى الله ورسوله**»، فانتدب له محمد بن مسلمة، وعَبَّاد بن بشر، وأبو نائلة – واسمه سِلْكَان بن سلامة، وهو أخو كعب من الرضاعة – والحارث بن أوس، وأبو عَبْس بن جبر، وكان قائد هذه المفرزة محمد بن مسلمة.

وتفيد الروايات فى قتل كعب بن الأشرف أن رسول الله ﷺ لما قال: «**من لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله**»، قام محمد بن مسلمة فقال: أنا يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟ قال: «نعم». قال: فائذن لى أن أقول شيئًا. قال: «قل».

فأتاه محمد بن مسلمة، فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة، وإنه قد عَنَّانا[١].

قال كعب: والله لَتَمَلُّنَّهُ.

قال محمد بن مسلمة: فإنا قد اتبعناه، فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شىء يصير شأنه؟ وقد أردنا أن تسلفنا وَسْقًا أو وَسْقَين.

قال كعب: نعم، أرهنونى.

قال ابن مسلمة: أى شىء تريد؟

قال: أرهنونى نساءكم.

قال: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟

قال: فترهنونى أبناءكم.

قال: كيف نرهنك أبناءنا فيُسَبُّ أحَدُهم فيقال: رُهِن بوسق أو وسقين، هذا عار علينا. ولكنا نرهنك اللَّأْمَة، يعنى السلاح.

فواعده أن يأتيه.

وصنع أبو نائلة مثل ما صنع محمد بن مسلمة، فقد جاء كعبًا فتناشد معه أطراف الأشعار سويعة، ثم قال له: ويحك يا بن الأشرف، إنى قد جئت لحاجة أريد ذكرها لك فاكتم عنى.

قال كعب: أفعل.

قال أبو نائلة: كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء، عادتنا العرب، ورمتنا عن قَوْسٍ واحدة، وقطعتْ عنا السبل، حتى ضاع العيال، وجُهِدَت الأنفس، وأصبحنا قد جُهِدْنا وجُهِد عيالنا، ودار الحوار على نحو ما دار مع ابن مسلمة.

وقال أبو نائلة أثناء حديثه: إن معى أصحابًا لى على مثل رأيى، وقد أردت أن آتيك بهم، فتبيعهم وتحسن فى ذلك.

وقد نجح ابن مسلمة وأبو نائلة فى هذا الحوار إلى ما قصد، فإن كعبًا لن ينكر معهما السلاح والأصحاب بعد هذا الحوار.

وفى ليلة مُقْمِرَة - ليلة الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٣ هـ - اجتمعت هذه المفرزة إلى رسول الله ﷺ، فشيعهم إلى بَقِيع الغَرْقَد، ثم وجههم قائلًا: «**انطلقوا على اسم**

(١) أتعبنا.

الله، اللهم أعنهم»، ثم رجع إلى بيته، وطفق يصلى ويناجى ربه.

وانتهت المفرزة إلى حصن كعب بن الأشرف، فهتف به أبو نائلة، فقام لينزل إليهم، فقالت له امرأته - وكان حديث العهد بها: أين تخرج هذه الساعة؟ أسمع صوتًا كأنه يقطر منه الدم.

قال كعب: إنما هو أخى محمد بن مسلمة، ورضيعى أبو نائلة، إن الكريم لو دعى إلى طعنة أجاب، ثم خرج إليهم وهو متطيب ينفح رأسه.

وقد كان أبو نائلة قال لأصحابه: إذا ما جاء فإنى آخذ بشعره فأشمه، فإذا رأيتمونى استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه، فلما نزل كعب إليهم تحدث معهم ساعة، ثم قال أبو نائلة: هل لك يا بن الأشرف أن نتماشى إلى شِعْب العجوز فنتحدث بقية ليلتنا؟ قال: إن شئتم، فخرجوا يتماشون، فقال أبو نائلة وهو فى الطريق: ما رأيت كالليلة طيبًا أعطر، وزهى كعب بما سمع، فقال: عندى أعطر نساء العرب، قال أبو نائلة: أتأذن لى أن أشم رأسك؟ قال: نعم، فأدخل يده فى رأسه فشمه وأشم أصحابه.

ثم مشى ساعة ثم قال: أعود؟ قال كعب: نعم، فعاد لمثلها. حتى اطمأن.

ثم مشى ساعة ثم قال: أعود؟ قال: نعم، فأدخل يده فى رأسه، فلما استمكن منه قال: دونكم عدو الله، فاختلفت عليه أسيافهم، لكنها لم تغن شيئًا، فأخذ محمد بن مسلمة مِغْوَلًا [١] فوضعه فى ثُنَّتِهِ [٢]، ثم تحامل عليه حتى بلغ عانته، فوقع عدو الله قتيلًا، وكان قد صاح صيحة شديدة أفزعت من حوله، فلم يبق حصن إلا أوقدت عليه النيران.

ورجعت المفرزة وقد أصيب الحارث بن أوس بذُبَاب [٣] بعض سيوف أصحابه فجرح ونزف الدم، فلما بلغت المفرزة حَرَّة العُرَيْض رأت أن الحارث ليس معهم، فوقفت ساعة حتى أتاهم يتبع آثارهم، فاحتملوه، حتى إذا بلغوا بَقِيع الغَرْقَد كبروا، وسمع رسول الله ﷺ تكبيرهم، فعرف أنهم قد قتلوه، فكبر، فلما انتهوا إليه قال: **«أفلحت الوجوه»**، قالوا: ووجهك يا رسول الله، ورموا برأس الطاغية بين يديه، فحمد الله على قتله، وتفل على جرح الحارث فبرأ، ولم يؤذ بعده [٤].

---

(١) المغْوَل: السكين.

(٢) الثُّنَّة: ما بين السرة والعانة.

(٣) ذُباب السيف: طرفه.

(٤) أخذنا تفاصيل هذه الوقعة من ابن هشام ٢/ ٥١- ٥٧، وصحيح البخارى ١/ ٣٤١، ٤٢٥، ٢/ ٥٧٧، وسنن أبى داود مع عون المعبود ٢/ ٤٢، ٤٣، وزاد المعاد، ٢/ ٩١.

ولما علمت اليهود بمصرع طاغيتها كعب بن الأشرف دب الرعب فى قلوبهم العنيدة، وعلموا أن الرسول ﷺ لن يتوانى فى استخدام القوة حين يرى أن النصح لا يجدى نفعًا لمن يريد العبث بالأمن وإثارة الاضطرابات وعدم احترام المواثيق، فلم يحركوا ساكنًا لقتل طاغيتهم، بل لزموا الهدوء، وتظاهروا بإيفاء العهود، واستكانوا، وأسرعت الأفاعى إلى جحورها تختبئ فيها.

وهكذا تفرغ الرسول ﷺ - إلى حين - لمواجهة الأخطار التى كان يتوقع حدوثها من خارج المدينة، وأصبح المسلمون وقد تخفف عنهم كثير من المتاعب الداخلية التى كانوا يتوجسونها، ويشمون رائحتها بين آونة وأخرى.

غزوة بُحْران

وهى دورية قتال كبيرة، قوامها ثلاثمائة مقاتل، قادها الرسول ﷺ فى شهر ربيع الآخر سنة ٣ هـ إلى أرض يقال لها: بحران - وهى مَعْدِن بالحجاز من ناحية الفُرْع - فأقام بها شهر ربيع الآخر ثم جمادى الأولى (من السنة الثالثة من الهجرة) ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق حربًا[(١)].

سرية زيد بن حارثة

وهى آخر وأنجح دورية للقتال قام بها المسلمون قبل أحد، وقعت فى جمادى الآخرة سنة ٣ هـ.

وتفصيلها: أن قريشًا بقيت بعد بدر يساورها القلق والاضطراب، وجاء الصيف، واقترب موسم رحلتها إلى الشام، فأخذها هَمٌّ آخر.

قال صفوان بن أمية لقريش - وهو الذى نخبته قريش فى هذا العام لقيادة تجارتها إلى الشام: إن محمدًا وصحبه عَوَّرُوا علينا متجرنا، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل؟ وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامتهم معه، فما ندرى أين نسلك؟

(١) ابن هشام ٢/ ٥٠، ٥١، وزاد المعاد ٢/ ٩١. واختلفت المصادر في تعيين سبب هذه الغزوة، فقيل: إن استخبارات المدينة نقلت إلى ﷺ أن بني سليم يحشدون قوات كبيرة لغزو المدينة أو أطرافها، وقيل: بل خرج يريد قريشًا، وهذا الثاني هو الذي ذكره ابن هشام واختاره ابن القيم -حتى لم يذكر الأول رأسا- وهو الموجه، وذلك لأن ديار بني سليم لم تكن بناحية الفرع، وإنما هي في نجد بعيدة عن ناحية الفرع.

وإن أقمنا فى دارنا هذه أكلنا رءوس أموالنا فلم يكن لها من بقاء. وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى الصيف، وإلى الحبشة فى الشتاء.

ودارت المناقشة حول هذا الموضوع، فقال الأسود بن عبد المطلب لصفوان: تنكب الطريق على الساحل وخذ طريق العراق - وهى طريق طويلة جدًّا تخترق نجدًا إلى الشام، وتمر فى شرقى المدينة على بعد كبير منها، وكانت قريش تجهل هذه الطريق كل الجهل - فأشار الأسود بن عبد المطلب على صفوان أن يتخذ فُرَات بن حَيَّان - من بنى بكر بن وائل - دليلًا له، ويكون رائده فى هذه الرحلة.

وخرجت عير قريش يقودها صفوان بن أمية، آخذة الطريق الجديدة، إلا أن أنباء هذه القافلة وخطة سيرها طارت إلى المدينة. وذلك أن سَلِيط بن النعمان - كان قد أسلم - اجتمع فى مجلس شرب - وذلك قبل تحريم الخمر - مع نعيم بن مسعود الأشجعى - ولم يكن أسلم إذ ذاك - فلما أخذت الخمر من نعيم تحدث بالتفصيل عن قضية العير وخطة سيرها،فأسرع سليط إلى النبى ﷺ يروى له القصة.

وجهز رسول الله ﷺ لوقته حملة قوامها مائة راكب فى قيادة زيد بن حارثة الكلبى، وأسرع زيد حتى دهم القافلة بغتة - على حين غرة - وهى تنزل على ماء فى أرض نجد يقال له: قَرْدَة - بالفتح فالسكون - فاستولى عليها كلها، ولم يكن من صفوان ومن معه من حرس القافلة إلا الفرار بدون أى مقاومة.

وأسر المسلمون دليل القافلة - فرات بن حيان، وقيل: ورجلين غيره - وحملوا غنيمة كبيرة من الأوانى والفضة كانت تحملها القافلة، قدرت قيمتها بمائة ألف، وقسم رسول الله ﷺ هذه الغنيمة على أفراد السرية بعد أخذ الخمس، وأسلم فرات بن حيان على يديه ﷺ[1].

وكانت مأساة شديدة ونكبة كبيرة أصابت قريشًا بعد بدر، اشتد لها قلق قريش وزادتها هما وحزنًا. ولم يبق أمامها إلا طريقان،إما أن تمتنع عن غطرستها وكبريائها، وتأخذ طريق الموادعة والمصالحة مع المسلمين، أو تقوم بحرب شاملة تعيد لها مجدها التليد، وعزها القديم، وتقضى على قوات المسلمين بحيث لا يبقى لهم سيطرة على هذا ولا ذاك، وقد اختارت مكة الطريق الثانية، فازداد إصرارها على المطالبة بالثأر، والتهيؤ للقاء المسلمين فى

(١) ابن هشام ٢/ ٥٠، ٥١، وفقه السيرة ص ١٩٠، ورحمة للعالمين ٢/ ٢١٩.

تعبئة كاملة، وتصميمها على الغزو فى ديارهم، فكان ذلك وما سبق من أحداث التمهيد القوى لمعركة أحد.

obeikandl.com

غزوة أحد

استعداد قريش لمعركة ناقمة:

كانت مكة تحترق غيظًا على المسلمين مما أصابها فى معركة بدر من مأساة الهزيمة وقتل الصناديد والأشراف، وكانت تجيش فيها نزعات الانتقام وأخذ الثأر، حتى إن قريشًا كانوا قد منعوا البكاء على قتلاهم فى بدر، ومنعوا من الاستعجال فى فداء الأسارى حتى لا يتفطن المسلمون مدى مأساتهم وحزنهم.

وعلى أثر غزوة بدر اتفقت قريش على أن تقوم بحرب شاملة ضد المسلمين تشفى غيظها وتروى غلة حقدها، وأخذت فى الاستعداد للخوض فى مثل هذه المعركة.

وكان عكرمة بن أبى جهل، وصفوان بن أمية، وأبو سفيان بن حرب، وعبد الله بن أبى ربيعة أكثر زعماء قريش نشاطًا وتحمسًا لخوض المعركة.

وأول ما فعلوه بهذا الصدد أنهم احتجزوا العير التى كان قد نجا بها أبو سفيان، والتى كانت سببًا لمعركة بدر، وقالوا للذين كانت فيها أموالهم: يا معشر قريش، إن محمدًا قد وَتَرَكُم[1] وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه ؛ لعلنا أن ندرك منه ثأرًا، فأجابوا لذلك، فباعوها، وكانت ألف بعير، والمال خمسين ألف دينار، وفى ذلك أنزل الله تعالى:

[G H I J K L M N O P Q R S T U V

W X Y Z] [الأنفال: ٣٦].

ثم فتحوا باب التطوع لكل من أحب المساهمة فى غزو المسلمين من الأحابيش وكنانة وأهل تهامة، وأخذوا لذلك أنواعا من طرق التحريض، حتى إن صفوان بن أمية أغرى أبا عزة الشاعر – الذى كان قد أسر فى بدر، فَمَنَّ عليه رسول الله ﷺ وأطلق سراحه بغير فدية، وأخذ منه العهد بألا يقوم ضده – أغراه على أن يقوم بتحريض القبائل ضد المسلمين، وعاهده أنه إن رجع عن الغزوة حيًّا يغنيه، وإلا يكفل بناته، فقام أبو عزة بتحريض القبائل بأشعاره التى كانت تذكى حفائظهم، كما اختاروا شاعرًا آخر – مُسَافع بن عبد مناف الجمحى – لنفس المهمة.

وكان أبو سفيان أشد تأليبًا على المسلمين بعدما رجع من غزوة السَّوِيق خائبًا لم ينل ما

(١) ظلمكم.

فى نفسه، بل أضاع مقدارًا كبيرًا من تمويناته فى هذه الغزوة.

وزاد الطينة بلة – أو زاد النار إذكاء، إن صح هذا التعبير – ما أصاب قريشًا أخيرًا فى سرية زيد بن حارثة من الخسارة الفادحة التى قصمت فقار اقتصادها، وزودها من الحزن والهم ما لا يقادر قدره، وحينئذ زادت سرعة قريش فى استعدادها للخوض فى معركة تفصل بينهم وبين المسلمين.

قوام جيش قريش وقيادته:

ولما استدارت السنة كانت مكة قد استكملت عدتها، واجتمع إليها من المشركين ثلاثة آلاف مقاتل من قريش والحلفاء والأحابيش، ورأى قادة قريش أن يستصحبوا معهم النساء حتى يكون ذلك أبلغ فى استماتة الرجال دون أن تصاب حرماتهم وأعراضهم، وكان عدد هذه النسوة خمس عشرة امرأة.

وكان سلاح النقليات فى هذا الجيش ثلاثة آلاف بعير، ومن سلاح الفرسان مائتا فرس[(١)]، جنبوها طول الطريق، وكان من سلاح الوقاية سبعمائة درع. وكانت القيادة العامة إلى أبى سفيان ابن حرب، وقيادة الفرسان إلى خالد بن الوليد يعاونه عكرمة بن أبى جهل. أما اللواء فكان إلى بنى عبد الدار.

جيش مكة يتحرك:

تحرك الجيش المكى بعد هذا الإعداد التام نحو المدينة، وكانت التارات القديمة والغيظ الكامن يشعل البغضاء فى القلوب، ويشف عما سوف يقع من قتال مرير.

الاستخبارات النبوية تكشف حركة العدو:

وكان العباس بن عبد المطلب يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبى ﷺ ضمنها جميع تفاصيل الجيش.

وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة، وجد فى السير، حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة – التى تبلغ مسافتها إلى نحو خمسمائة كيلو متر – فى ثلاثة أيام، وسلم الرسالة إلى النبى ﷺ وهو فى مسجد قباء.

قرأ الرسالة على النبى ﷺ أبى بن كعب، فأمره بالكتمان، وعاد مسرعًا إلى المدينة،

(١) زاد المعاد ٢/ ٩٢ وهو المعروف، وفى فتح البارى: مائة فرس ٧/ ٣٤٦.

وتبادل الرأى مع قادة المهاجرين والأنصار.

استعداد المسلمين للطوارئ:

وظلت المدينة فى حالة استنفار عام لا يفارق رجالها السلاح حتى وهم فى الصلاة، استعدادًا للطوارئ.

وقامت مفرزة من الأنصار – فيهم سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وسعد بن عبادة – بحراسة رسول الله ﷺ، فكانوا يبيتون على بابه وعليهم السلاح. وقامت على مداخل المدينة وأنقابها مفرزات تحرسها ؛ خوفا من أن يؤخذوا على غرة.

وقامت دوريات من المسلمين – لاكتشاف تحركات العدو – تتجول حول الطرق التى يحتمل أن يسلكها المشركون للإغارة على المسلمين.

الجيش المكى إلى أسوار المدينة:

وتابع جيش مكة سيره على الطريق الغربية الرئيسية المعتادة، ولما وصل إلى الأبْوَاء اقترحت هند بنت عتبة – زوج أبى سفيان – بنبش قبر أم رسول الله ﷺ، بَيدَ أن قادة الجيش رفضوا هذا الطلب،وحذروا من العواقب الوخيمة التى تلحقهم لو فتحو هذا الباب.

ثم واصل جيش مكة سيره حتى اقترب من المدينة، فسلك وادى العَقيق، ثم انحرف منه إلى ذات اليمين حتى نزل قريبًا بجبل أحد، فى مكان يقال له: عَينَيْن، فى بطن السَّبْخَة من قناة على شفير الوادى – الذى يقع شمالى المدينة بجنب أحد، فعسكر هناك يوم الجمعة السادس من شهر شوال سنة ثلاث من الهجرة.

المجلس الاستشارى لأخذ خطة الدفاع:

ونقلت استخبارات المدينة أخبار جيش مكة خبرًا بعد خبر حتى الخبر الأخير عن معسكره، وحينئذ عقد رسول الله ﷺ مجلسًا استشاريًا عسكريًّا أعلى، تبادل فيه الرأى لاختيار الموقف، وأخبرهم عن رؤيا رآها، قال: «**إنى قد رأيت والله خيرًا، رأيت بقرًا يذبح، ورأيت فى ذُبَاب سيفى ثُلْمًا، ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة**»، وتأوّل البقر بنفر من أصحابه يقتلون، وتأول الثلمة فى سيفه برجل يصاب من أهل بيته، وتأول الدرع بالمدينة.

ثم قدم رأيه إلى صحابته ألا يخرجوا من المدينة وأن يتحصنوا بها،فإن أقام المشركون بمعسكرهم أقاموا بِشَرٍّ مُقَام وبغير جدوى، وإن دخلوا المدينة قاتلهم المسلمون على أفواه

الأزقة، والنساء من فوق البيوت، وكان هذا هو الرأى. ووافقه على هذا الرأى عبد الله بن أبى بن سلول - رأس المنافقين - وكان قد حضر المجلس بصفته أحد زعماء الخزرج. ويبدو أن موافقته لهذا الرأى لم تكن لأجل أن هذا هو الموقف الصحيح من حيث الوجهة العسكرية، بل ليتمكن من التباعد عن القتال دون أن يعلم بذلك أحد، وشاء الله أن يفتضح هو وأصحابه - لأول مرة - أمام المسلمين وينكشف عنهم الغطاء الذى كان كفرهم ونفاقهم يكمن وراءه، ويتعرف المسلمون فى أحرج ساعاتهم على تلك الأفاعى التى كانت تتحرك تحت ملابسهم وأكمامهم.

فقد بادر جماعة من فضلاء الصحابة ممن فاته الخروج يوم بدر ومن غيرهم، فأشاروا على النبى ﷺ بالخروج، وألحوا عليه فى ذلك حتى قال قائلهم: يا رسول الله،كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله، فقد ساقه إلينا وقرب المسير، اخرج إلى أعدائنا، لا يرون أنا جَبُنَّا عنهم.

وكان فى مقدمة هؤلاء المتحمسين حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ - الذى كان قد أبلى أحسن بلاء فى معركة بدر - فقد قال للنبى ﷺ: والذى أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعامًا حتى أجالدهم بسيفى خارج المدينة[1].

وتنازل رسول الله ﷺ عن رأيه مراعاة لهؤلاء المتحمسين، واستقر الرأى على الخروج من المدينة، واللقاء فى الميدان السافر.

تكتيب الجيش الإسلامى وخروجه إلى ساحة القتال:

ثم صلى النبى ﷺ بالناس يوم الجمعة، فوعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد، وأخبر أن لهم النصر بما صبروا، وأمرهم بالتهيؤ لعدوهم، ففرح الناس بذلك. ثم صلى بالناس العصر، وقد حشدوا وحضر أهل العَوَالى، ثم دخل بيته، ومعه صاحباه أبو بكر وعمر، فعمماه وألبساه، فتدجج بسلاحه وظاهر بين درعين (أى لبس درعا فوق درع) وتقلد السيف، ثم خرج على الناس.

وكان الناس ينتظرون خروجه، وقد قال لهم سعد بن معاذ وأسيد بن حضير: استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج فردوا الأمر إليه،فندموا جميعًا على ما صنعوا، فلما خرج قالوا له: يا رسول الله،ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت، إن أحببت أن تمكث بالمدينة فافعل. فقال رسول الله ﷺ: «**ما ينبغى لنبى إذا لبس لأْمَتَه** - وهى الدرع - **أن يضعها حتى يحكم**

(١) السيرة الحلبية ٢/ ١٤.

الله بينه وبين عدوه»[(١)].

وقسم النبى ﷺ جيشه إلى ثلاث كتائب:

١- كتيبة المهاجرين، وأعطى لواءها مصعب بن عمير العبدرى.

٢- كتيبة الأوس من الأنصار، وأعطى لواءها أسيد بن حضير.

٣- كتيبة الخزرج من الأنصار، وأعطى لواءها الحُبَاب بن المنذر.

وكان الجيش متألفًا من ألف مقاتل فيهم مائة دارع، ولم يكن فيهم من الفرسان أحد[(٢)]،واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم على الصلاة بمن بقى فى المدينة،وآذن بالرحيل، فتحرك الجيش نحو الشمال، وخرج السعدان أمام النبى ﷺ يعدوان دارعين.

ولما جاوز ثنية الوداع رأى كتيبة حسنة التسليح منفردة عن سواد الجيش، فسأل عنها، فأخبر أنهم اليهود من حلفاء الخزرج[(٣)] يرغبون المساهمة فى القتال ضد المشركين، فسأل: «هل أسلموا؟» فقالوا: لا، فأبى أن يستعين بأهل الكفر على أهل الشرك.

استعراض الجيش:

وعندما وصل إلى مقام يقال له: «الشيخان» استعرض جيشه، فرد من استصغره ولم يره مطيقًا للقتال، وكان منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وأسامة بن زيد، وأسيد بن ظُهَير، وزيد بن ثابت، وزيد بن أرقم، وعَرَابَة بن أوْس، وعمرو بن حزم، وأبو سعيد الخدرى، وزيد بن حارثة الأنصارى، وسعد بن حَبَّة، ويذكر فى هؤلاء البراء بن عازب، لكن حديثه فى البخارى يدل على شهوده القتال ذلك اليوم.

وأجاز رافع بن خَدِيج، وسَمُرَة بن جُنْدَب على صغر سنهما، وذلك أن رافع بن خديج كان ماهرًا فى رماية النبل فأجازه، فقال سمرة: أنا أقوى من رافع،أنا أصرعه، فلما أخبر رسول الله ﷺ بذلك أمرهما أن يتصارعا أمامه فتصارعا، فصرع سمرة رافعًا، فأجازه أيضًا.

(١) رواه أحمد ٣/ ٣٥١، والنسائى والحاكم وابن إسحاق، وذكره البخارى فى الاعتصام فى ترجمة باب ٢٨.

(٢) قال ابن القيم فى الهدى ٢/ ٩٢: وخمسون فارسًا - قال ابن حجر: هو غلط بين. وقد جزم موسى ابن عقبة بأنه لم يعش معهم فى أحد شىء من الخيل، ووقع عند الواقدى: كان معهم فرس لرسول الله ﷺ وفرس لأبى بردة (فتح البارى ٧/ ٣٥٠).

(٣) روى ذلك ابن سعد، وفيه: أنهم من بنى قينقاع (٢/ ٣٤)، ومعلوم أن بنى قينقاع كان قد تم إجلاؤهم عقب بدر.

المبيت بين أحد والمدينة:

وفى هذا المكان أدركهم المساء، فصلى المغرب، ثم صلى العشاء، وبات هنالك، واختار خمسين رجلًا لحراسة المعسكر يتجولون حوله، وكان قائدهم محمد بن مسلمة الأنصارى، بطل سرية كعب ابن الأشرف، وتولى ذَكْوَان بن عبد قيس حراسة النبى ﷺ خاصة.

تمرد عبد الله بن أبى وأصحابه:

وقبل طلوع الفجر بقليل أدلج، حتى إذا كان بالشَّوْط صلى الفجر، وكان بمقربة جدًّا من العدو، فقد كان يراهم ويرونه، وهناك تمرد عبد الله بن أبى المنافق، فانسحب بنحو ثلث العسكر - ثلاثمائة مقاتل - قائلًا: ما ندرى علام نقتل أنفسنا؟ ومتظاهرًا بالاحتجاج بأن الرسول ﷺ ترك رأيه وأطاع غيره.

ولا شك أن سبب هذا الانعزال لم يكن هو ما أبداه هذا المنافق من رفض رسول الله ﷺ رأيه، وإلا لم يكن لسيره مع الجيش النبوى إلى هذا المكان معنى. ولو كان هذا هو السبب لا نعزل عن الجيش منذ بداية سيره، بل كان هدفه الرئيسى من هذا التمرد - فى ذلك الظرف الدقيق - أن يحدث البلبلة والاضطراب فى جيش المسلمين على مرأى ومسمع من عدوهم،حتى ينحاز عامة الجيش عن النبى ﷺ، وتنهار معنويات من يبقى معه، بينما يتشجع العدو، وتعلو همته لرؤية هذا المنظر، فيكون ذلك أسرع إلى القضاء على النبى ﷺ وأصحابه المخلصين، ويصحو بعد ذلك الجو لعودة الرياسة إلى هذا المنافق وأصحابه.

وكاد المنافق ينجح فى تحقيق بعض ما كان يهدف إليه، فقد همت طائفتان - بنو حارثة من الأوس، وبنو سلمة من الخزرج - أن تفشلا، ولكن الله تولاهما، فثبتتا بعدما سرى فيهما الاضطراب، وهمتا بالرجوع والانسحاب، وعنهما يقول الله تعالى:] إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ Z [آل عمران].

وحاول عبد الله بن حَرَام - والد جابر بن عبد الله - تذكير هؤلاء المنافقين بواجبهم فى هذا الظرف الدقيق، فتبعهم وهو يوبخهم ويحضهم على الرجوع، ويقول: تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا، قالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لم نرجع، فرجع عنهم عبد الله بن حرام قائلًا: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغنى الله عنكم نبيه.

وفى هؤلاء المنافقين يقول الله تعالى:] + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 9 : ; < = ? @ A B C D E F G H Z Q P O N M L K J I [آل عمران].

بقية الجيش الإسلامى إلى أحد:

وبعد هذا التمرد والانسحاب قام النبى ﷺ ببقية الجيش - وهم سبعمائة مقاتل - ليواصل سيره نحو العدو، وكان معسكر المشركين يحول بينه وبين أحد فى مناطق كثيرة، فقال: «**من رجل يخرج بنا على القوم من كَثَبٍ** - أى من قريب - **من طريق لا يمر بنا عليهم؟**».

فقال أبو خَيثَمَةَ: أنا يارسول الله، ثم اختار طريقًا قصيرًا إلى أحد يمر بحَرَّةِ بنى حارثة وبمزارعهم، تاركًا جيش المشركين إلى الغرب.

ومر الجيش فى هذا الطريق بحائط مِرْبَع بن قَيظِى - وكان منافقًا ضرير البصر - فلما أحس بالجيش قام يحثو التراب فى وجوه المسلمين، ويقول: لا أحل لك أن تدخل حائطى إن كنت رسول الله. فابتدره القوم ليقتلوه، فقال ﷺ: «**لا تقتلوه، فهذا الأعْمَى أعمى القلب أعمى البصر**».

ونفذ رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من جبل أحد فى عدوة الوادى، فعسكر بجيشه مستقبلًا المدينة، وجاعلا ظهره إلى هضاب جبل أحد، وعلى هذا صار جيش العدو فاصلًا بين المسلمين وبين المدينة.

خطة الدفاع:

وهناك عبأ رسول الله ﷺ جيشه، وهيأهم صفوفًا للقتال، فاختار منهم فصيلة من الرماة الماهرين، قوامها خمسون مقاتلًا، وأعطى قيادتها لعبد الله بن جبير بن النعمان الأنصارى الأوسى البدرى، وأمرهم بالتمركز على جبل يقع على الضفة الشمالية من وادى قناة - وعرف فيما بعد بجبل الرماة - جنوب شرق معسكر المسلمين، على بعد حوالى مائة وخمسين مترًا من مقر الجيش الإسلامى.

والهدف من ذلك هو ما أبداه رسول الله ﷺ فى كلماته التى ألقاها إلى هؤلاء الرماة، فقد قال لقائدهم: «**انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك، لا نؤتين من قبلك**»[(١)] وقال للرماة: «**احموا ظهورنا، فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا**»[(٢)]، وفى رواية البخارى أنه قال: «**إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا**

(١) ابن هشام ٢/ ٦٥، ٦٦.

(٢) روى ذلك أحمد والطبرانى والحاكم عن ابن عباس. انظر: فتح البارى ٧/ ٣٥٠.

القوم ووطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم»[١].

بتعين هذه الفصيلة فى الجبل مع هذه الأوامر العسكرية الشديدة سد رسول الله ﷺ الثلمة الوحيدة التى كان يمكن لفرسان المشركين أن يتسللوا من ورائها إلى صفوف المسلمين، ويقوموا بحركات الالتفاف وعملية التطويق.

أما بقية الجيش فجعل على الميمنة المنذر بن عمرو، وجعل على الميسرة الزبير بن العوام، يسانده المقداد بن الأسود، وكان إلى الزبير مهمة الصمود فى وجه فرسان خالد بن الوليد، وجعل فى مقدمة الصفوف نخبة ممتازة من شجعان المسلمين ورجالاتهم المشهورين بالنجدة والبسالة، والذين يوزنون بالآلاف.

ولقد كانت خطة حكيمة ودقيقة جدًّا، تتجلى فيها عبقرية قيادة النبى ﷺ العسكرية، وأنه لا يمكن لأى قائد مهما تقدمت كفاءته أن يضع خطة أدق وأحكم من هذا؛ فقد احتل أفضل موضع من ميدان المعركة، مع أنه نزل فيه بعد العدو، فإنه حمى ظهره ويمينه بارتفاعات الجبل، وحمى ميسرته وظهره - حين يحتدم القتال - بسد الثلمة الوحيدة التى كانت توجد فى جانب الجيش الإسلامى، واختار لمعسكره موضعًا مرتفعًا يحتمى به - إذا نزلت الهزيمة بالمسلمين - ولا يلتجئ إلى الفرار، حتى يتعرض للوقوع فى قبضة الأعداء المطاردين وأسرهم، ويلحق مع ذلك خسائر فادحة بأعدائه إن أرادوا احتلال معسكره وتقدموا إليه،وألجأ أعداءه إلى قبول موضع منخفض يصعب عليهم جدًّا أن يحصلوا على شىء من فوائد الفتح إن كانت الغلبة لهم، ويصعب عليهم الإفلات من المسلمين المطاردين إن كانت الغلبة للمسلمين، كما أنه عوض النقص العددى فى رجاله باختيار نخبة ممتازة من أصحابه الشجعان البارزين.

وهكذا تمت تعبئة الجيش النبوى صباح يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣هـ.

الرسول ﷺ ينفث روح البسالة فى الجيش:

ونهى الرسول ﷺ الناس عن الأخذ فى القتال حتى يأمرهم، وظاهر بين درعين[٢]، وحرض أصحابه على القتال، وحضهم على المصابرة والجلاد عند اللقاء، وأخذ ينفث روح الحماسة والبسالة فى أصحابه حتى جرد سيفًا باترًا ونادى أصحابه: «**من يأخذ هذا السيف بحقه؟**»، فقام إليه رجال ليأخذوه - منهم على بن أبى طالب، والزبير بن العوام، وعمر

(١) صحيح البخارى: كتاب الجهاد ١/ ٤٢٦.
(٢) أى: لبس درعا فوق درع.

ابن الخطاب - حتى قام إليه أبو دُجَانة سِمَاك بن خَرَشَة، فقال: وما حقه يا رسول الله؟ قال: «**أن تضرب به وجوه العدو حتى ينحنى**». قال: أنا آخذه بحقه يا رسول الله، فأعطاه إياه.

وكان أبو دجانة رجلًا شجاعًا يختال عند الحرب، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم الناس أنه سيقاتل حتى الموت. فلما أخذ السيف عصب رأسه بتلك العصابة، وجعل يتبختر بين الصفين، وحينئذ قال رسول الله ﷺ: «**إنها لمشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن**».

تعبئة الجيش المكي:

أما المشركون فعبأوا جيشهم حسب نظام الصفوف، فكانت القيادة العامة إلى أبى سفيان صخر ابن حرب الذى تمركز فى قلب الجيش، وجعلوا على الميمنة خالد بن الوليد - وكان إذ ذاك مشركًا - وعلى الميسرة عكرمة بن أبى جهل، وعلى المشاة صفوان بن أمية، وعلى رماة النبل عبد الله بن أبى ربيعة.

أما اللواء فكان إلى مفرزة من بنى عبد الدار، وقد كان ذلك منصبهم منذ أن اقتسمت بنو عبد مناف المناصب التى ورثوها من قصى بن كلاب - كما أسلفنا فى أوائل الكتاب - وكان لا يمكن لأحد أن ينازعهم فى ذلك؛ تقيدًا بالتقاليد التى ورثوها كابرًا عن كابر، بيد أن القائد العام - أبا سفيان - ذكرهم بما أصاب قريشًا يوم بدر حين أسر حامل لوائهم النضر ابن الحارث، وقال لهم - ليستفز غضبهم ويثير حميتهم: يا بنى عبد الدار، قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، وإذا زالت زالوا، فإما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه.

ونجح أبو سفيان فى هدفه، فقد غضب بنو عبد الدار لقول أبى سفيان أشد الغضب، وهموا به وتواعدوه وقالوا له: نحن نسلم إليك لواءنا؟ ستعلم غدًا إذا التقينا كيف نصنع. وقد ثبتوا عند احتدام المعركة حتى أبيدوا عن بكرة أبيهم.

مناورات سياسية من قبل قريش:

وقبيل نشوب المعركة حاولت قريش إيقاع الفرقة والنزاع داخل صفوف المسلمين. فقد أرسل أبو سفيان إلى الأنصار يقول لهم: خلوا بيننا وبين ابن عمنا فننصرف عنكم،، فلا حاجة لنا إلى قتالكم. ولكن أين هذه المحاولة أمام الإيمان الذى لا تقوم له الجبال، فقد رد عليه الأنصار ردًّا عنيفًا، وأسمعوه ما يكره.

واقتربت ساعة الصفر، وتدانت الفئتان، فقامت قريش بمحاولة أخرى لنفس الغرض، فقد خرج إلى الأنصار عميل خائن يسمى أبا عامر الفاسق - واسمه عبد عمرو ابن صَيفِى، وكان يسمى الراهب، فسماه رسول الله ﷺ الفاسق، وكان رأس الأوس فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام شَرِق[١] به، وجاهر رسول الله ﷺ بالعداوة، فخرج من المدينة وذهب إلى قريش يؤلبهم على رسول الله ﷺ ويحضهم على قتاله، ووعدهم بأن قومه إذا رأوه أطاعوه، ومالوا معه - فكان أول من خرج إلى المسلمين فى الأحابيش وعُبْدَان أهل مكة. فنادى قومه وتعرف عليهم، وقال: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر. فقالوا: لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق. فقال: لقد أصاب قومى بعدى شر. - ولما بدأ القتال قاتلهم قتالًا شديدًا وراضخهم بالحجارة.

وهكذا فشلت قريش فى محاولتها الثانية للتفريق بين صفوف أهل الإيمان. ويدل عملهم هذا على ما كان يسيطر عليهم من خوف المسلمين وهيبتهم، مع كثرتهم وتفوقهم فى العدد والعدة.

جهود نسوة قريش فى التحميس:

وقامت نسوة قريش بنصيبهن من المشاركة فى المعركة، تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان، فكن يتجولن فى الصفوف، ويضربن بالدفوف؛ يستنهضن الرجال، ويحرضن على القتال، ويثرن حفائظ الأبطال، ويحركن مشاعر أهل الطعان والضراب والنضال، فتارة يخاطبن أهل اللواء فيقلن:

وَيْـهـا بـنـى عـبـد الـدار
ويـهـا حُـمَـاة الأدبـار
ضـربًـا بـكـل بـتـار

وتارة يأززن قومهن على القتال وينشدن:

إن تُـقْـبِـلُـوا نُـعَـانِـق
ونَـفْـرِشُ الـنـمـارق
أو تُـدْبِـرُوا نُـفَـارِق
فـراق غـيـر وَامِـق[٢]

(١) يقال: شَرِق بِرِيقِهِ: أى غُصَّ.
(٢) الوامق: المحب.

أول وقود المعركة:

وتقارب الجمعان وتدانت الفئتان، وآنت مرحلة القتال، وكان أول وقود المعركة حامل لواء المشركين طلحة بن أبى طلحة العبدرى، وكان من أشجع فرسان قريش، يسميه المسلمون كبش الكتيبة. خرج وهو راكب على جمل يدعو إلى المبارزة، فأحجم عنه الناس لفرط شجاعته، ولكن تقدم إليه الزبير ولم يمهله، بل وثب إليه وثبة الليث حتى صار معه على جمله، ثم اقتحم به الأرض فألقاه عنه وذبحه بسيفه.

ورأى النبى ﷺ هذا الصراع الرائع فكبر، وكبر المسلمون وأثنى على الزبير، وقال فى حقه: «**إن لكل نبى حواريًّا، وحوارى الزبير**»[(١)].

ثقل المعركة حول اللواء وإبادة حملته:

ثم اندلعت نيران المعركة، واشتد القتال بين الفريقين فى كل نقطة من نقاط الميدان، وكان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين، فقد تعاقب بنو عبد الدار لحمل اللواء بعد قتل قائدهم طلحة بن أبى طلحة، فحمله أخوه أبو شيبة عثمان بن أبى طلحة، وتقدم للقتال وهو يقول:

إنَّ عـلـى أهْـل الـلـوَاء حقًّا أن تُخْضَبَ الصَّعْدَة[(٢)] أو تَنْدَقَّا

فحمل عليه حمزة بن عبد المطلب فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه، حتى وصلت إلى سرته، فبانت رئته.

ثم رفع اللواء أبو سعد بن أبى طلحة، فرماه سعد بن أبى وقاص بسهم أصاب حنجرته، فأُدْلِعَ[(٣)] لسانُهُ ومات لحينه. وقيل: بل خرج أبو سعد يدعو إلى البراز، فتقدم إليه على بن أبى طالب، فاختلفا ضربتين، فضربه على فقتله.

ثم رفع اللواء مُسَافع بن طلحة بن أبى طلحة، فرماه عاصم بن ثابت بن أبى الأفْلَح بسهم فقتله، فحمل اللواء بعده أخوه كِلاَب بن طلحة بن أبى طلحة، فانقض عليه الزبير ابن العوام وقاتله حتى قتله، ثم حمل اللواء أخوهما الجُلاَس بن طلحة بن أبى طلحة، فطعنه طلحة بن عبيد الله طعنة قضت على حياته. وقيل: بل رماه عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح بسهم فقضى عليه.

---

(١) ذكره صاحب السيرة الحلبية ٢ / ١٨.

(٢) الصعدة: القناة.

(٣) خرج.

هؤلاء ستة نفر من بيت واحد، بيت أبى طلحة عبد الله بن عثمان بن عبد الدار، قتلوا جميعًا حول لواء المشركين، ثم حمله من بنى عبد الدار أرطاة بن شُرَحْبِيل، فقتله على بن أبى طالب، وقيل: حمزة بن عبد المطلب، ثم حمله شُرَيح بن قارظ فقتله قُزْمَان - وكان منافقًا قاتل مع المسلمين حمية، لا عن الإسلام - ثم حمله أبو زيد عمرو بن عبد مناف العبدرى، فقتله قزمان أيضًا، ثم حمله ولد لشرحبيل بن هاشم العبدرى فقتله قزمان أيضًا.

فهؤلاء عشرة من بنى عبد الدار - من حملة اللواء - أبيدوا عن آخرهم، ولم يبق منهم أحد يحمل اللواء. فتقدم غلام لهم حبشى - اسمه صُؤَاب - فحمل اللواء، وأبدى من صنوف الشجاعة والثبات ما فاق به مواليه من حملة اللواء الذين قتلوا قبله، فقد قاتل حتى قطعت يداه، فبرك على اللواء بصدره وعنقه؛ لئلا يسقط، حتى قتل وهو يقول: اللهم هل أعزرت؟ يعنى هل أعذرت؟.

وبعد أن قتل هذا الغلام - صُؤاب - سقط اللواء على الأرض، ولم يبق أحد يحمله، فبقى ساقطًا.

القتال فى بقية النقاط:

وبينما كان ثقل المعركة يدور حول لواء المشركين كان القتال المرير يجرى فى سائر نقاط المعركة، وكانت روح الإيمان قد سادت صفوف المسلمين، فانطلقوا خلال جنود الشرك انطلاق الفيضان تتقطع أمامه السدود، وهم يقولون: (أمت، أمت) كان ذلك شعارًا لهم يوم أحد.

أقبل أبو دُجَانة معلمًا بعصابته الحمراء، آخذًا بسيف رسول الله ﷺ، مصممًا على أداء حقه، فقاتل حتى أمعن فى الناس، وجعل لا يلقى مشركًا إلا قتله، وأخذ يهد صفوف المشركين هدًا. قال الزبير بن العوام: وجدت فى نفسى حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه، وأعطاه أبا دجانة، وقلت - أى فى نفسى: أنا ابن صفية عمته، ومن قريش، وقد قمت إليه، فسألته إياه قبله فآتاه إياه وتركنى، والله لأنظرن ما يصنع؟ فاتبعته، فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، فخرج وهو يقول:

أنـا الـذى عـاهـدنـى خليلى ... ونـحـن بالسَّفْح لـدى النَّخِيل
ألا أقـوم الـدَّهْـرَ فى الـكَـيُّـول[1] ... أضْـرِبْ بسَيْف الله والـرسـول

(١) الكَيُّول: آخر الصفوف، يعنى: أنه لا يقاتل فى مؤخرة الصفوف، بل يظل أبدًا فى المقدمة.

فجعل لا يلقى أحدًا إلا قتله، وكان فى المشركين رجل لا يدع لنا جريحًا إلا ذَفَّفَ عليه[(١)]، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا، فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته، فَعَضَّتْ بسيفه، فضربه أبو دجانة فقتله[(٢)].

ثم أمعن أبو دجانة فى هدِّ الصفوف، حتى خلص إلى قائدة نسوة قريش، وهو لا يدرى بها. قال أبو دجانة: رأيت إنسانًا يخْمِش[(٣)] الناس خمشًا شديدًا، فصمدت له[(٤)]، فلما حملت عليه السيف ولَوْلَ، فإذا امرأة، فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة.

وكانت تلك المرأة هى هند بنت عتبة. قال الزبير بن العوام: رأيت أبا دجانة قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة، ثم عدل السيف عنها، فقلت: الله ورسوله أعلم[(٥)].

وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتال الليوث المهتاجة، فقد اندفع إلى قلب جيش المشركين يغامر مغامرة منقطعة النظير، ينكشف عنه الأبطال كما تتطاير الأوراق أمام الرياح الهوجاء، فبالإضافة إلى مشاركته الفعالة فى إبادة حاملى لواء المشركين فعل الأفاعيل بأبطالهم الآخرين، حتى صرع وهو فى مقدمة المبرزين، ولكن لا كما تصرع الأبطال وجهًا لوجه فى ميدان القتال، وإنما كما يغتال الكرام فى حلك الظلام.

مصرع أسد الله حمزة بن عبد المطلب:

يقول قاتل حمزة وحْشِى بن حرب: كنت غلامًا لجبير بن مُطْعِم، وكان عمه طُعَيْمَة ابن عدى قد أصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحد قال لى جبير: إنك إن قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق. قال: فخرجت مع الناس - وكنت رجلًا حبشيًّا أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلما أخطئ بها شيئًا - فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره، حتى رأيته فى عرض الناس مثل الجمل الأوْرَق، يهُدُّ الناس هدًّا ما يقوم له شيء. فوالله إنى لأتهيأ له أريده، فأستتر منه بشجرة أو حجر ليدنو منى إذ تقدمنى إليه سِبَاع بن عبد العزى، فلما رآه حمزة قال له: هلم إلىّ يابن مُقَطِّعَة البُظُور - وكانت أمه ختانة - قال: فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه[(٦)].

---

(١) أجهز عليه وأسرع قتله.
(٢) ابن هشام ٢/ ٦٨، ٦٩.
(٣) يشجع على القتال.
(٤) قصدت نحوه.
(٥) ابن هشام ٢/ ٦٩.
(٦) أخطأ رأسه: يقال عند المبالغة فى الإصابة.

قال: وهززت حربتى حتى إذا رضيت منها دفعتها إليه، فوقعت فى ثُنَّتِه - أحشائه - حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوى فَغُلِبَ، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتى، ثم رجعت إلى العسكر فقعدت فيه، ولم يكن لى بغيره حاجة، وإنما قتلته لأعتق، فلما قدمت مكة عتقت[١].

السيطرة على الموقف:

وبرغم هذه الخسارة الفادحة التى لحقت المسلمين بقتل أسد الله وأسد رسوله حمزة ابن عبد المطلب، ظل المسلمون مسيطرين على الموقف كله. فقد قاتل يومئذ أبو بكر، وعمر ابن الخطاب، وعلى بن أبى طالب، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الله بن جحش، وسعد بن معاذ، وسعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر وأمثالهم قتالًا فَلَّ عزائم المشركين، وفتَّ فى أعضادهم.

من أحضان المرأة إلى مقارعة السيوف والدرقة:

وكان من الأبطال المغامرين يومئذ حَنْظَلة الغَسِيل - وهو حنظلة بن أبى عامر، وأبو عامر هذا هو الراهب الذى سمى بالفاسق، والذى مضى ذكره قريبًا - كان حنظلة حديث عهد بالعُرْس، فلما سمع هواتف الحرب وهو على امرأته انخلع من أحضانها، وقام من فوره إلى الجهاد، فلما التقى بجيش المشركين فى ساحة القتال أخذ يشق الصفوف حتى خلص إلى قائد المشركين أبى سفيان صخر بن حرب، وكاد يقضى عليه لولا أن أتاح الله له الشهادة، فقد شد على أبى سفيان، فلما استعلاه وتمكن منه رآه شداد بن الأسود فضربه حتى قتله.

نصيب فصيلة الرماة فى المعركة:

وكانت للفصيلة التى عينها الرسول ﷺ على جبل الرماة يد بيضاء فى إدارة دفة القتال لصالح الجيش الإسلامى، فقد هجم فرسان مكة بقيادة خالد بن الوليد يسانده أبو عامر الفاسق ثلاث مرات؛ ليحطموا جناح الجيش الإسلامى الأيسر، حتى يتسربوا إلى ظهور المسلمين، فيحدثوا البلبلة والارتباك فى صفوفهم وينزلوا عليهم هزيمة ساحقة، ولكن هؤلاء الرماة رشقوهم بالنبل حتى فشلت هجماتهم الثلاث[٢].

---

(١) ابن هشام ٢/ ٦٩- ٧٢، صحيح البخارى ٢/ ٥٨٣- أسلم وحشى هذا بعد معركة الطائف، وقتل مسيلمة الكذاب بحربته تلك، وشهد اليرموك ضد الرومان.

(٢) انظر: فتح البارى ٧/ ٣٤٦.

الهزيمة تنزل بالمشركين:

هكذا دارت رحى الحرب الزُّبُون، وظل الجيش الإسلامى الصغير مسيطرًا على الموقف كله حتى خارت عزائم أبطال المشركين، وأخذت صفوفهم تتبدد عن اليمين والشمال والأمام والخلف، كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم لا بضع مئات قلائل، وظهر المسلمون فى أعلى صور الشجاعة واليقين.

وبعد أن بذلت قريش أقصى جهدها لسد هجوم المسلمين أحست بالعجز والخور، وانكسرت همتها - حتى لم يجترئ أحد منها أن يدنو من لوائها الذى سقط بعد مقتل صُؤاب فيحمله ليدور حوله القتال - فأخذت فى الانسحاب، ولجأت إلى الفرار، ونسيت ما كانت تتحدث به فى نفوسها من أخذ الثأر والوتر والانتقام، وإعادة العز والمجد والوقار.

قال ابن إسحاق: ثم أنزل الله نصره على المسلمين، وصدقهم وعده، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر، وكانت الهزيمة لاشك فيها.

روى عبد الله بن الزبير عن أبيه أنه قال: والله لقد رأيتنى أنظر إلى خَدَم - سوق - هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير... إلخ[١].

وفى حديث البراء بن عازب عند البخارى فى الصحيح: فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن فى الجبل، يرفعن سوقهن قد بدت خلاخيلهن[٢]. وتبع المسلمون المشركين يضعون فيهم السلاح وينتهبون الغنائم.

غلطة الرماة الفظيعة:

وبينما كان الجيش الإسلامى الصغير يسجل مرة أخرى نصرًا ساحقًا على أهل مكة لم يكن أقل روعة من النصر الذى اكتسبه يوم بدر، وقعت من أغلبية فصيلة الرماة غلطة فظيعة قلبت الوضع تمامًا، وأدت إلى إلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين، وكادت تكون سببًا فى مقتل النبى ﷺ، وقد تركت أسوأ أثر على سمعتهم، وعلى الهيبة التى كانوا يتمتعون بها بعد بدر.

لقد أسلفنا نصوص الأوامر الشديدة التى أصدرها رسول الله ﷺ إلى هؤلاء الرماة، بلزومهم موقفهم من الجبل فى كل حال من النصر أو الهزيمة، ولكن على رغم هذه الأوامر المشددة لما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين ينتهبون غنائم العدو غلبت عليهم أثارة من حب الدنيا، فقال بعضهم لبعض: الغنيمة، الغنيمة، ظهر أصحابكم، فما تنتظرون؟

---

(١) ابن هشام ٢/ ٧٧.

(٢) صحيح البخارى ٢/ ٥٧٩.

أما قائدهم عبد الله بن جبير، فقد ذكرهم أوامر الرسول ﷺ، وقال: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟

ولكن الأغلبية الساحقة لم تلق لهذا التذكير بالًا، وقالت: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة[١]. ثم غادر أربعون رجلًا أو أكثر هؤلاء الرماة مواقعهم من الجبل، والتحقوا بسَوَاد الجيش ليشاركوه فى جمع الغنائم. وهكذا خلت ظهور المسلمين، ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة أو أقل من أصحابه والتزموا مواقفهم مصممين على البقاء حتى يؤذن لهم أو يبادوا.

خالد بن الوليد يقوم بخطة تطويق الجيش الإسلامى:

وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة الذهبية، فكرَّ بسرعة خاطفة إلى جبل الرماة ليدور من خلفه إلى مؤخرة الجيش الإسلامى، فلم يلبث أن أباد عبد الله بن جبير وأصحابه إلا البعض الذين لحقوا بالمسلمين، ثم انقض على المسلمين من خلفهم، وصاح فرسانه صيحة عرف بها المشركون المنهزمون بالتطور الجديد فانقلبوا على المسلمين، وأسرعت امرأة منهم - وهى عمرة بنت علقمة الحارثية - فرفعت لواء المشركين المطروح على التراب، فالتف حوله المشركون ولاثوا به، وتنادى بعضهم بعضًا، حتى اجتمعوا على المسلمين، وثبتوا للقتال، وأحيط المسلمون من الأمام والخلف، ووقعوا بين شِقَّى الرحى.

موقف الرسول الباسل إزاء عمل التطويق:

وكان رسول الله ﷺ حينئذ فى مفرزة صغيرة - تسعة نفر من أصحابه[٢] - فى مؤخرة المسلمين، كان يرقب مجالدة المسلمين[٣] ومطاردتهم المشركين؛ إذ بوغت بفرسان خالد مباغتة كاملة، فكان أمامه طريقان: إما أن ينجو - بالسرعة - بنفسه وبأصحابه التسعة إلى ملجأ مأمون، ويترك جيشه المطوق إلى مصيره المقدور، وإما أن يخاطر بنفسه فيدعو أصحابه ليجمعهم حوله، ويتخذ بهم جبهة قوية يشق بها الطريق لجيشه المطوق إلى هضاب أحد.

وهناك تجلت عبقرية الرسول ﷺ وشجاعته المنقطعة النظير، فقد رفع صوته ينادى أصحابه: «**إلى عباد الله**»، وهو يعرف أن المشركين سوف يسمعون صوته قبل أن يسمعه

---

(١) روى ذلك البخارى من حديث البراء بن عازب ١/ ٤٢٦.

(٢) فى صحيح مسلم (٢/ ١٠٧) أنه ﷺ أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش.

(٣) يدل عليه قوله تعالى:] ¢ £ ¤ ¥ Z.

المسلمون، ولكنه ناداهم ودعاهم مخاطرًا بنفسه فى هذا الظرف الدقيق.

وفعلًا فقد علم به المشركون فخلصوا إليه، قبل أن يصل إليه المسلمون.

تبدد المسلمين فى الموقف:

أما المسلمون فلما وقعوا فى التطويق طار صواب طائفة منهم، فلم تكن تهمها إلا أنفسها، فقد أخذت طريق الفرار، وتركت ساحة القتال، وهى لا تدرى ماذا وراءها؟ وفر من هذه الطائفة بعضهم إلى المدينة حتى دخلها، وانطلق بعضهم إلى ما فوق الجبل.

ورجعت طائفة أخرى فاختلطت بالمشركين، والتبس العسكران فلم يتميزا، فوقع القتل فى المسلمين بعضهم من بعض. روى البخارى عن عائشة قالت: لما كان يوم أحد هزم المشركون هزيمة بينة، فصاح إبليس: أى عباد الله أخراكم - أى احترزوا من ورائكم - فرجعت أولاهم فاجتلدت هى وأخراهم، فبصر حذيفة، فإذا هو بأبيه اليمان، فقال: أى عباد الله أبى أبى. قالت: فوالله ما احتجزوا عنه حتى قتلوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم. قال عروة: فوالله ما زالت فى حذيفة بقية خير حتى لحق بالله[١].

وهذه الطائفة حدث داخل صفوفها ارتباك شديد، وعمتها الفوضى، وتاه منها الكثيرون؛لا يدرون أين يتوجهون، وبينما هم كذلك إذ سمعوا صائحًا يصيح: إن محمدًا قد قتل، فطارت بقية صوابهم، وانهارت الروح المعنوية أو كادت تنهار فى نفوس كثير من أفرادها، فتوقف من توقف منهم عن القتال، وألقى بأسلحته مستكينًا، وفكر آخرون فى الاتصال بعبد الله بن أبى - رأس المنافقين - ليأخذ لهم الأمان من أبى سفيان. ومر بهؤلاء أنس بن النضر، وقد ألقوا ما بأيديهم فقال: ما تنتظرون؟ فقالوا: قتل رسول الله ﷺ، قال: ما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثم قال: اللهم إنى أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعنى المسلمين، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعنى المشركين، ثم تقدم فلقيه سعد بن معاذ، فقال: أين يا أبا عمر؟ فقال أنس: واها لريح الجنة يا سعد، إنى أجده دون أحد، ثم مضى فقاتل القوم حتى قتل، فما عرف حتى عرفته أخته - بعد نهاية المعركة - ببنانه، وبه بضع وثمانون ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم[٢].

---

(١) صحيح البخارى ١/ ٥٣٩، ٢/ ٥٨١، وفتح البارى ٧/ ٣٥١، ٣٦٢، ٣٦٣ وذكر غير البخارى أن رسول الله ﷺ أراد أن يديه. فقال حذيفة: تصدقت بديته على المسلمين، فزاد ذلك حذيفة خيرا عند النبي ﷺ.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٩٣، ٩٦، صحيح البخارى ٢/ ٥٧٩.

ونادى ثابت بن الدَحْدَاح قومه فقال: يا معشر الأنصار، إن كان محمد قد قتل، فإن الله حى لا يموت، قاتلوا على دينكم، فإن الله مظفركم وناصركم. فنهض إليه نفر من الأنصار، فحمل بهم على كتيبة فرسان خالد، فما زال يقاتلهم حتى قتله خالد بالرمح، وقتل أصحابه[١].

ومر رجل من المهاجرين برجل من الأنصار، وهو يتَشَحَّطُ فى دمه، فقال: يا فلان، أشعرت أن محمدًا قد قتل؟ فقال الأنصارى: إن كان محمد قد قتل فقد بَلَّغ، فقاتلوا عن دينكم[٢].

وبمثل هذا الاستبسال والتشجيع عادت إلى جنود المسلمين روحهم المعنوية، ورجع إليهم رشدهم وصوابهم، فعدلوا عن فكرة الاستسلام أو الاتصال بابن أبى، وأخذوا سلاحهم، يهاجمون تيارات المشركين، وهم يحاولون شق الطريق إلى مقر القيادة، وقد بلغهم أن خبر مقتل النبى ﷺ كذب مُخْتَلَق، فزادهم ذلك قوة على قوتهم، فنجحوا فى الإفلات عن التطويق، وفى التجمع حول مركز منيع، بعد أن باشروا القتال المرير، وجالدوا بضراوة بالغة.

وكانت هناك طائفة ثالثة لم يكن يهمهم إلا رسول الله ﷺ. فقد كرت هذه الطائفة إلى رسول الله ﷺ، وعمل التطويق فى بدايته، وفى مقدمة هؤلاء أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب وغيرهم - رضي الله عنهم - كانوا فى مقدمة المقاتلين، فلما أحسوا بالخطر على ذاته الشريفة - عليه الصلاة والسلام والتحية - صاروا فى مقدمة المدافعين.

احتدام القتال حول رسول الله:

وبينما كانت تلك الطوائف تتلقى أواصر التطويق، وتطحن بين شِقَّى رَحَى المشركين، كان العراك محتدمًا حول رسول الله ﷺ، وقد ذكرنا أن المشركين لما بدءوا عمل التطويق لم يكن مع رسول الله ﷺ إلا تسعة نفر، فلما نادى المسلمين: «**هلموا إلى، أنا رسول الله**»، سمع صوته المشركون وعرفوه، فكروا إليه وهاجموه، ومالوا إليه بثقلهم قبل أن يرجع إليه أحد من جيش المسلمين، فجرى بين المشركين وبين هؤلاء النفر التسعة من الصحابة عراك عنيف ظهرت فيه نوادر الحب والتفانى والبسالة والبطولة.

روى مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أفرد يوم أحد فى سبعة من الأنصار

(١) السيرة الحلبية ٢/ ٢٢.
(٢) زاد المعاد ٢/ ٩٦.

ورجلين من قريش، فلما رهقوه قال: «**من يردهم عنا وله الجنة؟ أو هو رفيقى فى الجنة؟**» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ثم رهقوه أيضًا فقال: «**من يردهم عنا وله الجنة، أو هو رفيقى فى الجنة؟**» فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل، فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ لصاحبيه - أى القرشيين: «**ما أنصفنا أصحابنا**»[١].

وكان آخر هؤلاء السبعة هو عمارة بن يزيد بن السَّكَن، قاتل حتى أثبتته الجراحة فسقط[٢].

أحرج ساعة فى حياة الرسول ﷺ:

وبعد سقوط ابن السكن بقى الرسول فى القرشيين فقط، ففى الصحيحين عن أبى عثمان قال: لم يبق مع النبى ﷺ فى بعض تلك الأيام التى يقاتل فيهن غير طلحة بن عبيد الله وسعد (بن أبى وقاص)[٣]، وكانت أحرج ساعة بالنسبة إلى حياة رسول الله ﷺ، وفرصة ذهبية بالنسبة إلى المشركين، ولم يتوان المشركون فى انتهاز تلك الفرصة، فقد ركزوا حملتهم على النبى ﷺ، وطمعوا فى القضاء عليه، رماه عتبة بن أبى وقاص بالحجارة فوقع لشقه، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وكُلِمَتْ شفته السفلى، وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهرى فَشَجَّه فى جبهته، وجاء فارس عنيد هو عبد الله بن قَمِئَة، فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة شكا لأجلها أكثر من شهر إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين، ثم ضرب على وجنته ﷺ ضربة أخرى عنيفة كالأولى حتى دخلت حلقتان من حلق المِغْفَر فى وجْنَتِه، وقال: خذها وأنا ابن قمئة. فقال رسول الله ﷺ وهو يمسح الدم عن وجهه: «**أقمأك الله**»[٤].

وفى الصحيح: أنه ﷺ كسرت رَبَاعِيَته، وشُجَّ فى رأسه، فجعل يَسْلُتُ الدم عنه ويقول: «**كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله**»، فأنزل الله عز

---

(١) صحيح مسلم: باب غزوة أحد ٢/ ١٠٧.

(٢) وبعد لحظة فاءت إلى رسول الله ﷺ فئة من المسلمين فأجهضوا الكفار عن عمارة، وأدنوه من رسول الله ﷺ فوسده قدمه، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ. (ابن هشام ٢/ ٨١).

(٣) صحيح البخارى ١/ ٥٢٧، ٢/ ٥٨١.

(٤) وقد سمع الله دعاء رسوله ﷺ، فعن ابن عائذ أن ابن قمئة «انصرف إلى أهله فخرج إلى غنمه فوافاها على ذروة جبل فدخل فيها، فشد عليه تيسها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع (فتح البارى ٧/ ٣٧٣) وعند الطبرانى: فسلط الله عليه تيس جبل، فلم يزل ينطحه حتى قطعه قطعة قطعة (فتح البارى ٧/ ٣٦٦). و«أقمأك الله»: أذلك الله.

وجل:] لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ Z [آل عمران][(١)].

وفى رواية الطبرانى أنه قال يومئذ: «**اشتد غضب الله على قوم دموا وجه رسوله**»، ثم مكث ساعة ثم قال: «**اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون**»[(٢)]، وفى صحيح مسلم أنه قال: «**رب اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون**»[(٣)]، وفى الشفاء للقاضى عياض أنه قال: «**اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون**»[(٤)].

ولا شك أن المشركين كانوا يهدفون القضاء على حياة رسول الله ﷺ إلا أن القرشيين سعد ابن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله قاما ببطولة نادرة، وقاتلا ببسالة منقطعة النظير، حتى لم يتركا - وهما اثنان فحسب - سبيلاً إلى نجاح المشركين فى هدفهم، وكانا من أمهر رماة العرب، فتناضلا حتى أجهضا مفرزة المشركين عن رسول الله ﷺ.

فأما سعد بن أبى وقاص، فقد نثل له رسول الله ﷺ كنانته وقال: «**ارم فداك أبى وأمى**»[(٥)]. ويدل على مدى كفاءته: أن النبى ﷺ لم يجمع أبويه لأحد غير سعد[(٦)].

وأما طلحة بن عبيد الله، فقد روى النسائى عن جابر قصة تَجَمُّع المشركين حول رسول الله ﷺ ومعه نفر من الأنصار، قال جابر: فأدرك المشركون رسول الله ﷺ فقال: «**من للقوم؟**» فقال طلحة: أنا، ثم ذكر جابر تقدم الأنصار، وقتلهم واحدًا بعد واحد، بنحو ما ذكرنا من رواية مسلم، فلما قتل الأنصار كلهم تقدم طلحة. قال جابر: ثم قاتل طلحة قتال الأحد عشر حتى ضربت يده فقطعت أصابعه، فقال: حَسِّ، فقال النبى ﷺ: «**لو قلت: بسم الله، لرفعتك الملائكة والناس ينظرون**»، قال: ثم رد الله المشركين[(٧)]. ووقع عند الحاكم فى الإكليل أنه جرح يوم أحد تسعًا وثلاثين أو خمسًا وثلاثين، وشلت إصبعه، أى: السبابة والتى تليها[(٨)].

وروى البخارى عن قيس بن أبى حازم قال: رأيت يد طلحة شلاء، وقى بها النبى ﷺ يوم أحد[(٩)].

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٥٨٢، وصحيح مسلم ٢/ ١٠٨.
(٢) فتح البارى ٧/ ٣٧٣.
(٣) صحيح مسلم: باب غزوة أحد ٢/ ١٠٨.
(٤) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ٨١.
(٦،٥) صحيح البخارى ١ / ٤٠٧، ٢/ ٥٨٠، ٥٨١.
(٧) فتح البارى ٧/ ٣٦١، وسنن النسائى ٢/ ٥٢. و «حَسِّ» تقال عند التوجع.
(٨) المصدر الأول نفسه ٧/ ٣٦١.
(٩) صحيح البخارى ١/ ٥٢٧، ٥٨١.

وروى الترمذى وابن ماجه أن النبى ﷺ قال فيه يومئذ: «**من أحب أن ينظر إلى شهيد يمشى على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله**»[١].

وروى أبو داود الطيالسى عن عائشة قالت: كان أبوبكر إذا ذكر يوم أحد قال: ذلك اليوم كله لطلحة[٢].

وقال فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه أيضًا:

يا طلحة بن عبيد الله قد وَجَبَتْ لك الجنان وبُوِّئتَ المَهَا العِينَا[٣]

وفى ذلك الظرف الدقيق والساعة الحرجة أنزل الله نصره بالغيب، ففى الصحيحين عن سعد، قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد، ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد. وفى رواية: يعنى جبريل وميكائيل[٤].

بداية تجمع الصحابة حول الرسول ﷺ:

وقعت هذه كلها بسرعة هائلة فى لحظات خاطفة، وإلا فالمصطفون الأخيار من صحابته ﷺ- الذين كانوا فى مقدمة صفوف المسلمين عند القتال - لم يكادوا يرون تغير الموقف، أو يسمعوا صوته ﷺ حتى أسرعوا إليه ؛ لئلا يصل إليه شىء يكرهونه، إلا أنهم وصلوا وقد لقى رسول الله ﷺ ما لقى من الجراحات - وستة من الأنصار قد قتلوا والسابع قد أثبتته الجراحات، وسعد وطلحة يكافحان أشد الكفاح - فلما وصلوا أقاموا حوله سياجًا من أجسادهم وسلاحهم، وبالغوا فى وقايته من ضربات العدو، ورد هجماته. وكان أول من رجع إليه هو ثانيه فى الغار أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

روى ابن حبان فى صحيحه عن عائشة قالت: قال أبو بكر الصديق: لما كان يوم أحد انصرف الناس كلهم عن النبى ﷺ، فكنت أول من فاء إلى النبى ﷺ، فرأيت بين يديه رجلًا يقاتل عنه ويحميه، قلت: كن طلحة، فداك أبى وأمى، كن طلحة، فداك أبى وأمى، (حيث فاتنى ما فاتنى، فقلت: يكون رجل من قومى أحب إلي)[٥]، فلم أنشب أن أدركنى أبو عبيدة بن الجراح، وإذا هو يشتد كأنه طير حتى لحقنى، فدفعنا إلى النبى ﷺ، فإذا طلحة بين يديه صريعًا، فقال النبى ﷺ: «**دونكم أخاكم فقد أوجب**»، وقد رمى النبى ﷺ فى وَجْنَتِهِ

(١) الترمذى: مناقب، ح (٣٧٤٠)، وابن ماجه: المقدمة ح (١٢٥).
(٢) فتح البارى ٧/ ٣٦١.
(٣) مختصر تاريخ دمشق ٧/ ٨٢. والعينُ: بقر الوحش.
(٤) صحيح البخارى ٢/ ٥٨٠، ونحوه عند مسلم: الفضائل ٤/ ١٠٨٢، ح (٤٦، ٤٧).
(٥) من تهذيب تاريخ دمشق ٧/ ٧٧.

حتى غابت حلقتان من حلق المِغْفَر فى وجنته، فذهبت لأنزعهما عن النبى ﷺ فقال أبو عبيدة: نشدتك بالله يا أبا بكر، إلا تركتنى، قال: فأخذ بفيه فجعل ينَضِّضه كراهية أن يؤذى رسول الله ﷺ، ثم استل السهم بفيه، فنَدَرَت ثنية أبى عبيدة، قال أبو بكر: ثم ذهبت لآخذ الآخر، فقال أبو عبيدة: نشدتك بالله يا أبا بكر، إلا تركتنى، قال: فأخذه فجعل ينضضه حتى اسْتَلَّه، فندرت ثنية أبى عبيدة الأخرى، ثم قال رسول الله ﷺ: «**دونكم أخاكم، فقد أوجب**»، قال: فأقبلنا على طلحة نعالجه، وقد أصابته بضع عشرة ضربة[(١)].

وفى تهذيب تاريخ دمشق[(٢)]: فأتيناه فى بعض تلك الحفار فإذا به بضع وستون أو أقل أو أكثر، بين طعنة ورمية وضربة، وإذا قد قطعت إصبعه، فأصلحنا من شأنه.

وخلال هذه اللحظات الحرجة اجتمع حول النبى ﷺ عصابة من أبطال المسلمين منهم أبو دُجَانة، ومصعب بن عمير، وعلى بن أبى طالب[(٣)]، وسهل بن حنيف، ومالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى، وأم عمارة نُسَيْبة بنت كعب المازنية، وقتادة بن النعمان، وعمر بن الخطاب، وحاطب بن أبى بلتعة، وأبو طلحة.

تضاعف ضغط المشركين:

كما كان عدد المشركين يتضاعف كل آن، وبالطبع فقد اشتدت حملاتهم وزاد ضغطهم على المسلمين، حتى سقط رسول الله ﷺ فى حفرة من الحفر التى كان أبو عامر الفاسق يكيد بها، فجُحِشَتْ ركبته، وأخذه على بيده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائمًا، وقال نافع ابن جبير: سمعت رجلًا من المهاجرين يقول: شهدت أحدًا فنظرت إلى النبل يأتى من كل ناحية، ورسول الله ﷺ وسطها، كل ذلك يصرف عنه، ولقد رأيت عبد الله ابن شهاب الزهرى يقول يومئذ: دلونى على محمد، فلا نجوت إن نجا، ورسول الله ﷺ إلى جنبه، ما معه أحد، ثم جاوزه، فعاتبه فى ذلك صفوان، فقال: والله ما رأيته، أحلف بالله إنه منا ممنوع، خرجنا أربعة، فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله، فلم نخلص إلى ذلك[(٤)].

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٩٥.

(٢) ٧/ ٧٨.

(٣) قال على بن أبى طالب: لما انجلى الناس عن رسول الله ﷺ يوم أحد نظرت القتلى فلم أر رسول الله ﷺ، فقلت: والله ما كان ليفر، وما أراه فى القتلى، ولكننى أرى الله غضب علينا بما صنعنا، فرفع نبيه ﷺ، فما فى خير من أن أقاتل حتى أقتل، فكسرت جَفْن سيفى، ثم حملت على القوم فأفرجوا لى، فإذا أنا برسول الله ﷺ بينهم. مسند أبى يعلى ١/ ٤١٦، ح (٥٤٦).

(٤) زاد المعاد: ٢/ ٩٧.

البطولات النادرة:

وقام المسلمون ببطولات نادرة وتضحيات رائعة، لم يعرف لها التاريخ نظيرًا. كان أبو طلحة يسور نفسه بين يدى رسول الله ﷺ، ويرفع صدره ليقيه سهام العدو. قال أنس: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبى ﷺ، وأبو طلحة بين يديه مجوب عليه بحجفة له، وكان رجلًا راميًا شديد النزع، كسر يومئذ قوسين أو ثلاثا، وكان الرجل يمر معه بجَعْبَة من النبل فيقول: «**انثرها لأبى طلحة**»، قال: ويشرف النبى ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: بأبى أنت وأمى لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نَحْرِى دون نحرك[١].

وعنه أيضًا قال: كان أبو طلحة يترس مع النبى ﷺ بترس واحد، وكان أبو طلحة حسن الرَّمْى، فكان إذا رمى تشرف النبى ﷺ، فينظر إلى موقع نبله[٢].

وقام أبو دجانة أمام رسول الله ﷺ، فَتَرَّسَ عليه بظهره. والنبل يقع عليه وهو لا يتحرك.

وتبع حاطب بن أبى بلتعة عتبة بن أبى وقاص - الذى كسر الرَّباعية الشريفة - فضربه بالسيف حتى طرح رأسه، ثم أخذ فرسه وسيفه، وكان سعد بن أبى وقاص شديد الحرص على قتل أخيه - عتبة هذا - إلا أنه لم يظفر به، بل ظفر به حاطب.

وكان سهل بن حُنَيف أحد الرماة الأبطال، بايع رسول الله ﷺ على الموت، ثم قام بدور فعال فى ذود المشركين.

وكان رسول الله ﷺ يباشر الرماية بنفسه، فعن قتادة بن النعمان: أن رسول الله رمى عن قوسه حتى اندقت سِيتُها[٣]، فأخذها قتادة بن النعمان، فكانت عنده، وأصيبت يومئذ عينه حتى وقعت على وَجْنَتِه، فردها رسول الله ﷺ بيده، فكانت أحسن عينيه وأحَدَّهُما.

وقاتل عبد الرحمن بن عوف حتى أصيب فوه يومئذ فهُتِمَ، وجرح عشرين جراحة أو أكثر، أصابه بعضها فى رجله فعرج.

وامتص مالك بن سنان والد أبى سعيد الخدرى الدم من وجنته ﷺ حتى أنقاه، فقال: «**مُجَّه**»، فقال: والله لا أمجه، ثم أدبر يقاتل، فقال النبى ﷺ: «**من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا**»، فقتل شهيدًا.

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٥٨١.

(٢) المصدر نفسه ١/ ٤٠٦.

(٣) سيتها: ماعطف من طرفيها.

وقاتلت أم عمارة فاعترضت لابن قَمِئَة فى أناس من المسلمين، فضربها ابن قمئة على عاتقها ضربة تركت جرحًا أجوف، وضربت هى ابن قمئة عدة ضربات بسيفها، لكن كانت عليه درعان فنجا، وبقيت أم عمارة تقاتل حتى أصابها اثنا عشر جرحًا.

وقاتل مصعب بن عمير بضراوة بالغة، يدافع عن النبى ﷺ هجوم ابن قمئة وأصحابه، وكان اللواء بيده، فضربوه على يده اليمنى حتى قطعت، فأخذ اللواء بيده اليسرى، وصمد فى وجوه الكفار حتى قطعت يده اليسرى، ثم برك عليه بصدره وعنقه حتى قتل، وكان الذى قتله هو ابن قمئة، وهو يظنه رسول الله – لشبهه به – فانصرف ابن قمئة إلى المشركين، وصاح: إن محمدًا قد قتل[1].

إشاعة مقتل النبى ﷺ وأثره على المعركة:

ولم يمض على هذا الصياح دقائق، حتى شاع خبر مقتل النبى ﷺ فى المشركين والمسلمين. وهذا هو الظرف الدقيق الذى خارت فيه عزائم كثير من الصحابة المطوقين، الذين لم يكونوا مع رسول الله ﷺ، وانهارت معنوياتهم، حتى وقع داخل صفوفهم ارتباك شديد، وعمتها الفوضى والاضطراب، إلا أن هذه الصيحة خففت بعض التخفيف من مضاعفة هجمات المشركين ؛ لظنهم أنهم نجحوا فى غاية مرامهم، فاشتغل الكثير منهم بتمثيل قتلى المسلمين.

الرسول ﷺ يواصل المعركة وينقذ الموقف:

ولما قتل مصعب أعطى رسول الله اللواء على بن أبى طالب، فقاتل قتالًا شديدًا، وقامت بقية الصحابة الموجودين هناك ببطولاتهم النادرة، يقاتلون ويدافعون.

وحينئذ استطاع رسول الله ﷺ أن يشق الطريق إلى جيشه المطوق، فأقبل إليهم، فعرفه كعب بن مالك – وكان أول من عرفه – فنادى بأعلى صوته: يا معشر المسلمين أبشروا، هذا رسول الله ﷺ، فأشار إليه أن اصمت – وذلك لئلا يعرف موضعه المشركون – إلا أن هذا الصوت بلغ إلى آذان المسلمين، فلاذ إليه المسلمون حتى تجمع حوله حوالى ثلاثين رجلًا من الصحابة.

وبعد هذا التجمع أخذ رسول الله ﷺ فى الانسحاب المنظم إلى شعب الجبل، وهو يشق الطريق بين المشركين المهاجمين، واشتد المشركون فى هجومهم ؛ لعرقلة الانسحاب إلا

(١) انظر: ابن هشام ٢/ ٧٣، ٨٠-٨٣، وزاد المعاد ٢/ ٩٧.

أنهم فشلوا أمام بسالة ليوث الإسلام.

تقدم عثمان بن عبد الله بن المغيرة - أحد فرسان المشركين - إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: لا نجوت إن نجا. وقام رسول الله ﷺ لمواجهته، إلا أن الفرس عثرت فى بعض الحفر، فنازله الحارث ابن الصِّمَّة، فضرب على رجله فأقعده، ثم ذَفَّفَ عليه وأخذ سلاحه، والتحق برسول الله ﷺ.

وعطف عبد الله بن جابر - فارس آخر من فرسان مكة - على الحارث بن الصِّمَّة، فضرب بالسيف على عاتقه فجرحه حتى حمله المسلمون ولكن انقض أبو دجانة - البطل المغامر ذو العصابة الحمراء - على عبد الله بن جابر فضربه بالسيف ضربة أطارت رأسه.

وأثناء هذا القتال المرير كان المسلمون يأخذهم النعاس أمنة من الله، كما تحدث عنه القرآن. قال أبو طلحة: كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفى من يدى مرارًا، يسقط وآخذه ويسقط وآخذه[١].

وبمثل هذه البسالة بلغت هذه الكتيبة - فى انسحاب منظم - إلى شعب الجبل، وشق لبقية الجيش طريقًا إلى هذا المقام المأمون، فتلاحق به فى الجبل، وفشلت عبقرية خالد أمام عبقرية رسول الله ﷺ.

مقتل أبى بن خلف:

قال ابن إسحاق: فلما أسند رسول الله ﷺ فى الشعب أدركه أبى بن خلف وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا. فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: «دعوه»، فلما دنا منه تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، فلما أخذها منه انتفض انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعر عن ظهر البعير إذا انتفض، ثم استقبله وأبصر تَرْقُوَتَه من فرجة بين سابغة الدرع والبيضة، فطعنه فيها طعنة تدأدأ - تدحرج - منها عن فرسه مرارًا. فلما رجع إلى قريش وقد خدشه فى عنقه خدشًا غير كبير، فاحتقن الدم، قال: قتلنى والله محمد، قالوا له: ذهب والله فؤادك، والله إن بك من بأس، قال: إنه قد كان قال لى بمكة: «أنا أقتلك»[٢]، فوالله لو بصق على لقتلنى. فمات عدو الله بسَرِف وهم قافلون به إلى مكة. وفى رواية أبى الأسود عن عروة، وكذا فى رواية سعيد بن المسيب

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٥٨٢.

(٢) وذلك أن رسول الله ﷺ لما كان بمكة كان يلقاه أبى هذا، فيقول: يا محمد، إن عندى الْعَوْدَ فرسًا أعلفه كل يوم فرَقًا من ذُرَة أقتلك عليه، فيقول رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتلك إن شاء الله».

عن أبيه: أنه كان يخور خوار الثور، ويقول: والذى نفسى بيده، لو كان الذى بى بأهل ذى المجاز لماتوا جميعًا[(١)].

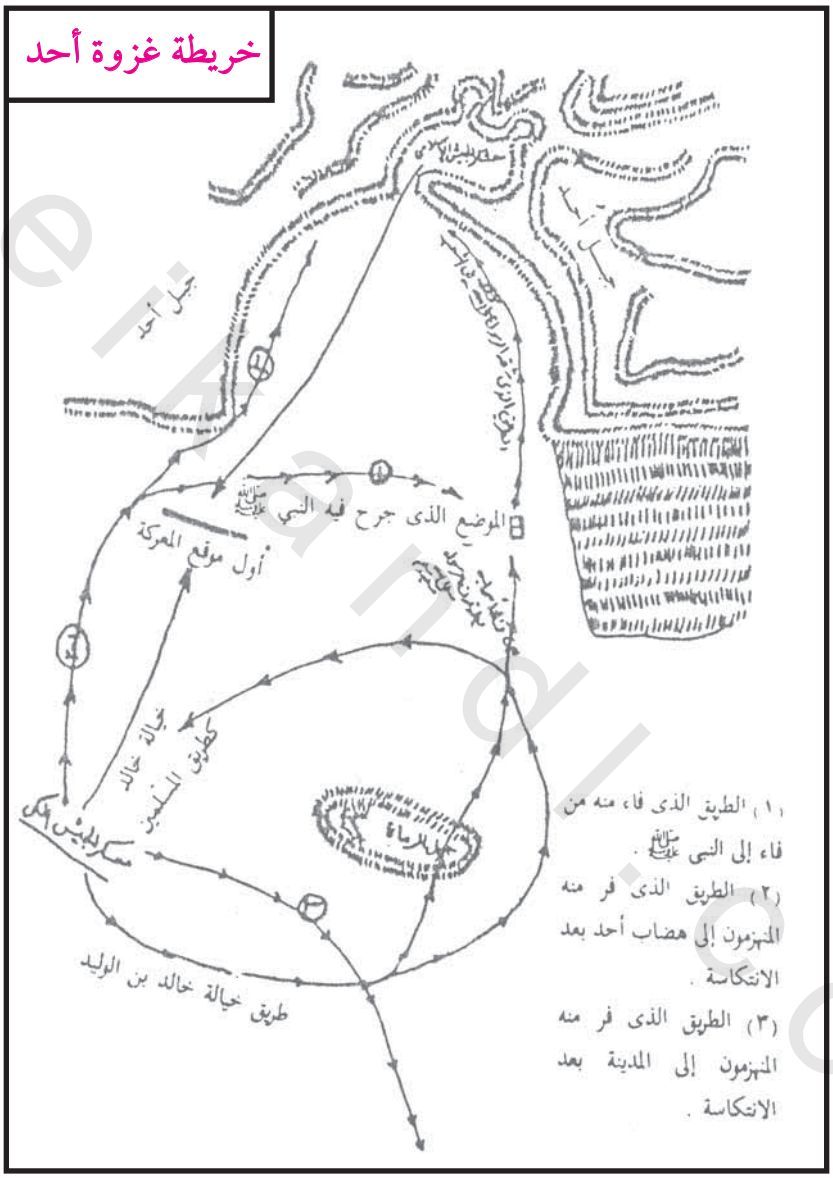

(١) ابن هشام ٢/ ٨٤، والمستدرك للحاكم ٢/ ٣٢٧.

طلحة ينهض بالنبى ﷺ:

وفى أثناء انسحاب رسول الله ﷺ إلى الجبل عرضت له صخرة من الجبل، فنهض إليها ليعلوها فلم يستطع ؛ لأنه كان قد بَدَّنَ وظاهر بين الدرعين، وقد أصابه جرح شديد. فجلس تحته طلحة بن عبيد الله، فنهض به حتى استوى عليها، وقال: «**أَوْجَبَ طلحةُ**»[١]، أى: الجنة.

آخر هجوم قام به المشركون:

ولما تمكن رسول الله ﷺ من مقر قيادته فى الشعب، قام المشركون بآخر هجوم حاولوا به النيل من المسلمين. قال ابن إسحاق: بينا رسول الله ﷺ فى الشعب إذ علت عالية من قريش الجبل - يقودهم أبو سفيان وخالد بن الوليد - فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم إنه لا ينبغى لهم أن يعلونا**»، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل[٢].

وفى مغازى الأموى: أن المشركين صعدوا على الجبل، فقال رسول الله ﷺ لسعد: «**اجْنُبْهُمْ**» - يقول: اردهم - فقال: كيف أَجْنُبُهُمْ وحدى؟ فقال ذلك ثلاثًا، فأخذ سعد سهمًا من كنانته، فرمى به رجلًا فقتله، قال: ثم أخذت سهمى أعرفه، فرميت به آخر، فقتلته، ثم أخذته أعرفه فرميت به آخر فقتلته، فهبطوا من مكانهم، فقلت: هذا سهم مبارك، فجعلته فى كنانتى. فكان عند سعد حتى مات، ثم كان عند بنيه[٣].

تشويه الشهداء:

وكان هذا آخر هجوم قام به المشركون ضد النبى ﷺ، ولما لم يكونوا يعرفون من مصيره شيئًا - بل كانوا على شبه اليقين من قتله - رجعوا إلى مقرهم، وأخذوا يتهيأون للرجوع إلى مكة، واشتغل من اشتغل منهم - وكذا اشتغلت نساؤهم - بقتلى المسلمين، يمثلون بهم، ويقطعون الآذان والأنوف والفروج، ويبقرون البطون. وبقرت هند بنت عتبة كبد حمزة فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها، واتخذت من الآذان والأنوف خَدَمًا - خلاخيل - وقلائد[٤].

---

(١) ابن هشام ٢/ ٨٦، ورواه الترمذى فى الجهاد، ح (١٦٩٢)، وفى المناقب، ح (٣٧٣٩)، وأحمد ١/ ١٦٥، وصححه الحاكم ٣/ ٣٧٤ ووافقه الذهبى. وظاهر بين الدرعين: لبس درعا فوق درع.

(٢) ابن هشام ٢/ ٨٦.

(٣) زاد المعاد ٢/ ٩٥.

(٤) ابن هشام ٢/ ٩٠.

مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال حتى نهاية المعركة:

وفى هذه الساعة الأخيرة وقعت وقعتان تدلان على مدى استعداد أبطال المسلمين للقتال، ومدى استماتتهم فى سبيل الله:

١- قال كعب بن مالك: كنت فيمن خرج من المسلمين، فلما رأيت تمثيل المشركين بقتلى المسلمين قمت فتجاوزت، فإذا رجل من المشركين جمع اللأمة يجوز المسلمين وهو يقول: استوسقوا كما استوسقت جزر الغنم[(١)]. وإذا رجل من المسلمين ينتظره وعليه لأمته، فمضيت حتى كنت من ورائه، ثم قمت أقدر المسلم والكافر ببصرى، فإذا الكافر أفضلهما عدة وهيئة، فلم أزل أنتظرهما حتى التقيا، فضرب المسلم الكافر ضربة فبلغت وركه وتفرق فرقتين، ثم كشف المسلم عن وجهه، وقال: كيف ترى يا كعب؟ أنا أبو دجانة[(٢)].

٢- جاءت نسوة من المؤمنين إلى ساحة القتال بعد نهاية المعركة، قال أنس: لقد رأيت عائشة بنت أبى بكر وأم سليم، وإنهما لمشمرتان - أرى خَدَم سوقهما - تَنْقُزَانِ[(٣)] القِرَبَ على متونهما، تفرغانه فى أفواه القوم[(٤)]، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه فى أفواه القوم. وقال عمر: كانت (أم سَلِيط من نساء الأنصار) تزفر لنا القرب يوم أحد[(٥)].

وكانت فى هؤلاء النسوة أم أيمن، لما رأت فلول المسلمين يريدون دخول المدينة، أخذت تحثو التراب فى وجوههم وتقول لبعضهم: هاك المغزل، وهلم سيفك. ثم سارعت إلى ساحة القتال، فأخذت تسقى الجرحى، فرماها حِبَّان - بالكسر - بن العَرِقَة بسهم، فوقعت وتكشفت، فأغرق عدو الله فى الضحك، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، فدفع إلى سعد بن بى وقاص سهمًا لا نصل له، وقال: «ارم به»، فرمى به سعد، فوقع السهم فى نحر حبان، فوقع مستلقيًا حتى تكشف، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، ثم قال: «استقاد لها سعد، أجاب الله دعوته»[(٦)].

بعد انتهاء الرسول ﷺ إلى الشعب:

ولما استقر رسول الله ﷺ فى مقره من الشِّعب خرج على أبى طالب حتى ملأ دَرَقَته

---

(١) أى: استجمعوا وانضموا.
(٢) البداية والنهاية ٤/ ١٧.
(٣) تحملان.
(٤) صحيح البخارى مع الفتح ٦/ ٩١ ح (٢٨٨، ٢٩٠٢، ٣٨١١، ٤٠٦٤).
(٥) المصدر نفسه مع الفتح ٦/ ٩٣ ح (٢٨٨١، ٤٠٧١).
(٦) السيرة الحلبية ٢/ ٢٢.

ماء من المِهْرَاس - قيل: هو صخرة منقورة تسع كثيرًا. وقيل: اسم ماء بأحد - فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه، فوجد له ريحًا فعافه، فلم يشرب منه، وغسل عن وجهه الدم، وصب على رأسه وهو يقول: «**اشتد غضب الله على من دَمَّى وجه نبيه**»[(١)].

وقال سهل: والله إنى لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ، ومن كان يسكب الماء، وبما دُووِى؟ كانت فاطمة ابنته تغسله، وعلى بن أبى طالب يسكب الماء بالمِجَنِّ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير، فأحرقتها، فألصقتها فاستمسك الدم[(٢)].

وجاء محمد بن مسلمة بماء عذب سائغ، فشرب منه النبى ﷺ ودعا له بخير[(٣)]. وصلى الظهر قاعدًا من أثر الجراح، وصلى المسلمون خلفه قعودا[(٤)].

شماتة أبى سفيان بعد نهاية المعركة وحديثه مع عمر:

ولما تكامل تهيؤ المشركين للانصراف أشرف أبو سفيان على الجبل، فنادى: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه. فقال: أفيكم ابن أبى قحافة؟ فلم يجيبوه. فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه - وكان النبى ﷺ منعهم من الإجابة - ولم يسأل إلا عن هؤلاء الثلاثة لعلمه وعلم قومه أن قيام الإسلام بهم. فقال: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله، إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله ما يسوءك. فقال: قد كان فيكم مثلة لم آمر بها ولم تسؤنى.

ثم قال: أعْلِ هُبَل.

فقال النبى ﷺ: «**ألا تجيبونه؟**» فقالوا: فما نقول؟ قال: «**قولوا: الله أعلى وأجل**».

ثم قال: لنا العُزَّى ولا عزى لكم.

فقال النبى ﷺ: «**ألا تجيبونه؟**» قالوا: ما نقول؟ قال: «**قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم**».

ثم قال أبو سفيان: أنْعَمْتَ فَعَال[(٥)]، يوم بيوم بدر، والحرب سِجَال.

فأجابه عمر، وقال: لاسواء، قتلانا فى الجنة، وقتلاكم فى النار.

---

(١) ابن هشام ٢/ ٨٥.
(٢) صحيح البخارى ٢/ ٥٨٤.
(٣) السيرة الحلبية ٢/ ٣٠.
(٤) ابن هشام ٢/ ٨٧.
(٥) أى: ارتفع.

ثم قال أبو سفيان: هلم إلى يا عمر، فقال رسول الله ﷺ: «**ائته فانظر ما شأنه؟**» فجاءه، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمدًا؟ قال عمر: اللهم لا. وإنه ليستمع كلامك الآن. قال: أنت أصدق عندى من ابن قَمِئَة وأبر[١].

مواعدة التلاقى فى بدر:

قال ابن إسحاق: ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إن موعدكم بدر العام القابل. فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: «**قل: نعم، هو بيننا وبينك موعد**»[٢].

التثبت من موقف المشركين:

ثم بعث رسول الله ﷺ على بن أبى طالب، فقال: «**اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون؟ وما يريدون؟ فإن كانوا قد جَنَبُوا الخيل، وامْتَطُوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن كانوا قد ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة. والذى نفسى بيده، لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها، ثم لأناجزنهم**». قال على: فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل، ووَجَّهُوا إلى مكة[٣].

تفقد القتلى والجرحى:

وفرغ الناس لتفقد القتلى والجرحى بعد منصرف قريش. قال زيد بن ثابت: بعثنى رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع. فقال لى: «**إن رأيته فأقرئه منى السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف تجدك؟**» قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فأتيته وهو بآخر رمق، فيه سبعون ضربة ؛ ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت: يا سعد، إن رسول الله يقرأ عليك السلام، ويقول لك: أخبرنى كيف تجدك؟ فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له، يا رسول الله، أجد ريح الجنة، وقل لقومى الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته[٤].

ووجدوا فى الجرحى الأُصَيرِم - عمرو بن ثابت - وبه رمق يسير، وكانوا من قبل

---

(١) ابن هشام ٢/ ٩٣، ٩٤، وزاد المعاد ٢/ ٩٤، وصحيح البخارى ٢/ ٥٧٩.

(٢) ابن هشام ٢/ ٩٤.

(٣) ابن هشام ٢/ ٩٤، وفى فتح البارى: أن الذى خرج فى آثار المشركين هو سعد بن أبى وقاص (٧/ ٣٤٧).

(٤) زاد المعاد ٢/ ٩٦.

يعرضون عليه الإسلام فيأباه، فقالوا: إن هذا الأصيرم ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه لمنكر لهذا الأمر، ثم سألوه: ما الذى جاء بك، أحَدَبٌ على قومك، أم رغبة فى الإسلام؟ فقال: بل رغبة فى الإسلام، آمنت بالله ورسوله، ثم قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابنى ما ترون، ومات من وقته، فذكروه لرسول الله ﷺ، فقال: «**هو من أهل الجنة**». قال أبو هريرة: ولم يُصَلِّ لله صلاة قط[١].

ووجدوا فى الجرحى قُزْمَان - وكان قد قاتل قتال الأبطال ؛ قتل وحده سبعة أو ثمانية من المشركين - وجدوه قد أثبتته الجراحة، فاحتملوه إلى دار بنى ظَفَر، وبشره المسلمون فقال: والله إن قاتلت إلا عن أحساب قومى، ولولا ذلك ما قاتلت، فلما اشتد به الجراح نحر نفسه. وكان رسول الله ﷺ يقول - إذا ذكر له: «**إنه من أهل النار**»[٢] - وهذا هو مصير المقاتلين فى سبيل الوطنية أو فى أى سبيل سوى إعلاء كلمة الله، وإن قاتلوا تحت لواء الإسلام، بل وفى جيش الرسول والصحابة.

وعلى عكس من هذا، كان فى القتلى رجل من يهود بنى ثعلبة، قال لقومه: يا معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم حق. قالوا: إن اليوم يوم السبت. قال: لا سبت لكم. فأخذ سيفه وعدته، وقال: إن أصبت فمالى لمحمد. يصنع فيه ما شاء، ثم غدا فقاتل حتى قتل. فقال رسول الله ﷺ: «**مُخَيرِيق خير يهود**»[٣].

جمع الشهداء ودفنهم:

وأشرف رسول الله ﷺ على الشهداء فقال: «**أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يُجْرَح فى الله إلا والله يبعثه يوم القيامة، يَدْمَى جُرْحُه، اللون لون الدم، والريح ريح المِسْك**»[٤].

وكان أناس من الصحابة قد نقلوا قتلاهم إلى المدينة فأمر أن يردوهم، فيدفنوهم فى مضاجعهم وألا يغسلوا، وأن يدفنوا كما هم بثيابهم بعد نزع الحديد والجلود. وكان يدفن الاثنين والثلاثة فى القبر الواحد، ويجمع بين الرجلين فى ثوب واحد، ويقول: «**أيهم أكثر أَخْذًا للقرآن؟**»، فإذا أشاروا إلى الرجل قدمه فى اللحد، وقال: «**أنا شهيد على هؤلاء يوم**

(١) زاد المعاد ٢/ ٩٤، وابن هشام ٢/ ٩٠.
(٢) المصدر الأول نفسه ٢/ ٩٧، ٩٨، وابن هشام ٢/ ٨٨.
(٣) ابن هشام ٢/ ٨٨، ٨٩.
(٤) المصدر نفسه ٢/ ٩٨.

القيامة»[١]. ودفن عبد الله بن عمرو ابن حرام وعمرو بن الجموح فى قبر واحد لما كان بينهما من المحبة[٢].

وفقدوا نعش حنظلة، فتفقدوه فوجدوه فى ناحية فوق الأرض يقطر منه الماء، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه أن الملائكة تغسله، ثم قال: «**سلوا أهله ما شأنه؟**» فسألوا امرأته، فأخبرتهم الخبر. ومن هنا سمى حنظلة: غسيل الملائكة[٣].

ولما رأى ما بحمزة - عمه وأخيه من الرضاعة - اشتد حزنه، وجاءت عمته صفية تريد أن تنظر أخاها حمزة، فأمر رسول الله ﷺ ابنها الزبير أن يصرفها، لا ترى ما بأخيها، فقالت: ولم؟ وقد بلغنى أن قد مُثِّلَ بأخى، وذلك فى الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله، فأتته فنظرت إليه، فصلت عليه - دعت له - واسترجعت واستغفرت له. ثم أمر رسول الله ﷺ بدفنه مع عبد الله بن جحش - وكان ابن أخته، وأخاه من الرضاعة.

قال ابن مسعود: ما رأينا رسول الله ﷺ باكيًا قط أشد من بكائه على حمزة بن عبد المطلب. وضعه فى القبلة، ثم وقف على جنازته وانتحب حتى نَشَع من البكاء[٤] - والنشع: الشهيق.

وكان منظر الشهداء مريعًا جدًّا يفتت الأكباد. قال خباب: إن حمزة لم يوجد له كفن إلا بردة مَلْحَاء، إذا جعلت على رأسه قَلَصَت عن قدميه، وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه، حتى مدت على رأسه، وجعل على قدميه الإِذْخَر[٥].

وقال عبد الرحمن بن عوف: قتل مصعب بن عمير وهو خير منى، كفن فى بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رجلاه بدا رأسه[٦]، وروى مثل ذلك عن خباب، وفيه: فقال لنا النبى ﷺ: «**غطوا بها رأسه، واجعلوا على رجليه الإذخر**»[٧].

---

(١) صحيح البخارى مع الفتح ٣/ ٢٤٨ ح (١٣٤٣، ١٣٤٦ - ١٣٤٨، ١٣٥٣، ٤٠٧٩).
(٢) صحيح البخارى ٢/ ٥٨٤، وزاد المعاد ٢/ ٩٨.
(٣) زاد المعاد ٢/ ٩٤.
(٤) رواه ابن شاذان، انظر: مختصر سيرة الرسول ﷺ للشيخ عبد الله النجدى، ص ٢٥٥.
(٥) رواه أحمد، مشكاة المصابيح ١ / ١٤٠. ملحاء: أى فيها خطوط سود وبيض.
(٦) صحيح البخارى مع الفتح ٣/ ١٦٨، ١٦٩، ح (١٢٧٤، ١٢٧٥، ٤٠٤٥).
(٧) صحيح البخارى ٢/ ٥٧٩، ٥٨٤، ط: الهند، ومع فتح البارى ٣/ ١٧٠، ح (١٢٧٦، ٣٨٩٧، ٣٩١٣، ٣٩١٤، ٤٠٤٧، ٤٠٨٢، ٦٤٣٢، ٦٤٤٨).

الرسول ﷺ يثنى على ربه عز وجل ويدعوه:

روى الإمام أحمد: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: «استووا حتى أثنى على ربى عز وجل»، فصاروا خلفه صفوفًا، فقال:

«اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادى لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قربت. اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك».

«اللهم إنى أسألك النعيم المقيم، الذى لا يحُول ولا يزول. اللهم إنى أسألك العون يوم العيلة، والأمن يوم الخوف. اللهم إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا. اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين. اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين. اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك. اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق»[(١)].

الرجوع إلى المدينة، ونوادر الحب والتفانى:

ولما فرغ رسول الله من دفن الشهداء والثناء على الله والتضرع إليه، انصرف راجعًا إلى المدينة، وقد ظهرت له نوادر الحب والتفانى من المؤمنات الصادقات، كما ظهرت من المؤمنين فى أثناء المعركة.

لقيته فى الطريق حَمْنَة بنت جحش، فنُعِى إليها أخوها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له، ثم نعى لها خالها حمزة بن عبد المطلب، فاسترجعت واستغفرت، ثم نعى لها زوجها مصعب بن عمير، فصاحت وولوت، فقال رسول الله ﷺ: «إن زوج المرأة منها لبِمَكان»[(٢)].

ومر بامرأة من بنى دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها بأحد، فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرًا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأشير إليها حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جَلَلٌ - تريد صغيرة[(٣)].

---

(١) رواه البخارى فى الأدب المفرد، ح ٦٩٩، والإمام أحمد فى مسنده ٣/ ٤٢٤.

(٢) ابن هشام ٢/ ٩٨.

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٩٩.

وجاءت إليه أم سعد بن معاذ تعدو، وسعد آخذ بلجام فرسه، فقال: يا رسول الله، أمى، فقال: «**مرحبًا بها**»، ووقف لها، فلما دنت عزاها بابنها عمرو بن معاذ. فقالت: أما إذ رأيتك سالمًا فقد اشتويت المصيبة - أى استقللتها - ثم دعا لأهل من قتل بأحد، وقال: «**يا أم سعد، أبشرى وبشرى أهلهم أن قتلاهم ترافقوا فى الجنة جميعًا، وقد شفعوا فى أهلهم جميعًا**». قالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكى عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: يا رسول الله، ادع لمن خلفوا منهم، فقال: «**اللهم أذهب حزن قلوبهم، واجبر مصيبتهم، وأحسن الخَلَفَ على من خُلِّفُوا**»[(١)].

الرسول ﷺ فى المدينة:

وانتهى رسول الله ﷺ مساء ذلك اليوم - يوم السبت السابع من شهر شوال سنة ٣هـ - إلى المدينة. فلما انتهى إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة، فقال: «**اغسلى عن هذا دمه يا بنية، فوالله لقد صدقنى اليوم**»، وناولها على بن أبى طالب سيفه، فقال: وهذا أيضًا فاغسلى عنه دمه، فوالله لقد صدقنى اليوم، فقال رسول الله ﷺ: «**لئن كنت صدقت القتال، لقد صدق معك سهل بن حُنَيف وأبو دُجَانة**»[(٢)].

قتلى الفريقين:

اتفقت جل الروايات على أن قتلى المسلمين كانوا سبعين، وكانت الأغلبية الساحقة من الأنصار؛ فقد قتل منهم خمسة وستون رجلًا، واحد وأربعون من الخزرج، وأربعة وعشرون من الأوس، وقتل رجل من اليهود. وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط.

وأما قتلى المشركين فقد ذكر ابن إسحاق أنهم اثنان وعشرون قتيلًا، ولكن الإحصاء الدقيق - بعد تعميق النظر فى جميع تفاصيل المعركة التى ذكرها أهل المغازى والسير، والتى تتضمن ذكر قتلى المشركين فى مختلف مراحل القتال - يفيد أن عدد قتلى المشركين سبعة وثلاثون، لا اثنان وعشرون، والله أعلم[(٣)].

حالة الطوارئ فى المدينة:

بات المسلمون فى المدينة - ليلة الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣ هـ بعد الرجوع من معركة أحد - وهم فى حالة الطوارئ، باتوا - وقد أنهكهم التعب، ونال منهم أى منال

---

(١) السيرة الحلبية ٢/ ٤٧.
(٢) ابن هشام ٢/ ١٠٠.
(٣) انظر: ابن هشام ٢/ ١٢٢- ١٢٩، فتح البارى ٧/ ٣٥١، وغزوة أحد لمحمد أحمد باشميل ص ٢٧٨- ٢٨٠.

- يحرسون أنقاب المدينة ومداخلها، ويحرسون قائدهم الأعلى رسول الله ﷺ خاصة ؛ إذ كانت تتلاحقهم الشبهات من كل جانب.

غزوة حمراء الأسد:

وبات الرسول ﷺ وهو يفكر فى الموقف، فقد كان يخاف أن المشركين إن فكروا فى أنهم لم يستفيدوا شيئًا من النصر والغلبة التى كسبوها فى ساحة القتال، فلا بد من أن يندموا على ذلك، ويرجعوا من الطريق لغزو المدينة مرة ثانية، فصمم على أن يقوم بعملية مطاردة الجيش المكى.

قال أهل المغازى ما حاصله: إن النبى ﷺ نادى فى الناس، وندبهم إلى المسير إلى لقاء العدو - وذلك صباح الغد من معركة أحد، أى يوم الأحد الثامن من شهر شوال سنة ٣ هـ - وقال: «**لا يخرج معنا إلا من شهد القتال**»، فقال له عبد الله بن أبى: أركب معك؟ قال: «لا»، واستجاب له المسلمون على ما بهم من الجرح الشديد، والخوف المزيد، وقالوا: سمعًا وطاعة. واستأذنه جابر بن عبد الله، وقال: يا رسول الله، إنى أحب ألا تشهد مشهدًا إلا كنت معك، وإنما خلفنى أبى على بناته فائذن لى أسير معك، فأذن له.

وسار رسول الله ﷺ والمسلمون معه حتى بلغوا حمراء الأسد، على بعد ثمانية أميال من المدينة، فعسكروا هناك.

وهناك أقبل مَعْبَد بن أبى معبد الخزاعى إلى رسول الله ﷺ فأسلم - ويقال: بل كان على شركه، ولكنه كان ناصحًا لرسول الله ﷺ لما كان بين خزاعة وبنى هاشم من الحلف - فقال: يا محمد، أما والله لقد عز علينا ما أصابك فى أصحابك، ولوددنا أن الله عافاك. فأمره رسول الله ﷺ أن يلحق أبا سفيان فَيُخَذِّلَه.

ولم يكن ما خافه رسول الله ﷺ من تفكير المشركين فى العودة إلى المدينة إلا حقًّا، فإنهم لما نزلوا بالروحاء على بعد ستة وثلاثين ميلًا من المدينة تلاوموا فيما بينهم، قال بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئًا، أصبتم شوكتهم وحدهم، ثم تركتموهم، وقد بقى منهم رءوس يجمعون لكم، فارجعوا حتى نستأصل شأفتهم.

ويبدو أن هذا الرأى جاء سطحيًّا ممن لم يكن يقدر قوة الفريقين ومعنوياتهم تقديرًا صحيحًا؛ ولذلك خالفهم زعيم مسئول (صفوان بن أمية) قائلًا: يا قوم، لاتفعلوا فإنى أخاف أن يجمع عليكم من تخلف من الخروج - أى من المسلمين فى غزوة أحد - فارجعوا والدولة لكم، فإنى لا آمن إن رجعتم أن تكون الدولة عليكم. إلا أن هذا الرأى رفض أمام

رأى الأغلبية الساحقة، وأجمع جيش مكة على المسير نحو المدينة. ولكن قبل أن يتحرك أبو سفيان بجيشه من مقره لحقه معبد بن أبى معبد الخزاعى ولم يكن يعرف أبو سفيان بإسلامه، فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال معبد - وقد شن عليه حرب أعصاب دعائية عنيفة: محمد قد خرج فى أصحابه، يطلبكم فى جمع لم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقًا، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم، وندموا على ما ضيعوا، فيهم من الحنق عليكم شىء لم أر مثله قط.

قال أبو سفيان: ويحك، ما تقول؟

قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل - أو - حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة.

فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم.

قال: فلا تفعل، فإنى ناصح.

وحينئذ انهارت عزائم الجيش المكى وأخذه الفزع والرعب، فلم ير العافية إلا فى مواصلة الانسحاب والرجوع إلى مكة، بيد أن أبا سفيان قام بحرب أعصاب دعائية ضد الجيش الإسلامى، لعله ينجح فى كف هذا الجيش عن مواصلة المطاردة، وطبعًا فهو ينجح فى تجنب لقائه. فقد مر به ركب من عبد القيس يريد المدينة، فقال: هل أنتم مبلغون عنى محمدًا رسالة، وأوقر لكم راحلتكم هذه زبيبًا بعكاظ إذا أتيتم إلى مكة؟

قالوا: نعم.

قال: فأبلغوا محمدًا أنا قد أجمعنا الكرة ؛ لنستأصله ونستأصل أصحابه.

فمر الركب برسول الله ﷺ وأصحابه، وهم بحمراء الأسد، فأخبرهم بالذى قال له أبو سفيان، وقالوا:] Ì Í Î Ï Ð Ñ Ò Z - أى زاد المسلمين قولهم ذلك -] Ó Ô Õ Ö × Ø Ù فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ Z [آل عمران].

أقام رسول الله ﷺ بحمراء الأسد - بعد مقدمه يوم الأحد - الاثنين والثلاثاء والأربعاء - ٩، ١٠، ١١ شوال سنة ٣ هـ - ثم رجع إلى المدينة، وأخذ رسول الله ﷺ قبل الرجوع إلى المدينة أبا عَزَّة الجمحى - وهو الذى كان قد منّ عليه من أسارى بدر ؛ لفقره وكثرة بناته، على ألا يظاهر عليه أحدًا، ولكنه نكث وغدر، فحرض الناس بشعره على النبى ﷺ والمسلمين، كما أسلفنا، وخرج لمقاتلتهم فى أحد - فلما أخذه رسول الله ﷺ قال: يا محمد، أقلنى، وامنن

على، ودعنى لبناتى، وأعطيك عهدًا ألا أعود لمثل ما فعلت، فقال ﷺ: «**لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعت محمدًا مرتين، لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين**»، ثم أمر الزبير أو عاصم بن ثابت فضرب عنقه.

كما حكم بالإعدام فى جاسوس من جواسيس مكة، وهو معاوية بن المغيرة بن أبى العاص جد عبد الملك بن مروان لأمه ؛ وذلك أنه لما رجع المشركون يوم أحد جاء معاوية هذا إلى ابن عمه عثمان ابن عفان رضي الله عنه فاستأمن له عثمان رسول الله ﷺ، فأمنه على أنه إن وجد بعد ثلاث قتله. فلما خلت المدينة من الجيش الإسلامى أقام فيها أكثر من ثلاث يتجسس لحساب قريش، فلما رجع الجيش خرج معاوية هاربًا، فأمر رسول الله ﷺ زيد بن حارثة وعمار بن ياسر، فتعقباه حتى قتلاه[(١)].

ومما لا شك فيه أن غزوة حمراء الأسد ليست بغزوة مستقلة، وإنما هى جزء من غزوة أحد، وتتمة لها وصفحة من صفحاتها.

تلك هى غزوة أحد بجميع مراحلها وتفاصيلها، وطالما بحث الباحثون حول مصير هذه الغزوة، هل كانت هزيمة أم لا؟ والذى لا يشك فيه أن التفوق العسكرى فى الصفحة الثانية من القتال كان للمشركين، وأنهم كانوا مسيطرين على ساحة القتال، وأن خسارة الأرواح والنفوس كانت فى جانب المسلمين أكثر وأفدح، وأن طائفة من المؤمنين انهزمت قطعًا، وأن دفة القتال جرت لصالح الجيش المكى، لكن هناك أمور تمنعنا أن نعبر عن كل ذلك بالنصر والفتح.

فمما لا شك فيه أن الجيش المكى لم يستطع احتلال معسكر المسلمين، وأن المقدار الكبير من الجيش المدنى لم يلتجئ إلى الفرار – مع الارتباك الشديد والفوضى العامة – بل قاوم بالبسالة حتى تجمع حول مقر قيادته، وأن كفته لم تسقط إلى حد أن يطارده الجيش المكى، وأن أحدًا من جيش المدينة لم يقع فى أسر الكفار، وأن الكفار لم يحصلوا على شىء من غنائم المسلمين، وأن الكفار لم يقوموا إلى الصفحة الثالثة من القتال مع أن جيش المسلمين لم يزل فى معسكره، وأنهم لم يقيموا بساحة القتال يومًا أو يومين أو ثلاثة أيام – كما هو دأب الفاتحين فى ذلك الزمان – بل سارعوا إلى الانسحاب وترك ساحة القتال قبل أن يتركها

(١) أخذنا تفصيل غزوة أحد، وحمراء الأسد من ابن هشام ٢/ ٦٠– ١٢٩، وزاد المعاد ٢/ ٩١– ١٠٨، وفتح البارى ٧/ ٣٤٥– ٣٧٧ مع صحيح البخارى، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى، ص ٢٤٢– ٢٥٧، وقد أحلنا على المصادر الأخرى فى مواضعها.

المسلمون، ولم يجترئوا على الدخول فى المدينة لنهب الذرارى والأموال، مع أنها على بعد عدة خطوات فحسب، وكانت مفتوحة وخالية تمامًا.

كل ذلك يؤكد لنا أن ما حصل لقريش لم يكن أكثر من أنهم وجدوا فرصة نجحوا فيها بإلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين، مع الفشل فيما كانوا يهدفون إليه من إبادة الجيش الإسلامى بعد عمل التطويق - وكثيرًا ما يلقى الفاتحون بمثل هذه الخسائر التى نالها المسلمون - أما أن ذلك كان نصرًا وفتحًا فكلا وحاشا.

بل يؤكد لنا تعجيل أبى سفيان فى الانسحاب والانصراف أنه كان يخاف على جيشه المعرة والهزيمة لو جرت صفحة ثالثة من القتال، ويزداد ذلك تأكدًا حين ننظر إلى موقف أبى سفيان من غزوة حمراء الأسد.

وإذن، فهذه الغزوة إنما كانت حربًا غير منفصلة، أخذ كل فريق بقسطه ونصيبه من النجاح والخسارة، ثم حاد كل منهما عن القتال من غير أن يفر عن ساحة القتال ويترك مقره لاحتلال العدو، وهذا هو معنى الحرب غير المنفصلة.

وإلى هذا يشير قوله تعالى:] وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ Z [النساء: ١٠٤]، فقد شبه أحد العسكرين بالآخر فى التألم وإيقاع الألم، مما يفيد أن الموقفين كانا متماثلين، وأن الفريقين رجعا وكل غير غالب.

القرآن يتحدث حول موضوع المعركة

ونزل القرآن يلقى ضوءًا على جميع المراحل المهمة من هذه المعركة مرحلة مرحلة، وصرح بالأسباب التى أدت إلى هذه الخسارة الفادحة، وأبدى النواحى الضعيفة التى لم تزل موجودة فى طوائف أهل الإيمان بالنسبة إلى واجبهم فى مثل هذه المواقف الحاسمة، وبالنسبة إلى الأهداف النبيلة السامية التى أنشئت للحصول عليها هذه الأمة، والتى تمتاز عن غيرها بكونها خير أمة أخرجت للناس.

كما تحدث القرآن عن موقف المنافقين، ففضحهم وأبدى ما كان فى باطنهم من العداوة لله ولرسوله، مع إزالة الشبهات والوساوس التى كانت تختلج فى قلوب ضعفاء المسلمين، والتى كان يثيرها هؤلاء المنافقون وإخوانهم اليهود - أصحاب الدس والمؤامرة - وقد أشار إلى الحكم والغايات المحمودة التى تمخضت عنها هذه المعركة.

نزلت حول موضوع المعركة ستون آية من سورة آل عمران، تبتدئ بذكر أول مرحلة

من مراحل المعركة:] É Ê Ë Ì Í Î Ï Ð Z [آل عمران: ١٢١]، وتترك فى نهايتها تعليقًا جامعًا على نتائج هذه المعركة وحكمتها، قال تعالى:] مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ Z [آل عمران].

الحكم والغايات المحمودة فى هذه الغزوة:

قد بسط ابن القيم الكلام على هذا الموضوع بسطًا تامًّا[(١)]. وقال ابن حجر: قال العلماء: وكان فى قصة أحد وما أصيب به المسلمون فيها من الفوائد والحكم الربانية أشياء عظيمة، منها: تعريف المسلمين سوء عاقبة المعصية، وشؤم ارتكاب النهى؛ لما وقع من ترك الرماة موقفهم الذى أمرهم الرسول ﷺ ألا يبرحوا منه.

ومنها: أن عادة الرسل أن تبتلى وتكون لها العاقبة، والحكمة فى ذلك أنهم لو انتصروا دائمًا دخل فى المؤمنين من ليس منهم، ولم يتميز الصادق من غيره، ولو انكسروا دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة، فاقتضت الحكمة الجمع بين الأمرين لتمييز الصادق من الكاذب، وذلك أن نفاق المنافقين كان مخفيًا عن المسلمين، فلما جرت هذه القصة، وأظهر أهل النفاق ما أظهروه من الفعل والقول عاد التلويح تصريحًا، وعرف المسلمون أن لهم عدوًّا فى دورهم، فاستعدوا لهم وتحرزوا منهم.

ومنها: أن فى تأخير النصر فى بعض المواطن هضمًا للنفس، وكسرًا لشماختها، فلما ابتلى المؤمنون صبروا، وجزع المنافقون.

ومنها: أن الله هيأ لعباده المؤمنين منازل فى دار كرامته لا تبلغها أعمالهم، فقيض لهم أسباب الابتلاء والمحن ليصلوا إليها.

ومنها: أن الشهادة من أعلى مراتب الأولياء فساقها إليهم.

ومنها: أنه أراد إهلاك أعدائه، فقيض لهم الأسباب التى يستوجبون بها ذلك من كفرهم وبغيهم وطغيانهم فى أذى أوليائه، فمحص بذلك ذنوب المؤمنين، ومحق بذلك الكافرين[(٢)].

---

(١) انظر: زاد المعاد ٢/ ٩٩-١٠٨.

(٢) فتح البارى ٧/ ٣٤٧.

السرايا والبعوث بين أحد والأحزاب

كان لمأساة أحد أثر سيئ على سمعة المؤمنين، فقد ذهبت ريحهم، وزالت هيبتهم عن النفوس، وزادت المتاعب الداخلية والخارجية على المؤمنين، وأحاطت الأخطار بالمدينة من كل جانب، وكاشف اليهود والمنافقون والأعراب بالعداء السافر، وهمت كل طائفة منهم أن تنال من المؤمنين، بل طمعت فى أن تقضى عليهم وتستأصل شأفتهم.

فلم يمض على هذه المعركة شهران حتى تهيأت بنو أسد للإغارة على المدينة. ثم قامت قبائل عَضَل وقَارَة فى شهر صفر - سنة ٤هـ - بمكيدة تسببت فى قتل عشرة من الصحابة، وفى نفس الشهر نفسه قام عامر بن الطُّفَيل العامرى بتحريض بعض القبائل حتى قتلوا سبعين من الصحابة، وتعرف هذه الوقعة بوقعة بئر مَعُونَة، ولم تزل بنو نضير خلال هذه المدة تجاهر بالعداوة حتى قامت فى ربيع الأول - سنة ٤ هـ - بمكيدة تهدف إلى قتل النبى ﷺ، وتجرأت بنو غَطَفَان حتى همت بالغزو على المدينة فى جمادى الأولى - سنة ٤ هـ.

فريح المسلمين التى كانت قد ذهبت فى معركة أحد تركت المسلمين - إلى حين - يهددون بالأخطار، ولكن تلك هى حكمة محمد ﷺ التى صرفت وجوه التيارات، وأعادت للمسلمين هيبتهم المفقودة، وأكسبتهم العلو والمجد من جديد. وأول ما أقدم عليه بهذا الصدد هى حركة المطاردة التى قام بها إلى حمراء الأسد، فقد حفظ بها قدرًا من سمعة جيشه، واستعاد بها من مكانته شيئًا مذكورًا، ثم قام بمناورات أعادت للمسلمين هيبتهم، بل زادت فيها، وفى الصفحات الآتية شىء مما جرى بين الطرفين.

سرية أبى سلمة:

أول من قام ضد المسلمين بعد نكسة أحد هم بنو أسد بن خزيمة، فقد نقلت استخبارات المدينة أن طلحة وسلمة ابنى خويلد قد سارا فى قومهما ومن أطاعهما يدعون بنى أسد بن خزيمة إلى حرب رسول الله ﷺ.

فسارع رسول الله ﷺ إلى بعث سرية قوامها مائة وخمسون مقاتلًا من المهاجرين والأنصار، وأمر عليهم أبا سلمة، وعقد له لواء. وباغت أبو سلمة بنى أسد بن خزيمة فى ديارهم قبل أن يقوموا بغارتهم، فتشتتوا فى الأمر، وأصاب المسلمون إبلا وشاء لهم فاستاقوها، وعادوا إلى المدينة سالمين غانمين لم يلقوا حربًا.

كان مبعث هذه السرية حين استهل هلال المحرم - سنة ٤ هـ. وعاد أبو سلمة وقد نفر عليه جرح كان قد أصابه فى أحد، فلم يلبث حتى مات[١].

بعث عبد الله بن أُنَيس:

وفى اليوم الخامس من نفس الشهر - المحرم سنة ٤ هـ - نقلت الاستخبارات أن خالد ابن سفيان الهذلى يحشد الجموع لحرب المسلمين، فأرسل إليه النبى ﷺ عبد الله بن أنيس ليقضى عليه.

وظل عبد الله بن أنيس غائبًا عن المدينة ثمانى عشرة ليلة، ثم قدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم، وقد قتل خالدًا وجاء برأسه، فوضعه بين يدى النبى ﷺ فأعطاه عصا وقال: «**هذه آية بينى وبينك يوم القيامة**»، فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل معه فى أكفانه[٢].

بعث الرَّجِيع:

وفى شهر صفر من نفس السنة - أى الرابعة من الهجرة - قدم على رسول الله ﷺ قوم من عَضَل وقَارَة، وذكروا أن فيهم إسلامًا، وسألوا أن يبعث معهم من يعلمهم الدين، ويقرئهم القرآن، فبعث معهم ستة نفر - فى قول ابن إسحاق، وفى رواية البخارى أنهم كانوا عشرة - وأمر عليهم مَرْثَد بن أبى مَرْثَد الغَنَوِى - فى قول ابن إسحاق، وعند البخارى أنه عاصم بن ثابت جد عاصم ابن عمر بن الخطاب - فذهبوا معهم، فلما كانوا بالرجيع - وهو ماء لهُذَيلٍ بناحية الحجاز بين رَابِغ وجُدَّة - استصرخوا عليهم حيًّا من هذيل يقال لهم: بنو لَحْيَان، فتبعوهم بقريب من مائة رام، واقتصوا آثارهم حتى لحقوهم، فأحاطوا بهم - وكانوا قد لجأوا إلى فَدْفَد[٣] - وقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلًا. فأما عاصم فأبى من النزول وقاتلهم فى أصحابه، فقتل منهم سبعة بالنبل، وبقى خُبَيب وزيد بن الدَّثِنَّةِ ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق مرة أخرى، فنزلوا إليهم ولكنهم غدروا بهم وربطوهم بأوتار قِسِيهم، فقال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، وأبى أن يصحبهم، فجرروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد فباعوهما بمكة، وكانا قتلا من رءوسهم يوم بدر، فأما خبيب فمكث عندهم مسجونًا، ثم أجمعوا على قتله، فخرجوا به من الحرم إلى التنعيم، فلما أجمعوا على صلبه قال:

---

(١) زاد المعاد ٢/ ١٠٨.

(٢) زاد المعاد ٢/ ١٠٩، وابن هشام ٢/ ٦١٩، ٦٢٠.

(٣) مكان مرتفع.

دعونى حتى أركع ركعتين، فتركوه فصلاهما، فلما سلم قال: والله لولا أن تقولوا: إن ما بى جزع لزدت، ثم قال: اللهم أحْصِهِمْ عَدَدًا، واقتلهم بَدَدًا[١]، ولا تُبْقِ منهم أحدا، ثم قال:

لقد أجمع الأحزاب حولى وألَّبُوا ... قبائلهم واستجمعوا كل مَجْمَع
وقد قربوا أبناءهم ونساءهم ... وقُرِّبْتُ من جِذْع طويل مُمَنَّع
إلى الله أشكو غُرْبَتِى بعد كُرْبَتِى ... وما جمع الأحزاب لى عند مضجعى
وقد خَيَّرُونى الكفر والموتُ دونه ... فقد ذرفت عيناى من غير مَدْمَع
فذا العرش صَبِّرْنِى على ما يراد بى ... فقد بَضَعُوا لحمى وقد بَؤُس مَطْمَعِى
ولَسْتُ أُبالِى حين أُقْتَلُ مُسْلِما ... على أى شق كان فى الله مَضْجَعِى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شِلْو[٢] مُمَزَّع

فقال له أبو سفيان: أيسرك أن محمدا عندنا نضرب عنقه، وأنك فى أهلك؟ فقال: لا والله، ما يسرنى أنى فى أهلى وأن محمدًا فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه. ثم صلبوه، ووكلوا به من يحرس جثته، فجاء عمرو بن أمية الضمرى، فاحتمله بخدعة ليلًا، فذهب به فدفنه، وكان الذى تولى قتل خبيب هو عقبة بن الحارث، وكان خبيب قد قتل أباه حارثًا يوم بدر.

وفى الصحيح أن خبيبًا أول من سن الركعتين عند القتل، وأنه رئى وهو أسير يأكل قِطْفًا من العنب، وما بمكة ثمرة.

وأما زيد بن الدَّثِنَّة فابتاعه صفوان بن أمية فقتله بأبيه.

وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشىء من جسده يعرفونه - وكان عاصم قتل عظيمًا من عظمائهم يوم بدر - فبعث الله عليه مثل الظُّلَّة من الدَّبْر - الزنابير - فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء. وكان عاصم أعطى الله عهدًا ألا يمسه مشرك ولا يمس مشركًا. وكان عمر لما بلغه خبره يقول: يحفظ الله العبد المؤمن بعد وفاته كما يحفظه فى حياته[٣].

مأساة بئر مَعُونة:

وفى الشهر نفسه الذى وقعت فيه مأساة الرَّجِيع وقعت مأساة أخرى أشد وأفظع من الأولى، وهى التى تعرف بوقعة بئر معونة.

---

(١) أى: متفرقين. (٢) عضو.
(٣) ابن هشام ٢/ ١٦٩- ١٧٩، وزاد المعاد ٢/ ١٠٩، وصحيح البخارى ٢/ ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٨٥.

وملخصها: أن أبا براء عامر بن مالك المدعو بمُلاَعِب الأسِنَّة قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدعاه إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد، فقال: يا رسول الله، لو بعثت أصحابك إلى أهل نَجْد يدعونهم إلى دينك لرجوت أن يجيبوهم، فقال: «**إني أخاف عليهم أهل نجد**»، فقال أبو بَرَاء: أنا جَارٌ لهم، فبعث معه أربعين رجلًا - فى قول ابن إسحاق، وفى الصحيح أنهم كانوا سبعين، والذى فى الصحيح هو الصحيح - وأمر عليهم المنذر بن عمرو أحد بنى ساعدة الملقب بالمُعْنِقَ لِيمُوت[1]، وكانوا من خيار المسلمين وفضلائهم وساداتهم وقرائهم، فساروا يحتطبون بالنهار، يشترون به الطعام لأهل الصفة، ويتدارسون القرآن ويصلون بالليل، حتى نزلوا بئر معونة - وهى أرض بين بنى عامر وحَرَّة بنى سُلَيْم - فنزلوا هناك، ثم بعثوا حرام بن مِلْحَان أخا أم سليم بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطُّفَيْل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلًا فطعنه بالحربة من خلفه، فلما أنفذها فيه ورأى الدم، قال حرام: الله أكبر، فُزْتُ ورب الكعبة.

ثم استنفر عدو الله لفوره بنى عامر إلى قتال الباقين، فلم يجيبوه لأجل جوار أبى براء، فاستنفر بنى سليم، فأجابته عُصَيَّة ورِعْل وذَكْوان، فجاءوا حتى أحاطوا بأصحاب رسول الله ﷺ، فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم إلا كعب بن زيد بن النجار، فإنه ارْتُثَّ[2] من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق.

وكان عمرو بن أمية الضمرى والمنذر بن عقبة بن عامر فى سرح المسلمين، فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة، فنزل المنذر، فقاتل المشركين حتى قتل مع أصحابه، وأسر عمرو بن أمية الضمرى، فلما أخبر أنه من مُضَر جَزَّ عامر ناصيته، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه.

ورجع عمرو بن أمية الضمرى إلى النبى ﷺ حاملًا معه أنباء المصاب الفادح، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين، تذكر نكبتهم الكبيرة بنكبة أحد ؛ إلا أن هؤلاء ذهبوا فى قتال واضح ؛ وأولئك ذهبوا فى غدرة شائنة.

ولما كان عمرو بن أمية فى الطريق بالقَرْقَرَة من صدر قناة، نزل فى ظل شجرة، وجاء رجلان من بنى كلاب فنزلا معه، فلما ناما فتك بهما عمرو، وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به، فلما قدم أخبر رسول الله ﷺ بما

(١) لُقِّب بذلك لأنه أسرعَ إلى الشهادة.

(٢) رُفع وبه جراح.

فعل، فقال: «**لقد قتلت قتيلين لأدِيَنَّهما**»، وانشغل بجمع ديتهما من المسلمين ومن حلفائهم اليهود[١]، وهذا الذى صار سببًا لغزوة بنى النضير، كما سيذكر.

وقد تألم النبى ﷺ لأجل هذه المأساة، ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة[٢]، تألما شديدًا، وتغلب عليه الحزن والقلق[٣]، حتى دعا على هؤلاء الأقوام والقبائل التى قامت بالغدر والفتك فى أصحابه. ففى الصحيح عن أنس قال: دعا النبى ﷺ على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة ثلاثين صباحًا، يدعو فى صلاة الفجر على رِعْل وذَكْوَان ولَحْيَان وعُصَية، ويقول: «**عُصَية عَصَتْ الله ورسوله**»، فأنزل الله تعالى على نبيه قرآنًا قرأناه حتى نسخ بعد: «بلغوا عنا قومنا أنا لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه» فترك رسول الله ﷺ قُنُوتَه[٤].

غزوة بنى النضير:

قد أسلفنا أن اليهود كانوا يتحرقون على الإسلام والمسلمين إلا أنهم لم يكونوا أصحاب حرب وضرب، بل كانوا أصحاب دس ومؤامرة، فكانوا يجاهرون بالحقد والعداوة، ويختارون أنواعًا من الحيل ؛ لإيقاع الإيذاء بالمسلمين دون أن يقوموا للقتال مع ما كان بينهم وبين المسلمين من عهود ومواثيق، وأنهم بعد وقعة بنى قينقاع وقتل كعب بن الأشرف خافوا على أنفسهم فاستكانوا والتزموا الهدوء والسكوت.

ولكنهم بعد وقعة أحد تجرأوا، فكاشفوا بالعداوة والغدر، وأخذوا يتصلون بالمنافقين وبالمشركين من أهل مكة سرًّا، ويعملون لصالحهم ضد المسلمين[٥].

وصبر النبى ﷺ حتى ازدادوا جرأة وجسارة بعد وقعة الرَّجِيع وبئر مَعُونة، حتى قاموا بمؤامرة تهدف القضاء على النبى ﷺ.

وبيان ذلك: أنه ﷺ خرج إليهم فى نفر من أصحابه، وكلمهم أن يعينوه فى دية

---

(١) انظر: ابن هشام ٢/ ١٨٣- ١٨٨، وزاد المعاد ٢/ ١٠٩، ١١٠، وصحيح البخارى ٢/ ٥٨٤، ٥٨٦.

(٢) ذكر ابن سعد أن خبر أصحاب الرجيع وخبر أصحاب بئر معونة أتيا النبى ﷺ فى ليلة واحدة (٢/ ٥٣).

(٣) روى ابن سعد عن أنس: ما رأيت رسول الله ﷺ وجد على أحد ما وجد على أصحاب بئر معونة (٢/ ٥٤).

(٤) البخارى ٢/ ٥٨٦- ٥٨٨.

(٥) يؤخذ ذلك مما رواه أبو داود فى باب خبر النضير ٣/ ١١٦، ١١٧ (عون المعبود شرح سنن أبى داود).

الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضَّمْرِى - وكان ذلك يجب عليهم حسب بنود المعاهدة - فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس ها هنا حتى نقضى حاجتك. فجلس إلى جنب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا، وجلس معه أبو بكر وعمر وعلى وطائفة من أصحابه.

وخلا اليهود بعضهم إلى بعض، وسول لهم الشيطان الشقاء الذى كتب عليهم، فتآمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحى، ويصعد فيلقيها على رأسه يشدخه بها؟... فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا. فقال لهم سَلاَّم بن مِشْكَم: لا تفعلوا، فوالله ليخبرن بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذى بيننا وبينه. ولكنهم عزموا على تنفيذ خطتهم.

ونزل جبريل من عند رب العالمين على رسوله ﷺ يعلمه بما هموا به، فنهض مسرعًا وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه فقالوا: نهضت ولم نشعر بك، فأخبرهم بما هَمَّتْ به يهود.

وما لبث رسول الله ﷺ أن بعث محمد بن مسلمة إلى بنى النضير يقول لهم: «**اخرجوا من المدينة ولا تساكنونى بها، وقد أجلتكم عشرًا، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه**». ولم يجد يهود مناصًا من الخروج، فأقاموا أيامًا يتجهزون للرحيل، بيد أن رئيس المنافقين - عبد الله بن أبى - بعث إليهم أن اثبتوا وتَمَنَّعُوا، ولا تخرجوا من دياركم، فإن معى ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم [F G H I J K L M N O P Q Z] [الحشر: ١١] وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان.

وهناك عادت لليهود ثقتهم، واستقر رأيهم على المناوأة، وطمع رئيسهم حيى بن أخطب فيما قاله رأس المنافقين، فبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

ولا شك أن الموقف كان حرجًا بالنسبة للمسلمين، فإن اشتباكهم بخصومهم فى هذه الفترة المحرجة من تاريخهم لم يكن مأمون العواقب، وقد رأوا كَلَب العرب عليهم وفتكهم الشنيع ببعوثهم، ثم إن يهود بنى النضير كانوا على درجة من القوة تجعل استسلامهم بعيد الاحتمال، وتجعل فرض القتال معهم محفوفًا بالمكاره، إلا أن الحال التى جدت بعد مأساة بئر معونة وما قبلها زادت حساسية المسلمين بجرائم الاغتيال والغدر التى أخذوا يتعرضون لها جماعات وأفرادًا، وضاعفت نقمتهم على مقترفيها، ومن ثم قرروا أن يقاتلوا بنى النضير - بعد همهم باغتيال الرسول ﷺ - مهما تكن النتائج.

فلما بلغ رسول الله ﷺ جواب حيى بن أخطب كبر وكبر أصحابه، ثم نهض لمناجزة القوم، فاستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وسار إليهم، وعلى بن أبى طالب يحمل اللواء، فلما انتهى إليهم فرض عليهم الحصار.

والتجأ بنو النضير إلى حصونهم، فأقاموا عليها يرمون بالنبل والحجارة، وكانت نخيلهم وبساتينهم عونًا لهم فى ذلك، فأمر بقطعها وتحريقها، وفى ذلك يقول حسان:

وهــان على سَـــرَاةِ[1] بنى لُـؤى حـريـق بـالـبُـوَيْـرَةِ مستطير

(البويرة: اسم لنخل بنى النضير) وفى ذلك أنزل الله تعالى:] / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 Z [الحشر: ٥].

واعتزلتهم قريظة، وخانهم عبد الله بن أبى وحلفاؤهم من غطفان، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيرًا، أو يدفع عنهم شرًّا، ولهذا شبه سبحانه وتعالى قصتهم، وجعل مثلهم:] Á Â ÃÄ Å Æ Ç È É Ê Ë Ì Z [الحشر: ١٦]

ولم يطل الحصار – فقد دام ست ليال فقط، وقيل: خمس عشرة ليلة – حتى قذف الله فى قلوبهم الرعب، فاندحروا وتهيأوا للاستسلام ولإلقاء السلاح، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: نحن نخرج عن المدينة. فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح.

فنزلوا على ذلك، وخربوا بيوتهم بأيديهم، ليحملوا الأبواب والشبابيك، بل حتى حمل بعضهم الأوتاد وجذوع السقف، ثم حملوا النساء والصبيان، وتحملوا على ستمائة بعير، فترحل أكثرهم وأكابرهم كحيى بن أخطب وسلاَّم بن أبى الحُقَيق إلى خيبر، وذهبت طائفة منهم إلى الشام، وأسلم منهم رجلان فقط: يامِينُ بن عمرو وأبو سعد بن وهب، فأحرزا أموالهما.

وقبض رسول الله ﷺ سلاح بنى النضير، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم، فوجد من السلاح خمسين درعًا وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفًا.

وكانت أموال بنى النضير وأرضهم وديارهم خالصة لرسول الله ﷺ ؛ يضعها حيث يشاء، ولم يخَمِّسْها لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجِف المسلمون عليها بِخَيلٍ ولا رِكاب، فقسمها بين المهاجرين الأولين خاصة، إلا أنه أعطى أبا دُجَانة وسهل بن حُنَيف الأنصاريين

(١) أشراف.

لفقرهما. وكان ينفق منها على أهله نفقة سنة، ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكُرَاع عدة فى سبيل الله.

كانت غزوة بنى النضير فى ربيع الأول سنة ٤ من الهجرة، أغسطس ٦٢٥م، وأنزل الله فى هذه الغزوة سورة الحشر بأكملها، فوصف طرد اليهود، وفضح مسلك المنافقين، وبين أحكام الفيء، وأثنى على المهاجرين والأنصار، وبين جواز القطع والحرق فى أرض العدو للمصالح الحربية، وأن ذلك ليس من الفساد فى الأرض، وأوصى المؤمنين بالتزام التقوى والاستعداد للآخرة، ثم ختمها بالثناء على نفسه وبيان أسمائه وصفاته.

وكان ابن عباس يقول عن سورة الحشر: قل: سورة النضير[(١)].

هذه خلاصة ما رواه ابن إسحاق وعامة أهل السير حول هذه الغزوة. وقد روى أبو داود وعبد الرزاق وغيرهما سببًا آخر حول هذه الغزوة، وهو: أنه لما كانت وقعة بدر فكتبت كفار قريش بعد وقعة بدر إلى اليهود: إنكم أهل الحلقة والحصون، وإنكم لتقاتلن صاحبنا أو لنفعلن كذا وكذا، ولا يحول بيننا وبين خَدَم نسائكم شىء - وهو الخلاخيل - فلما بلغ كتابهم اليهود أجمعت بنو النضير على الغدر، فأرسلوا إلى النبى ﷺ: اخرج إلينا فى ثلاثين رجلًا من أصحابك، ولنخرج فى ثلاثين حبرًا، حتى نلتقى فى مكان كذا، نَصَفٌ بيننا وبينكم، فيسمعوا منك، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا كلنا، فخرج النبى ﷺ فى ثلاثين من أصحابه، وخرج إليه ثلاثون حبرًا من يهود، حتى إذا برزوا فى براز من الأرض قال بعض اليهود لبعض: كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون رجلًا من أصحابه، كلهم يحب أن يموت قبله، فأرسلوا إليه: كيف تفهم ونفهم ونحن ستون رجلًا؟ اخرج فى ثلاثة من أصحابك ويخرج إليك ثلاثة من علمائنا، فليسمعوا منك، فإن آمنوا بك آمنا كلنا وصدقناك، فخرج النبى ﷺ فى ثلاثة نفر من أصحابه واشتملوا (أى اليهود) على الخناجر، وأرادوا الفتك برسول الله ﷺ، فأرسلت امرأة ناصحة من بنى النضير إلى بنى أخيها، وهو رجل مسلم من الأنصار، فأخبرته خبر ما أرادت بنو النضير من الغدر برسول الله ﷺ، فأقبل أخوها سريعًا حتى أدرك النبى ﷺ، فساره بخبرهم قبل أن يصل النبى ﷺ إليهم، فرجع النبى ﷺ، فلما كان من الغد غدا عليهم رسول الله ﷺ بالكتائب فحاصرهم، وقال لهم: «**إنكم لاتأمنون عندى إلا بعهد تعاهدونى عليه**»، فأبوا أن يعطوه عهدًا، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون، ثم غدا الغد على بنى قريظة بالخيل والكتائب، وترك بنى النضير، ودعاهم

(١) ابن هشام ٢/ ١٩٠-١٩٢، زاد المعاد ٢/ ٧١، ١١٠، وصحيح البخارى ٢/ ٥٧٤، ٥٧٥.

إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم، وغدا إلى بنى النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحَلْقة - والحلْقة: السلاح - فجاءت بنو النضير واحتملوا ما أقلت إبل من أمتعتهم وأبواب بيوتهم وخشبها، فكانوا يخربون بيوتهم فيهدمونها، فيحملون ما وافقهم من خشبها، وكان جلاؤهم ذلك أول حشر الناس إلى الشام[(١)].

غزوة نجد:

وبهذا النصر الذى أحرزه المسلمون - فى غزوة بنى النضير - دون قتال وتضحية توطد سلطانهم فى المدينة، وتخاذل المنافقون عن الجهر بكيدهم، وأمكن للرسول ﷺ أن يتفرغ لقمع الأعراب الذين آذوا المسلمين بعد أحد، وتواثبوا على بعوث الدعاة يقتلون رجالها فى نذالة وكفران، وبلغت بهم الجرأة إلى أن أرادوا القيام بجر غزوة على المدينة.

فقبل أن يقوم النبى ﷺ بتأديب أولئك الغادرين، نقلت إليه استخبارات المدينة بتحشد جموع البدو والأعراب من بنى مُحَارِب وبنى ثعلبة من غَطَفَان، فسارع النبى ﷺ إلى الخروج، يجوس فيافى نجد، ويلقى بذور الخوف فى أفئدة أولئك البدو القساة؛ حتى لا يعاودوا مناكرهم التى ارتكبها إخوانهم مع المسلمين.

وأضحى الأعراب الذين مردوا على النهب والسطو لا يسمعون بمقدم المسلمين إلا حذروا وتمنعوا فى رءوس الجبال، وهكذا أرهب المسلمون هذه القبائل المغيرة، وخلطوا بمشاعرهم الرعب، ثم رجعوا إلى المدينة آمنين.

وقد ذكر أهل المغازى والسير بهذا الصدد غزوة معينة غزاها المسلمون فى أرض نجد فى شهر ربيع الثانى أو جمادى الأولى سنة ٤هـ، ويسمون هذه الغزوة بغزوة ذات الرِّقَاع. أما وقوع الغزوة خلال هذه المدة فهو أمر تقتضيه ظروف المدينة، فإن موسم غزوة بدر التى كان قد تواعد بها أبو سفيان حين انصرافه من أحد، كان قد اقترب. وإخلاء المدينة، مع ترك البدو والأعراب على تمردهم وغطرستهم، والخروج لمثل هذا اللقاء الرهيب لم يكن من مصالح سياسة الحروب قطعًا، بل كان لا بد من خضد شوكتهم وكف شرهم، قبل الخروج لمثل هذه الحرب الكبيرة، التى كانوا يتوقعون وقوعها فى رحاب بدر.

---

(١) مصنف عبد الرزاق ٥/ ٣٥٨- ٣٦٠، ح (٩٧٣٣)، وسنن أبى داود: كتاب الخراج والفىء والإمارة، باب فى خبر النضير ٢/ ١٥٤.

وأما أن تلك الغزوة التى قادها الرسول ﷺ فى ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة ٤ هـ هى غزوة ذات الرقاع فلا يصح، فإن غزوة ذات الرقاع شهدها أبو هريرة وأبو موسى الأشعرى رضي الله عنهما، وكان إسلام أبى هريرة قبل غزوة خيبر بأيام، وكذلك أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه، وافى النبى ﷺ بخيبر. وإذن فغزوة ذات الرقاع بعد خيبر، ويدل على تأخرها عن السنة الرابعة أن النبى ﷺ صلى فيها صلاة الخوف، وكانت أول شرعية صلاة الخوف فى غزوة عُسْفَان، ولا خلاف أن غزوة عسفان كانت بعد الخندق، وكانت غزوة الخندق فى أواخر السنة الخامسة.

غزوة بدر الثانية:

ولما خضد المسلمون شوكة الأعراب، وكفكفوا شرهم، أخذوا يتجهزون لملاقاة عدوهم الأكبر، فقد استدار العام وحضر الموعد المضروب مع قريش - فى غزوة أحد - وحق لمحمد ﷺ وصحبه أن يخرجوا ؛ ليواجهوا أبا سفيان وقومه، وأن يديروا رحى الحرب كرة أخرى حتى يستقر الأمر لأهدى الفريقين وأجدرهما بالبقاء.

ففى شعبان سنة ٤ هـ يناير سنة ٦٢٦ م، خرج رسول الله ﷺ لموعده فى ألف وخمسمائة، وكانت الخيل عشرة أفراس، وحمل لواءه على بن أبى طالب، واستخلف على المدينة عبد الله بن رواحة، وانتهى إلى بدر، فأقام بها ينتظر المشركين.

وأما أبو سفيان فخرج فى ألفين من مشركى مكة، ومعهم خمسون فرسًا، حتى انتهى إلى مَرِّ الظَّهْرَان على بعد مرحلة من مكة فنزل بمَجَنَّة - ماء فى تلك الناحية.

خرج أبو سفيان من مكة متثاقلًا يفكر فى عقبى القتال مع المسلمين، وقد أخذه الرعب، واستولت على مشاعره الهيبة، فلما نزل بمر الظهران خار عزمه، فاحتال للرجوع، وقال لأصحابه: يا معشر قريش، إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب، وإنى راجع فارجعوا.

ويبدو أن الخوف والهيبة كانت مستولية على مشاعر الجيش أيضًا، فقد رجع الناس ولم يبدوا أى معارضة لهذا الرأى، ولا أى إصرار وإلحاح على مواصلة السير للقاء المسلمين.

وأما المسلمون فأقاموا ببدر ثمانية أيام ينتظرون العدو، وباعوا ما معهم من التجارة فربحوا بدرهم درهمين، ثم رجعوا إلى المدينة وقد انتقل زمام المفاجأة إلى أيديهم، وتوطدت هيبتهم فى النفوس، وسادوا على الموقف.

وتعرف هذه الغزوة ببدر الموعد، وبدر الثانية، وبدر الآخرة، وبدر الصغرى[١].

غزوة دُوَمة الجندل:

عاد رسول الله ﷺ من بدر، وقد ساد المنطقة الأمن والسلام، واطمأنت دولته، فتفرغ للتوجه إلى أقصى حدود العرب حتى تصير السيطرة للمسلمين على الموقف، ويعترف بذلك الموالون والمعادون.

مكث بعد بدر الصغرى فى المدينة ستة أشهر، ثم جاءت إليه الأخبار بأن القبائل حول دومة الجندل - قريبًا من الشام - تقطع الطريق هناك، وتنهب ما يمر بها وأنها قد حشدت جمعًا كبيرا تريد أن تهاجم المدينة، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة سِبَاع بن عُرْفُطَة الغفارى، وخرج فى ألف من المسلمين لخمس ليال بقين من ربيع الأول سنة ٥هـ، وأخذ رجلًا من بنى عُذْرَة دليلًا للطريق يقال له: مذكور.

خرج يسير الليل ويكمن النهار حتى يفاجئ أعداءهم وهم غارون، فلما دنا منهم إذا هم مغربون، فهجم على ما شيتهم ورعائهم، فأصاب من أصاب، وهرب من هرب.

وأما أهل دومة الجندل ففروا فى كل وجه، فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحدًا، وأقام رسول الله ﷺ أيامًا، وبث السرايا وفرق الجيوش، فلم يصب منهم أحدًا، ثم رجع إلى المدينة، ووادع فى تلك الغزوة عيينة بن حصن. ودُومة بالضم: موضع معروف بمشارف الشام بينها وبين دمشق خمس ليال، وبُعْدُها من المدينة خمس عشرة ليلة.

بهذه الإجراءات السريعة الحاسمة، وبهذه الخطط الحكيمة الحازمة نجح النبى ﷺ فى بسط الأمن، وتنفيذ السلام فى المنطقة، والسيطرة على الموقف، وتحويل مجرى الأيام لصالح المسلمين، وتخفيف المتاعب الداخلية والخارجية التى كانت قد توالت عليهم وأحاطت بهم من كل جانب، فقد سكت المنافقون واستكانوا، وتم إجلاء قبيلة من اليهود، وبقيت الأخرى تظاهر بإيفاء حق الجوار، وبإيفاء العهود والمواثيق، واستكانت البدو والأعراب، وحادت قريش عن مهاجمة المسلمين، ووجد المسلمون فرصة لنشر الإسلام وتبليغ رسالات رب العالمين.

(١) انظر لتفصيل هذه الغزوة: ابن هشام ٢/ ٢٠٩، ٢١٠، وزاد المعاد ٢/ ١١٢.

غزوة الأحزاب

عاد الأمن والسلام، وهدأت الجزيرة العربية بعد الحروب والبعوث التى استغرقت أكثر من سنة كاملة، إلا أن اليهود - الذين كانوا قد ذاقوا ألوانًا من الذلة والهوان نتيجة غدرهم وخيانتهم ومؤامراتهم ودسائسهم - لم يفيقوا من غيهم، ولم يستكينوا، ولم يتعظوا بما أصابهم من نتيجة الغدر والتآمر. فهم بعد نفيهم إلى خيبر ظلوا ينتظرون ما يحل بالمسلمين من خلال المناوشات التى كانت قائمة بين المسلمين والوثنيين، ولما تحول مجرى الأيام لصالح المسلمين، وتمخضت الليالى والأيام عن بسط نفوذهم، وتوطد سلطانهم - تحرق هؤلاء اليهود أى تحرق.

وشرعوا فى التآمر من جديد على المسلمين، وأخذوا يعدون العدة، لتصويب ضربة إلى المسلمين تكون قاتلة لا حياة بعدها. ولما لم يكونوا يجدون فى أنفسهم جرأة على قتال المسلمين مباشرة، خططوا لهذا الغرض خطة رهيبة.

خرج عشرون رجلًا من زعماء اليهود وسادات بنى النضير إلى قريش بمكة، يحرضونهم على غزو الرسول ﷺ، ويوالونهم عليه، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش، وكانت قريش قد أخلفت موعدها فى الخروج إلى بدر، فرأت فى ذلك إنقاذا لسمعتها والبر بكلمتها.

ثم خرج هذا الوفد إلى غَطَفَان، فدعاهم إلى ما دعا إليه قريشًا فاستجابوا لذلك، ثم طاف الوفد فى قبائل العرب يدعوهم إلى ذلك، فاستجاب له من استجاب، وهكذا نجح ساسة اليهود وقادتهم فى تأليب أحزاب الكفر على النبى ﷺ والمسلمين.

وعلى إثر ذلك خرجت من الجنوب قريش وكنانة وحلفاؤهم من أهل تهامة - وقائدهم أبو سفيان - فى أربعة آلاف، ووافاهم بنو سليم بمَرِّ الظَّهْرَان، وخرجت من الشرق قبائل غطفان: بنو فَزَارة يقودهم عُيينَة بن حِصْن، وبنو مُرَّة يقودهم الحارث بن عوف، وبنو أشجع يقودهم مِسْعَر ابن رُخَيلَة، كما خرجت بنو أسد وغيرها.

واتجهت هذه الأحزاب وتحركت نحو المدينة على ميعاد كانت قد تعاقدت عليه.

وبعد أيام تجمع حول المدينة جيش عَرَمْرَم يبلغ عدده عشرة آلاف مقاتل، جيش ربما يزيد عدده على جميع من فى المدينة من النساء والصبيان والشباب والشيوخ.

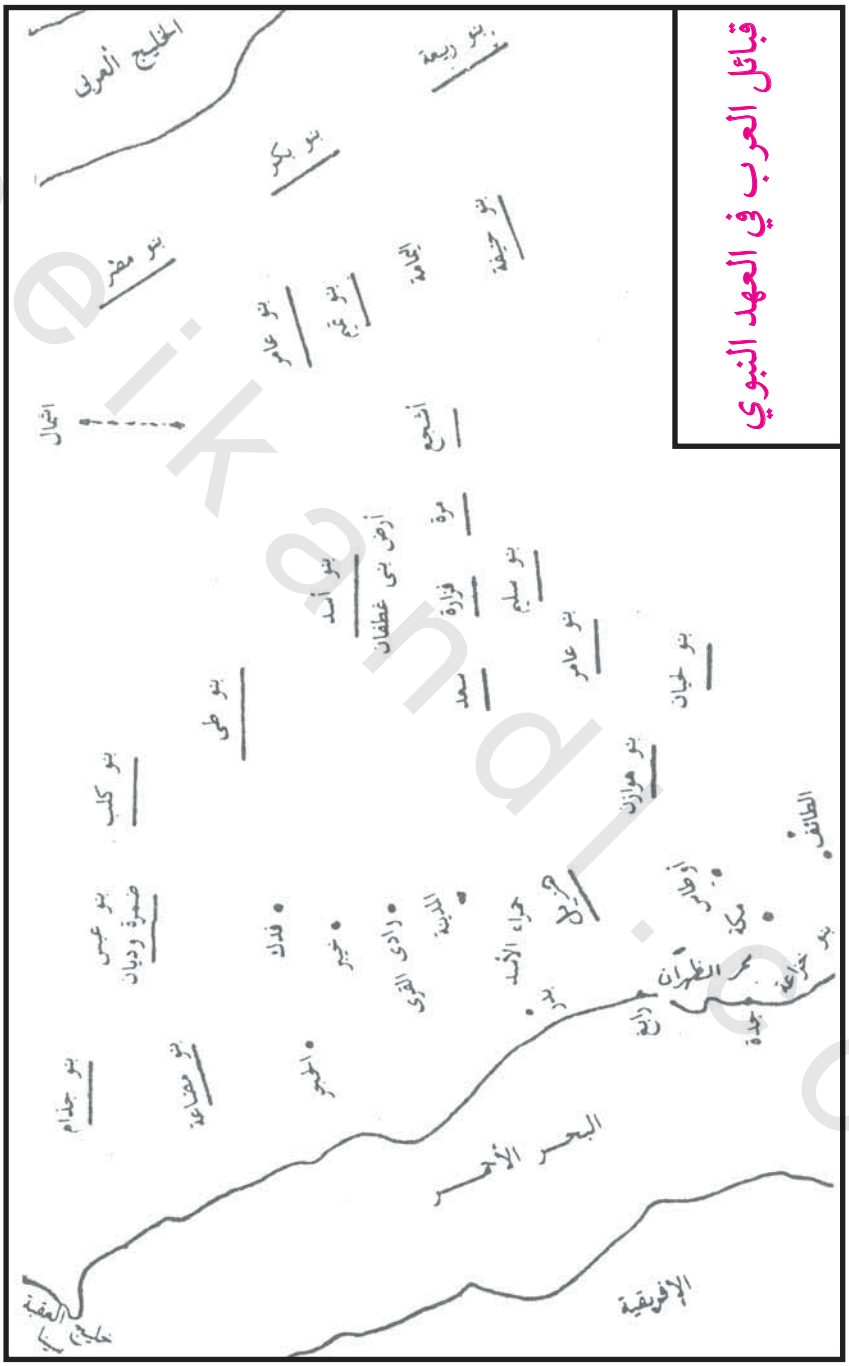
قبائل العرب في العهد النبوي
الخليج العربي
بنو ربيعة
بنو بكر
بنو مضر
بنو حنيفة
بنو عامر
بنو تميم
اليمامة
الشمال
أنمار
بنو أسد
أرض بني غطفان
مرة
فزارة
سعد
بنو سليم
بنو عامر
بنو هوازن
بنو كلب
بنو طي
بنو عبس
ضبة وديان
فدك
تيماء
وادي القرى
المدينة
حمراء الأسد
بدر
الطريق
الطائف
أوطاس
مكة
بنو خزاعة
جدة
بحر القلزم
البحر الأحمر
بنو جذام
بنو مذحج
الحبشة
الإفريقية

ولو بلغت هذه الأحزاب والمحزبة والجنود المجندة إلى أسوار المدينة بغتة لكانت أعظم خطرًا على كيان المسلمين مما يقاس، وربما تبلغ إلى استئصال الشأفة وإبادة الخضراء، ولكن قيادة المدينة كانت قيادة متيقظة، لم تزل واضعة أناملها على العروق النابضة، تتجسس الظروف، وتقدر ما يتمخض عن مجراها، فلم تكد تتحرك هذه الجيوش عن مواضعها حتى نقلت استخبارات المدينة إلى قيادتها فيها بهذا الزحف الخطير.

وسارع رسول الله ﷺ إلى عقد مجلس استشارى أعلى، تناول فيه موضوع خطة الدفاع عن كيان المدينة، وبعد مناقشات جرت بين القادة وأهل الشورى اتفقوا على قرار قدمه الصحابى النبيل سلمان الفارسى رضي الله عنه.

قال سلمان: يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خَنْدَقْنَا علينا. وكانت خطة حكيمة لم تكن تعرفها العرب قبل ذلك.

وأسرع رسول الله ﷺ إلى تنفيذ هذه الخطة، فوكل إلى كل عشرة رجال أن يحفروا من الخندق أربعين ذراعًا، وقام المسلمون بجد ونشاط يحفرون الخندق، ورسول الله ﷺ يحثهم ويساهمهم فى عملهم هذا. ففى البخارى عن سهل بن سعد، قال: كنا مع رسول الله فى الخندق، وهم يحفرون، ونحن ننقل التراب على أكتادنا[١]، فقال رسول الله ﷺ: **«اللهم لا عَيشَ إلا عيشُ الآخرة، فاغفر للمهاجرين والأنصار»**[٢].

وعن أنس: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرين والأنصار يحفرون فى غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدًا على الجهاد ما بقينا أبدًا[٣]

وفيه عن البراء بن عازب قال: رأيته ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنى الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة، وهو ينقل من التراب ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

(١) جمع كَتَد، وهو مجتمع الكتفين. (٢) صحيح البخارى: باب غزوة الخندق ٢/ ٥٨٨.
(٣) صحيح البخارى ١/ ٣٩٧، ٢/ ٥٨٨.

فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى رغبوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

قال: ثم يمد بها صوته بآخرها، وفى رواية:

إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا[١]

كان المسلمون يعملون بهذا النشاط وهم يقاسون من شدة الجوع ما يفتت الأكباد، قال أنس: كان أهل الخندق يؤتون بملء كفى من الشعير، فيصنع لهم بإهَالَةٍ سنخة[٢] توضع بين يدى القوم، والقوم جياع، وهى بشعة فى الحلق ولها ريح[٣].

وقال أبو طلحة: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين[٤].

وبهذه المناسبة وقعت أثناء حفر الخندق آيات من أعلام النبوة، رأى جابر بن عبد الله فى النبى ﷺ خمصًا شديدًا فذبح بهيمة، وطحنت امرأته صاعًا من شعير، ثم التمس من رسول الله ﷺ سرًّا أن يأتى فى نفر من أصحابه، فقام النبى ﷺ بجميع أهل الخندق، وهم ألف، فأكلوا من ذلك الطعام وشبعوا، وبقيت بُرْمَة اللحم تغط به كما هى، وبقى العجين يخبز كما هو[٥].

وجاءت أخت النعمان بن بشير بحَفْنَة من تمر إلى الخندق ليتغدى به أبوه وخاله، فمرت برسول الله ﷺ، فطلب منها التمر، وبدده فوق ثوب، ثم دعا أهل الخندق، فجعلوا يأكلون منه وجعل التمر يزيد، حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنه يسقط من أطراف الثوب[٦].

وأعظم من هذين ما رواه البخارى عن جابر قال: إنا يوم خندق نحفر، فعرضت كُدْية شديدة، فجاءوا النبى ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت فى الخندق. فقال: «أنا نازل»، ثم قام وبطنه معصوب بحجر - ولبثنا ثلاثة لا نذوق ذواقًا - فأخذ النبى ﷺ المِعْوَل، فضرب فعاد كثيبًا أهْيل أو أهْيم[٧]، أى: صار رملًا لا يتماسك.

وقال البراء: لما كان يوم الخندق عرضت لنا فى بعض الخندق صخرة لا تأخذ منها

---

(١) المصدر نفسه ٢/ ٥٨٩.
(٢) الإهالة: الدهن، وسنخة: أى تغيرت من طول بقائها.
(٣) صحيح البخارى ٢/ ٥٨٨.
(٤) رواه الترمذى، مشكاة المصابيح ٢/ ٤٤٨.
(٥) روى ذلك البخارى ٢/ ٥٨٨، ٥٨٩.
(٦) ابن هشام ٢/ ٢١٨.
(٧) صحيح البخارى ٢/ ٥٨٨.

المعاول، فاشتكينا ذلك لرسول الله ﷺ، فجاءة وأخذ المعول فقال: «بسم الله»، ثم ضرب ضربة، وقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إنى لأنظر قصورها الحمر الساعة»، ثم ضرب الثانية فقطع آخر، فقال: «الله أكبر، أعطيت فارس، والله إنى لأبصر قصر المدائن الأبيض الآن»، ثم ضرب الثالثة، فقال: «بسم الله»، فقطع بقية الحجر، فقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إنى لأبصر أبواب صنعاء من مكانى»[(١)].

وروى ابن إسحاق مثل ذلك عن سلمان الفارسى رضي الله عنه[(٢)].

ولما كانت المدينة تحيط بها الحرات والجبال وبساتين من النخيل من كل جانب سوى الشمال، وكان النبى ﷺ يعلم أن زحف مثل هذا الجيش الكبير، ومهاجمته المدينة لا يمكن إلا من جهة الشمال، اتخذ الخندق فى هذا الجانب.

وواصل المسلمون عملهم فى حفره، فكانوا يحفرونه طول النهار، ويرجعون إلى أهليهم فى المساء، حتى تكامل الخندق حسب الخطة المنشودة، قبل أن يصل الجيش الوثنى العرمرم إلى أسوار المدينة[(٣)].

وأقبلت قريش فى أربعة آلاف، حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رُومَة بين الجُرْف وزَغَابَة، وأقبلت غَطَفَان ومن تبعهم من أهل نجد فى ستة آلاف حتى نزلوا بذَنَبِ نَقْمَى إلى جانب أحد.

] وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ Z [الأحزاب].

وأما المنافقون وضعفاء النفوس فقد تزعزعت قلوبهم لرؤية هذا الجيش] وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ Z [الأحزاب].

وخرج رسول الله ﷺ فى ثلاثة آلاف من المسلمين، فجعلوا ظهورهم إلى جبل سَلْع فتحصنوا به، والخندق بينهم وبين الكفار. وكان شعارهم: «حم لا ينصرون»، واستحلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأمر بالنساء والذرارى فجعلوا فى آطام[(٤)] المدينة.

---

(١) سنن النسائى ٢/ ٥٦، وأحمد فى مسنده ٤/ ٣٠٣ واللفظ ليس للنسائى، وفيه: عن رجل من الصحابة.

(٢) ابن هشام ٢/ ٢١٩.

(٣) المصدر نفسه ٣/ ٢٣٠، ٣٣١.

(٤) حصون.

ولما أراد المشركون مهاجمة المسلمين واقتحام المدينة، وجدوا خندقًا عريضًا يحول بينهم وبينها، فالتجأوا إلى فرض الحصار على المسلمين، بينما لم يكونوا مستعدين له حين خرجوا من ديارهم، إذ كانت هذه الخطة - كما قالوا - مكيدة ما عرفتها العرب، فلم يكونوا أدخلوها فى حسابهم رأسًا.

وأخذ المشركون يدورون حول الخندق غضابًا، يتحسسون نقطة ضعيفة ؛ لينحدروا منها، وأخذ المسلمون يتطلعون إلى جولات المشركين، يرشقونهم بالنبل، حتى لا يجترئوا على الاقتراب منه، ولا يستطيعوا أن يقتحموه، أو يهيلوا عليه التراب، ليبنوا به طريقًا يمكنهم من العبور.

وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول الخندق من غير جدوى فى ترقب نتائج الحصار، فإن ذلك لم يكن من شيمهم، فخرجت منها جماعة فيها عمرو بن عبد وُدّ وعكرمة ابن أبى جهل وضرار ابن الخطاب وغيرهم، فتيمموا مكانًا ضيقًا من الخندق فاقتحموه، وجالت بهم خيلهم فى السَّبْخة بين الخندق وسَلْع، وخرج على بن أبى طالب فى نفر من المسلمين حتى أخذوا عليهم الثغرة التى أقحموا منها خيلهم، ودعا عمرو إلى المبارزة، فانتدب له على بن أبى طالب، وقال كلمة حمى لأجلها - وكان من شجعان المشركين وأبطالهم - فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على علىّ، فتجاولا وتصاولا حتى قتله على رضي الله عنه، وانهزم الباقون حتى اقتحموا الخندق هاربين، وقد بلغ بهم الرعب إلى أن ترك عكرمة رمحه وهو منهزم عن عمرو.

وقد حاول المشركون فى بعض الأيام محاولة بليغة لاقتحام الخندق، أو لبناء الطرق فيها، ولكن المسلمين كافحوا مكافحة مجيدة، ورشقوهم بالنبل، وناضلوهم أشد النضال حتى فشل المشركون فى محاولتهم.

ولأجل الاشتغال بمثل هذه المكافحة الشديدة فات بعض الصلوات عن رسول الله ﷺ والمسلمين، ففى الصحيحين عن جابر رضي الله عنه: أن عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق، فجعل يسب كفار قريش. فقال: يا رسول الله ﷺ، ما كدت أن أصلى حتى كادت الشمس أن تغرب، فقال النبى ﷺ: «**وأنا والله ما صليتها**»، فنزلنا مع النبى ﷺ بُطْحَان، فتوضأ للصلاة، وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب[(١)].

وقد استاء رسول الله ﷺ لفوات هذه الصلاة حتى دعا على المشركين، ففى البخارى

(١) صحيح البخارى ٢/ ٥٩٠

عن على عن النبى ﷺ أنه قال يوم الخندق: «**ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم نارًا، كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس**»[(١)].

وفى مسند أحمد والشافعى أنهم حبسوه عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء فصلاهن جميعًا. قال النووى: وطريق الجمع بين هذه الروايات أن وقعة الخندق بقيت أيامًا فكان هذا فى بعض الأيام، وهذا فى بعضها. انتهى[(٢)].

ومن هنا يؤخذ أن محاولة العبور من المشركين، والمكافحة المتواصلة من المسلمين، دامت أيامًا، إلا أن الخندق لما كان حائلًا بين الجيشين لم يجر بينهما قتال مباشر أو حرب دامية، بل اقتصروا على المراماة والمناضلة.

وفى هذه المراماة قتل رجال من الجيشين، يعدون على الأصابع: ستة من المسلمين، وعشرة من المشركين، بينما كان قتل واحد أو اثنين منهم بالسيف.

وفى هذه المراماة رمى سعد بن معاذ رضي الله عنه بسهم فقطع منه الأَكْحَل[(٣)]، رماه رجل من قريش يقال له: حَبَّان بن العَرِقَة، فدعا سعد: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلى أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللهم فإنى أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان بقى من حرب قريش شىء فأبقنى لهم حتى أجاهدهم فيك، وإن كنت وضعت الحرب فافجرها واجعل موتتى فيها[(٤)]. وقال فى آخر دعائه: ولا تمتنى حتى تقر عينى من بنى قريظة[(٥)].

وبينما كان المسلمون يواجهون هذه الشدائد على جبهة المعركة، كانت أفاعى الدس والتآمر تتقلب فى جحورها، تريد إيصال السم داخل أجسادهم، انطلق كبير مجرمى بنى النضير حيى ابن أخطب إلى ديار بنى قريظة فأتى كعب بن أسد القرظى - سيد بنى قريظة وصاحب عقدهم وعهدهم، وكان قد عاقد رسول الله ﷺ على أن ينصره إذا أصابته حرب، كما تقدم - فضرب عليه حيى الباب فأغلقه كعب دونه، فما زال يكلمه حتى فتح له بابه، فقال حيى: إنى قد جئتك يا كعب بعز الدهر وببحر طَام، جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجمع الأسيال من رُومَة، وبغطفان على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بذَنَب نَقْمَى إلى جانب أحد، قد عاهدونى وعاقدونى على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه.

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٥٩٠

(٢) شرح مسلم للنووى ١/ ٢٢٧.

(٣) عِرْق فى الذراع يُفْصَد.

(٤) صحيح البخارى ٣/ ٥٩١.

(٥) ابن هشام ٣/ ٣٣٧.

فقال له كعب: جئتنى والله بذُلِّ الدهر وبجَهَام[١] قد هَرَاق ماؤه، فهو يُرْعِد ويُبْرِق، ليس فيه شيء. ويحك يا حيى فدعنى وما أنا عليه، فإنى لم أر من محمد إلا صدقا ووفاء.

فلم يزل حيى بكعب يَفْتِلُه فى الذِّرْوَة والغَارِب[٢]، حتى سمح له على أن أعطاه عهدًا من الله وميثاقًا: لئن رجعت قريش وغطفان، ولم يصيبوا محمدًا أن أدخل معك فى حصنك، حتى يصيبنى ما أصابك، فنقض كعب بن أسد عهده، وبرئ مما كان بينه وبين المسلمين، ودخل مع المشركين فى المحاربة ضد المسلمين[٣].

وفعلًا قامت يهود بنى قريظة بعمليات الحرب. قال ابن إسحاق: كانت صفية بنت عبد المطلب فى فارع حصن حسان بن ثابت، وكان حسان فيه مع النساء والصبيان، قالت صفية: فمر بنا رجل من يهود، فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا، ورسول الله ﷺ والمسلمون فى غور عدوهم، لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إن أتانا آت، قالت: فقلت: يا حسان، إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا مَنْ وراءنا مِنْ يهود، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه، فانزل إليه فاقتله.

قال: والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا، قالت: فاحتجزت[٤] ثم أخذت عمودًا، ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلته، ثم رجعت إلى الحصن وقلت: يا حسان، انزل إليه فاسلبه، فإنه لم يمنعنى من سبله إلا أنه رجل، قال: ما لى بسلبه من حاجة[٥].

وقد كان لهذا الفعل المجيد من عمة الرسول ﷺ أثر عميق فى حفظ ذرارى المسلمين ونسائهم، ويبدو أن اليهود ظنوا أن هذه الآطام والحصون فى منعة من الجيش الإسلامى – مع أنها كانت خالية عنهم تمامًا – فلم يجترئوا مرة ثانية للقيام بمثل هذا العمل، إلا أنهم أخذوا يمدون الغزاة الوثنيين بالمؤن، كدليل عملى على انضمامهم إليهم ضد المسلمين، حتى أخذ المسلمون من مؤنهم عشرين جملًا.

وانتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين فبادر إلى تحقيقه، حتى يستجلى موقف

---

(١) السحاب الذى لا ماء فيه.

(٢) الذِّروة والغارب: أعلى ظهر البعير، أى: أنه لم يزل يخادعه كما يخادع البعير إذا كان نافرا.

(٣) ابن هشام ٣/ ٢٢٠، ٢٢١.

(٤) أى: شددت وسطى.

(٥) ابن هشام ٢/ ٢٢٨ وذكر الحافظ ابن حجر: أن أحمد رواه بإسناد قوى عن عبد الله بن الزبير. فتح البارى ٦/ ٢٨٥ شرح كتاب فرض الخمس، باب ١٨ من صحيح البخارى.

قريظة، فيواجهه بما يجب من الوجهة العسكرية، وبعث لتحقيق الخبر السعدين؛ سعد بن معاذ وسعد ابن عبادة، وعبد الله بن رواحة وخَوَّات بن جبير، وقال: «**انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقًّا فالحنوا لى لحنًا أعرفه، ولا تَفُتُّوا فى أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس**». فلما دنوا منهم وجدوهم على أخبث ما يكون، فقد جاهروهم بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله ﷺ.

وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد، ولا عقد. فانصرفوا عنهم، فلما أقبلوا على رسول الله ﷺ لحنوا له، وقالوا: عَضَل وقَارَة ؛ أى: أنهم على غدر كغدر عضل وقارة بأصحاب الرَّجِيع.

وعلى رغم محاولتهم إخفاء الحقيقة تفطن الناس لجلية الأمر، فتجسد أمامهم خطر رهيب.

وقد كان أحرج موقف يقفه المسلمون، فلم يكن يحول بينهم وبين قريظة شىء يمنعهم من ضربهم من الخلف، بينما كان أمامهم جيش عرمرم لم يكونوا يستطيعون الانصراف عنه، وكانت ذراريهم ونساؤهم بمقربة من هؤلاء الغادرين فى غير منعة وحفظ، وصاروا كما قال الله تعالى:] إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ Z [الأحزاب].

ونجم النفاق من بعض المنافقين حتى قال: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. وحتى قال بعض آخر فى ملأ من رجال قومه: إن بيوتنا عورة من العدو، فائذن لنا أن نخرج، فنرجع إلى دارنا فإنها خارج المدينة. وحتى همت بنو سلمة بالفشل، وفى هؤلاء أنزل الله تعالى:] وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ Z [الأحزاب].

أما رسول الله ﷺ فتقنع بثوبه حين أتاه غَدْر قريظة، فاضطجع ومكث طويلًا حتى اشتد على الناس البلاء، ثم نهض مبشرًا يقول: «**الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين بفتح الله ونصره**»، ثم أخذ يخطط لمجابهة الظرف الراهن، وكجزء من هذه الخطة كان يبعث الحرس إلى المدينة؛ لئلا يؤتى الذرارى والنساء على غرة، ولكن كان لابد من إقدام حاسم، يفضى إلى تخاذل الأحزاب، وتحقيقًا لهذا الهدف أراد أن يصالح عُيينَة بن حصن والحارث بن

عوف رئيسى غطفان على ثلث ثمار المدينة، حتى ينصرفا بقومهما، ويخلو المسلمون لإلحاق الهزيمة الساحقة العاجلة بقريش التى اختبروا مدى قوتها وبأسها مرارًا، وجرت المراودة على ذلك، فاستشار السعدين فى ذلك، فقالا: يا رسول الله، إن كان الله أمرك بهذا فسمعًا وطاعة، وإن كان شىء تصنعه لنا فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قِرًى أو بيعًا، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف، فَصَوَّبَ رأيهما وقال: «**إنما هو شىء أصنعه لكم لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة**».

ثم إن الله عز وجل - وله الحمد - صنع أمرًا من عنده خذل به العدو وهزم جموعهم، وفَلَّ حدهم، فكان مما هيأ من ذلك أن رجلًا من غطفان يقال له: نعيم بن مسعود بن عامر الأشجعي رضي الله عنه جاء رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى قد أسلمت، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى، فمرنى ما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «**إنما أنت رجل واحد، فَخَذِّلْ عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة**»، فذهب من فوره إلى بنى قريظة - وكان عشيرًا لهم فى الجاهلية - فدخل عليهم وقال: قد عرفتم ودى إياكم، وخاصة ما بينى وبينكم، قالوا: صدقت. قال: فإن قريشًا ليسوا مثلكم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره، فإن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم ومحمدًا فانتقم منكم، قالوا: فما العمل يا نعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن. قالوا: لقد أشرت بالرأى.

ثم مضى نعيم على وجهه إلى قريش وقال لهم: تعلمون ودى لكم ونصحى لكم؟ قالوا: نعم، قال: إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه، ثم يوالونه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم، ثم ذهب إلى غطفان، فقال لهم مثل ذلك.

فلما كانت ليلة السبت من شوال - سنة ٥هـ - بعثوا إلى يهود: أنا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكُرَاع والخف[1]، فانهضوا بنا حتى نناجز محمدًا، فأرسل إليهم اليهود أن اليوم يوم السبت، وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه، ومع هذا فإنا لا نقاتل معكم

(١) يعنى بالكراع: الخيل، وبالخف: الإبل.

حتى تبعثوا إلينا رهائن، فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش وغطفان: صدقكم والله نعيم، فبعثوا إلى يهود إنا والله لا نرسل إليكم أحدًا، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمدًا، فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم. فتخاذل الفريقان، ودبت الفرقة بين صفوفهم، وخارت عزائمهم.

وكان المسلمون يدعون الله تعالى: «**اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا**»، ودعا رسول الله ﷺ على الأحزاب، فقال: «**اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم**»[(١)].

وقد سمع الله دعاء رسوله والمسلمين، فبعد أن دبت الفرقة فى صفوف المشركين وسرى بينهم التخاذل أرسل الله عليهم جندًا من الريح فجعلت تقوض خيامهم، ولا تدع لهم قِدْرًا إلا كفأتها، ولا طُنُبًا[(٢)] إلا قلعته، ولا يقر لهم قرار، وأرسل جندًا من الملائكة يزلزلونهم، ويلقون فى قلوبهم الرعب والخوف.

وأرسل رسول الله ﷺ فى تلك الليلة الباردة القارسة حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحالة، وقد تهيأوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره برحيل القوم، فأصبح رسول الله ﷺ وقد رد الله عدوه بغيظهم لم ينالوا خيرًا وكفاه الله قتالهم، فصدق وعده، وأعز جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فرجع إلى المدينة.

وكانت غزوة الخندق سنة خمس من الهجرة فى شوال على أصح القولين، وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ والمسلمين شهرًا أو نحو شهر. ويبدو بعد الجمع بين المصادر أن بداية فرض الحصار كانت فى شوال ونهايته فى ذى القعدة، وعند ابن سعد أن انصراف رسول الله ﷺ من الخندق كان يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى القعدة.

إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر، بل كانت معركة أعصاب، لم يجر فيها قتال مرير، إلا أنها كانت من أحسم المعارك فى تاريخ الإسلام، تمخضت عن تخاذل المشركين، وأفادت أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التى تنمو فى المدينة ؛ لأن العرب لم تكن تستطيع أن تأتى بجمع أقوى مما أتت به فى الأحزاب، ولذلك قال رسول الله ﷺ حين أجلى الله الأحزاب: «**الآن نغزوهم، ولا يغزونا، نحن نسير إليهم**»[(٣)].

---

(١) صحيح البخارى: كتاب الجهاد ١/ ٤١١، وكتاب المغازى ٢/ ٥٩٠.

(٢) هى الحبال تُشد بها الخيمة.

(٣) صحيح البخارى ٢/ ٥٩٠.

غزوة بنى قريظة

وفى اليوم الذى رجع فيه رسول الله إلى المدينة، جاءه جبريل عليه السلام عند الظهر، وهو يغتسل فى بيت أم سلمة، فقال: أو قد وضعت السلاح؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتهم، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، فانهض بمن معك إلى بنى قريظة، فإنى سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف فى قلوبهم الرعب، فسار جبريل فى موكبه من الملائكة.

وأمر رسول الله ﷺ مؤذنًا فأذن فى الناس: من كان سامعًا مطيعًا فلا يُصَلِّيَنَّ العصر إلا ببنى قريظة، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وأعطى الراية على بن أبى طالب، وقدّمه إلى بنى قريظة، فسار علىّ حتى إذا دنا من حصونهم سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ.

وخرج رسول الله ﷺ فى موكبه من المهاجرين والأنصار، حتى نزل على بئر من آبار قريظة يقال لها: بئر أنًا. وبادر المسلمون إلى امتثال أمره، ونهضوا من فورهم، وتحركوا نحو قريظة، وأدركتهم العصر فى الطريق فقال بعضهم: لا نصليها إلا فى بنى قريظة كما أمرنا، حتى إن رجالًا منهم صلوا العصر بعد العشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يرد منا ذلك، وإنما أراد سرعة الخروج، فصلوها فى الطريق، فلم يعنف واحدة من الطائفتين.

هكذا تحرك الجيش الإسلامى نحو بنى قريظة أرسالًا حتى تلاحقوا بالنبى ﷺ، وهم ثلاثة آلاف، والخيل ثلاثون فرسًا، فنازلوا حصون بنى قريظة، وفرضوا عليهم الحصار.

ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال: إما أن يسلموا ويدخلوا مع محمد ﷺ فى دينه، فيأمنوا على دمائهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم - وقد قال لهم: والله، لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل، وأنه الذى تجدونه فى كتابكم - وإما أن يقتلوا ذراريهم ونساءهم بأيديهم، ويخرجوا إلى النبى ﷺ بالسيوف مُصْلِتِين[1]، يناجزونه حتى يظفروا بهم، أو يقتلوا عن آخرهم، وإما أن يهجموا على رسول الله ﷺ وأصحابه، ويكبسوهم يوم السبت ؛ لأنهم قد أمنوا أن يقاتلوهم فيه، فأبوا أن يجيبوه إلى واحدة من هذه الخصال الثلاث، وحينئذ قال سيدهم كعب بن أسد - فى انزعاج وغضب: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازمًا.

ولم يبق لقريظة بعد رد هذه الخصال الثلاث إلا أن ينزلوا على حكم رسول الله ﷺ،

(١) مجردة من أغمادها.

ولكنهم أرادوا أن يتصلوا ببعض حلفائهم من المسلمين، لعلهم يتعرفون ماذا سيحل بهم إذا نزلوا على حكمه، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن أرسل إلينا أبا لُبَابة نستشيره، وكان حليفًا لهم، وكانت أمواله وولده فى منطقتهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجَهَشَ[1] النساء والصبيان يبكون فى وجهه، فَرَقَّ لهم، وقالوا: يا أبا لبابة، أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم ؛ وأشار بيده إلى حلقه، يقول: إنه الذبح، ثم علم من فوره أنه خان الله ورسوله فمضى على وجهه، ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ حتى أتى المسجد النبوى بالمدينة، فربط نفسه بسارية المسجد، وحلف ألا يحله إلا رسول الله ﷺ بيده، وأنه لا يدخل أرض بنى قريظة أبدًا. فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره - وكان قد استبطأه - قال: **«أما إنه لو جاءنى لاستغفرت له، أما إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه»**.

وبرغم ما أشار إليه أبو لبابة قررت قريظة النزول على حكم رسول الله ﷺ، ولقد كان باستطاعة اليهود أن يتحملوا الحصار الطويل ؛ لتوفر المواد الغذائية والمياه والآبار ومناعة الحصون؛ ولأن المسلمين كانوا يقاسون البرد القارس والجوع الشديد وهم فى العراء، مع شدة التعب الذى اعتراهم ؛ لمواصلة الأعمال الحربية من قبل بداية معركة الأحزاب، إلا أن حرب قريظة كانت حرب أعصاب، فقد قذف الله فى قلوبهم الرعب، وأخذت معنوياتهم تنهار، وبلغ هذا الانهيار إلى نهايته أن تقدم على بن أبى طالب والزبير بن العوام، وصاح على: يا كتيبة الإيمان، والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم.

وحينئذ بادروا إلى النزول على حكم رسول الله ﷺ، وأمر رسول الله ﷺ باعتقال الرجال، فوضعت القيود فى أيديهم تحت إشراف محمد بن مسلمة الأنصارى، وجعلت النساء والذرارى بمعزل عن الرجال فى ناحية، وقامت الأوس إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، قد فعلت فى بنى قينقاع ما قد علمت، وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا، فأحسن فيهم، فقال: **«ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟»** قالوا: بلى. قال: **«فذاك إلى سعد بن معاذ»**. قالوا: قد رضينا.

فأرسل إلى سعد بن معاذ، وكان فى المدينة لم يخرج معهم للجرح الذى كان قد أصاب أَكْحَلَه فى معركة الأحزاب. فأُركب حمارًا، وجاء إلى رسول الله ﷺ، فجعلوا يقولون، وهم كَنَفَيْهِ: يا سعد، أجمل فى مواليك، فأحسن فيهم، فإن رسول الله قد حكمك لتحسن فيهم، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئًا، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة

(١) تهيأ.

لائم، فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة فنعى إليهم القوم.

ولما انتهى سعد إلى النبى ﷺ قال للصحابة: «**قوموا إلى سيدكم**»، فلما أنزلوه قالوا: يا سعد، إن هؤلاء قد نزلوا على حكمك. قال: وحكمى نافذ عليهم؟ قالوا: نعم. قال: وعلى المسلمين؟ قالوا: نعم، قال: وعلى من هاهنا؟ وأعرض بوجهه وأشار إلى ناحية رسول الله ﷺ إجلالًا له وتعظيمًا. قال: «**نعم، وعلىّ**». قال: فإنى أحكم فيهم أن يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسم الأموال، فقال رسول الله ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات**».

وكان حكم سعد فى غاية العدل والإنصاف، فإن بنى قريظة، بالإضافة إلى ما ارتكبوا من الغدر الشنيع، كانوا قد جمعوا لإبادة المسلمين ألفًا وخمسمائة سيف، وألفين من الرماح، وثلاثمائة درع، وخمسمائة ترس، وحَجَفَة[1]، حصل عليها المسلمون بعد فتح ديارهم.

وأمر رسول الله ﷺ فحبست بنو قريظة فى دار بنت الحارث امرأة من بنى النجار، وحفرت لهم خنادق فى سوق المدينة، ثم أمر بهم، فجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسالًا أرسالًا، وتضرب فى تلك الخنادق أعناقهم. فقال من كان بعد فى الحبس لرئيسهم كعب بن أسد: ما تراه يصنع بنا؟ فقال: أفى كل موطن لا تعقلون؟ أما ترون الداعى لا ينزع؟ والذاهب منكم لا يرجع؟ هو والله القتل - وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة، فضربت أعناقهم.

وهكذا تم استئصال أفاعى الغدر والخيانة، الذين كانوا قد نقضوا الميثاق المؤكد، وعاونوا الأحزاب على إبادة المسلمين فى أحرج ساعة كانوا يمرون بها فى حياتهم، وكانوا قد صاروا بعملهم هذا من أكابر مجرمى الحروب الذين يستحقون المحاكمة والإعدام.

وقتل مع هؤلاء شيطان بنى النضير، وأحد أكابر مجرمى معركة الأحزاب حيى ابن أخطب والد صفية أم المؤمنين رضي الله عنها، كان قد دخل مع بنى قريظة فى حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان ؛ وفاء لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه حينما جاء يثيره على الغدر والخيانة أيام غزوة الأحزاب، فلما أتى به - وعليه حُلَّة قد شقها من كل ناحية بقدر أنملة لئلا يُسْلَبَها - مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، قال لرسول الله ﷺ: أما والله ما لمت نفسى فى معاداتك، ولكن من يُغالب الله يُغْلَب. ثم قال: أيها الناس، لا بأس بأمر الله، كتاب وقَدَر ومَلْحَمَة كتبها الله على بنى إسرائيل، ثم جلس، فضربت عنقه.

(١) ترس من جلد.

وقتل من نسائهم امرأة واحدة كانت قد طرحت الرحى على خَلَّاد بن سُوَيْد فقتلته، فقتلت لأجل ذلك.

وكان قد أمر رسول الله بقتل من أَنْبَتَ، وترك من لم ينبت، فكان ممن لم ينبت عطية القُرَظِي، فترك حيًّا فأسلم، وله صحبة.

واستوهب ثابت بن قيس الزبير بن باطا وأهله وماله - وكانت للزبير يد عند ثابت - فوهبهم له رسول الله ﷺ، فقال له ثابت بن قيس: قد وهبك رسول الله ﷺ إلى، ووهب لى مالك وأهلك فهم لك. فقال الزبير بعد أن علم بمقتل قومه: سألتك بيدى عندك يا ثابت إلا ألحقتنى بالأحبة، فضرب عنقه، وألحقه بالأحبة من اليهود، واستحيا ثابت من ولد الزبير بن باطا عبد الرحمن بن الزبير، فأسلم وله صحبة.

واستوهبت أم المنذر سلمى بنت قيس النجارية رفاعة بن سموأل القرظى، فوهبه لها فاستحيته، فأسلم وله صحبة.

وأسلم منهم تلك الليلة نفر قبل النزول، فحقنوا دماءهم وأموالهم وذراريهم.

وخرج تلك الليلة عمرو بن سعدى - وكان رجلًا لم يدخل مع بنى قريظة فى غدرهم برسول الله ﷺ - فرآه محمد بن مسلمة قائد الحرس النبوى، فخلى سبيله حين عرفه، فلم يعلم أين ذهب.

وقسم رسول الله ﷺ أموال بنى قريظة بعد أن أخرج منها الخمس، فأسهم للفارس ثلاثة أسهم؛ سهمان للفرس وسهم للفارس، وأسهم للراجل سهمًا واحدًا، وبعث من السبايا إلى نجد تحت إشراف سعد بن زيد الأنصارى فابتاع بها خيلًا وسلاحًا.

واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه من نسائهم رَيْحَانة بنت عمرو بن خُنَافة، فكانت عنده حتى توفى عنها وهى فى ملكه، هذا ما قاله ابن إسحاق[1]. وقال الكلبى: إنه ﷺ أعتقها، وتزوجها سنة ٦ هـ، وماتت مرجعه من حجة الوداع، فدفنها بالبقيع[2].

ولما تم أمر قريظة أجيبت دعوة العبد الصالح سعد بن معاذ رضي الله عنه - التى قدمنا ذكرها فى غزوة الأحزاب - وكان النبى ﷺ قد ضرب له خيمة فى المسجد ليعوده من قريب، فلما تم أمر قريظة انتقضت جراحته. قالت عائشة: فانفجرت من لَبَّتِهِ فلم يَرُعْهُمْ - وفى المسجد خيمة من بنى غفار - إلا والدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الذى يأتينا من

(١) انظر: ابن هشام ٢/ ٢٤٥.

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر، ص ١٢.

قبلكم، فإذا سعد يغذو جرحه دمًا، فمات منها[١].

وفى الصحيحين عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «**اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ**». وصحح الترمذى من حديث أنس قال: لما حملت جنازة سعد بن معاذ[٢] قال المنافقون: ما أخف جنازته، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الملائكة كانت تحمله**»[٣].

قتل فى حصار بنى قريظة رجل واحد من المسلمين، وهو خلاد بن سُوَيْد الذى طرحت عليه الرحى امرأة من قريظة. ومات فى الحصار أبو سِنان بن مِحْصَن أخو عُكَّاشَة.

وأما أبو لُبابة، فأقام مرتبطًا بالجذع ست ليال، تأتيه امرأته فى وقت كل صلاة فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط بالجذع، ثم نزلت توبته على رسول الله ﷺ سَحَرًا وهو فى بيت أم سلمة، فقامت على باب حجرتها، وقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك، فثار الناس ليطلقوه، فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله ﷺ، فلما مر النبى ﷺ خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه.

وقعت هذه الغزوة فى ذى القعدة سنة ٥هـ، ودام الحصار خمسًا وعشرين ليلة[٤].

وأنزل الله تعالى فى غزوة الأحزاب وبنى قريظة آيات من سورة الأحزاب، ذكر فيها أهم جزئيات الوقعة، وبين حال المؤمنين والمنافقين، ثم تخذيل الأحزاب، ونتائج الغدر من أهل الكتاب.

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٥٩١ واللَّبَّة: موضع القلادة من الصدر. ويرعهم: يفزعهم.

(٢) صحيح البخارى ١/ ٥٣٦ وصحيح مسلم ٣/ ٢٩٤، وجامع الترمذى ٢/ ٢٢٥.

(٣) جامع الترمذى ٢/ ٥٢٢.

(٤) ابن هشام ٢/ ٢٣٧، ٢٣٨، وانظر لتفصيل هذه الغزوة: المصدر المذكور ٢/ ٢٣٢- ٢٧٣، وصحيح البخارى ٢ / ٥٩٠، ٥٩١، وزاد المعاد ٣/ ٧٢-٧٤.

النشاط العسكرى بعد هذه الغزوة

مقتل سَلَّام بن أبى الحُقَيْق:

كان سلام بن أبى الحقيق - وكنيته أبو رافع - من أكابر مجرمى اليهود الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأعانهم بالمؤن والأموال الكثيرة[١]، وكان يؤذى رسول الله ﷺ، فلما فرغ المسلمون من أمر قريظة استأذنت الخزرج رسول الله ﷺ فى قتله. وكان قتل كعب بن الأشرف على أيدى رجال من الأوس، فرغبت الخزرج فى إحراز فضيلة مثل فضيلتهم، فلذلك أسرعوا إلى هذا الاستئذان.

وأذن رسول الله فى قتله ونهى عن قتل النساء والصبيان، فخرجت مفرزة قوامها خمسة رجال، كلهم من بنى سلمة من الخزرج، قائدهم عبد الله بن عَتِيك.

خرجت هذه المفرزة، واتجهت نحو خيبر ؛ إذ كان هناك حصن أبى رافع، فلما دنوا منه، وقد غربت الشمس، وراح الناس بسرحهم، قال عبد الله بن عتيك لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإنى منطلق ومتلطف للبواب، لعلى أن أدخل، فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجته، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله، إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإنى أريد أن أغلق الباب.

قال عبد الله بن عَتِيك: فدخلت فكمنت، فلما دخل الناس أغلق الباب، ثم علق الأغاليق على وَدٍّ[٢]. قال: فقمت إلى الأقاليد فأخذتها، ففتحت الباب، وكان أبو رافع يسمر عنده، وكان فى علالى له، فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه، فجعلت كلما فتحت بابًا أغلقت علىّ من داخل. قلت: إن القوم لو نَذِروا بى لم يخلصوا إلى حتى أقتله، فانتهيت إليه، فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله، لا أدرى أين هو من البيت. قلت: أبا رافع، قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش، فما أغنيت شيئًا، وصاح، فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه، فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأمك الويل، إن رجلًا فى البيت ضربنى قبل بالسيف. قال: فأضربه ضربة أثخنته ولم أقتله. ثم وضعت ضَبِيب السيف[٣] فى بطنه حتى أخذ فى ظهره، فعرفت أنى قتلته، فجعلت

(١) انظر: فتح البارى ٧/ ٣٤٣.
(٢) أى: علق المفاتيح على وتد.
(٣) حدّه.

أفتح الأبواب بابًا بابًا، حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلى، وأنا أرى أنى قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت فى ليلة مقمرة، فانكسرت ساقى، فعصبتها بعمامة، ثم انطلقت حتى جلست على الباب. فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته؟ فلما صاح الديك قام الناعى على السور، فقال: أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابى فقلت: النجاء، فقد قتل الله أبا رافع. فانتهيت إلى النبى ﷺ، فحدثته فقال: «**ابسط رجلك**»، فبسطت رجلى فمسحها، فكأنما لم أشتكها[(١)].

هذه رواية البخارى، وعند ابن إسحاق أن جميع النفر دخلوا على أبى رافع واشتركوا فى قتله، وأن الذى تحامل عليه بالسيف حتى قتله هو عبد الله بن أنيس، وفيه: أنهم لما قتلوه ليلًا، وانكسرت ساق عبد الله بن عتيك حملوه، وأتوا مَنْهَرًا[(٢)] من عيونهم فدخلوا فيه، وأوقد اليهود النيران واشتدوا فى كل وجه، حتى إذا يئسوا رجعوا إلى صاحبهم، وأنهم حين رجعوا احتملوا عبد الله بن عتيك حتى قدموا على رسول الله ﷺ[(٣)].

كان مبعث هذه السرية فى ذى القعدة أو ذى الحجة سنة ٥ هـ[(٤)].

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الأحزاب وقريظة أخذ يوجه حملات تأديبية إلى القبائل والأعراب، الذين لم يكونوا يستكينون للأمن والسلام إلا بالقوة القاهرة.

سرية محمد بن مسلمة:

وكانت أول سرية بعد الفراغ من الأحزاب وقريظة، وكان عدد قوات هذه السرية ثلاثين راكبًا.

تحركت هذه السرية إلى القرطاء بناحية ضَرِيَّة بالبَكَرات من أرض نجد، وبين ضرية والمدينة سبع ليال، تحركت لعشر ليال خلون من المحرم سنة ٦ هـ إلى بطن بنى بكر بن كلاب. فلما أغارت عليهم هربوا، فاستاق المسلمون نعما وشاء، وقدموا المدينة لليلة بقيت من المحرم ومعهم ثُمَامَة بن أثال الحنفى سيد بنى حنيفة، كان قد خرج متنكرًا لاغتيال النبى ﷺ بأمر مسيلمة الكذاب[(٥)]، فأخذه المسلمون، فلما جاءوا به ربطوه بسارية من سوارى المسجد، فخرج إليه النبى ﷺ فقال: «**ما ذا عندك يا ثمامة؟**» فقال: عندى خير يا

(١) صحيح البخارى ٢/ ٥٧٧.

(٢) شق فى الحصن يجرى منه الماء.

(٣) ابن هشام ٢/ ٢٧٤، ٢٧٥.

(٤) رحمة للعالمين ٢/ ٢٢٣، مع مايؤخذ من المصادر الأخرى المذكورة فى غزوة الأحزاب وقريظة.

(٥) السيرة الحلبية ٢/ ٢٩٧.

محمد، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فَسَلْ تعط منه ماشئت، فتركه، ثم مرّ به مرة أخرى ؛ فقال له مثل ذلك، فرد عليه كما رد عليه أولًا، ثم مر مرة ثالثة فقال - بعد ما دار بينهما الكلام السابق: «أطلقوا ثمامة»، فأطلقوه، فذهب إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل، ثم جاءه فأسلم، وقال: والله، ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلى من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى، والله ما كان على وجه الأرض دين أبغض إلى من دينك، فقد أصبح دينك أحب الأديان إلى، وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة، فبشره رسول الله ﷺ، وأمره أن يعتمر، فلما قدم على قريش قالوا: صبأت يا ثمامة، قال: لا والله، ولكنى أسلمت مع محمد ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ. وكانت يمامة ريف مكة، فانصرف إلى بلاده، ومنع الحمل إلى مكة، حتى جهدت قريش، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة يخلى إليه حمل الطعام، ففعل رسول الله ﷺ[1].

غزوة بنى لَحْيَان:

بنو لحيان هم الذين كانوا قد غدروا بعشرة من أصحاب رسول الله ﷺ بالرَّجِيع، وتسببوا فى إعدامهم، ولكن لما كانت ديارهم متوغلة فى الحجاز إلى حدود مكة، والتارات الشديدة قائمة بين المسلمين وقريش والأعراب، لم يكن يرى رسول الله ﷺ أن يتوغل فى البلاد بمقربة من العدو الأكبر، فلما تخاذلت الأحزاب، واستوهنت عزائمهم، واستكانوا للظروف الراهنة إلى حد ما، رأى أن الوقت قد آن لأن يأخذ من بنى لحيان ثأر أصحابه المقتولين بالرجيع، فخرج إليهم فى ربيع الأول أو جمادى الأولى سنة ٦ هـ فى مائتين من أصحابه، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأظهر أنه يريد الشام، ثم أسرع السير حتى انتهى إلى بطن غُرَان - واد بين أَمَجَ وعُسْفَان - حيث كان مصاب أصحابه، فترحم عليهم ودعا لهم، وسمعت به بنو لحيان فهربوا فى رءوس الجبال، فلم يقدر منهم على أحد، فأقام يومين بأرضهم، وبعث السرايا، فلم يقدروا عليهم، فسار إلى عسفان، فبعث عشرة فوارس إلى كُرَاع الغَمِيم لتسمع به قريش، ثم رجع إلى المدينة. وكانت غيبته عنها أربع عشرة ليلة.

متابعة البعوث والسرايا:

ثم تابع رسول الله ﷺ فى إرسال البعوث والسرايا، وهاك صورة مصغرة منها:

(١) زاد المعاد ٢/ ١١٩، وصحيح البخارى، ح (٤٣٧٢) وغيره، وفتح البارى ٧/ ٦٨٨.

١ – سرية عُكَّاشَة بن مِحْصَن إلى الغَمْر فى ربيع الأول أو الآخر سنة ٦هـ. خرج عكاشة فى أربعين رجلًا إلى الغمْر، ماء لبنى أسد، ففر القوم، وأصاب المسلمون مائتى بعير ساقوها إلى المدينة.

٢ – سرية محمد بن مَسْلَمَة إلى ذى القَصَّة فى ربيع الأول أو الآخر سنة ٦هـ. خرج ابن مسلمة فى عشرة رجال إلى ذى القصة فى ديار بنى ثعلبة، فكمن القوم لهم – وهم مائة – فلما ناموا قتلوهم إلا ابن مسلمة فإنه أفلت منهم جريحًا.

٣ – سرية أبى عبيدة بن الجراح إلى ذى القصة فى ربيع الآخر سنة ٦هـ، وقد بعثه النبى ﷺ على إثر مقتل أصحاب محمد بن مسلمة، فخرج ومعه أربعون رجلًا إلى مصارعهم، فساروا ليلتهم مشاة، ووافوا بنى ثعلبة مع الصبح فأغاروا عليهم، فأعجزوهم هربًا فى الجبال، وأصابوا رجلًا واحدًا فأسلم، وغنموا نَعَما وشاء.

٤ – سرية زيد بن حارثة إلى الجَمُوم فى ربيع الآخر سنة ٦هـ – والجموم ماء لبنى سليم فى مَرِّ الظَّهْرَان – خرج إليهم زيد فأصاب امرأة من مُزَيْنَة يقال لها: حليمة، فدلتهم على محلة من بنى سليم أصابوا فيها نعما وشاء وأسرى، فلما قفل زيد بما أصاب وهب رسول الله ﷺ للمزينية نفسها وزوجها.

٥ – سرية زيد إلى العِيص فى جمادى الأولى سنة ٦ هـ فى سبعين ومائة راكب، وفيها أخذت أموال عير لقريش كان قائدها أبو العاص خَتَن رسول الله ﷺ. وأفلت أبو العاص، فأتى زينب فاستجار بها، وسألها أن تطلب من رسول الله ﷺ رد أموال العير عليه ففعلت، وأشار رسول الله ﷺ على الناس برد الأموال من غير أن يكرههم، فردوا الكثير والقليل والكبير والصغير حتى رجع أبو العاص إلى مكة، وأدى الودائع إلى أهلها، ثم أسلم وهاجر، فرد عليه رسول الله ﷺ زينب بالنكاح الأول بعد ثلاث سنين ونيف، كما ثبت فى الحديث الصحيح[(١)] ردها بالنكاح الأول ؛ لأن آية تحريم المسلمات على الكفار لم تكن نزلت إذ ذاك، وأما ما ورد من الحديث من أنه رد عليه بنكاح جديد، أو رد عليه بعد ست سنين فلا يصح معنى، كما أنه ليس بصحيح سندًا[(٢)]. والعجب ممن يتمسكون بهذا الحديث الضعيف فإنهم يقولون: إن أبا العاص أسلم فى أواخر سنة ثمان قبيل الفتح. ثم يناقضون أنفسهم، فيقولون: إن زينب ماتت فى أوائل سنة ثمان، وقد بسطنا الكلام شيئًا فى تعليقنا

(١) انظر: سنن أبى داود مع شرحه عون المعبود: باب إلى متى ترد عليه امرأته إذا أسلم بعدها؟.

(٢) انظر الكلام على الحديثين فى: تحفة الأحوذى ٢/ ١٩٥، ١٩٦.

على بلوغ المرام[(١)]. وجنح موسى بن عقبة إلى أن هذا الحادث وقع فى سنة ٧هـ من قبل أبى بصير وأصحابه، ولكن ذلك لا يطابق الحديث الصحيح ولا الضعيف.

٦ - سرية زيد أيضًا إلى الطَّرِف أو الطَّرِق فى جمادى الآخر سنة ٦ هـ. خرج زيد فى خمسة عشر رجلًا إلى بنى ثعلبة فهربت الأعراب، وخافوا أن يكون رسول الله ﷺ سار إليهم، فأصاب من نَعَمِهِم عشرين بعيرًا، وغاب أربع ليال.

٧ - سرية زيد أيضًا إلى وادى القرى فى رجب سنة ٦ هـ. خرج زيد فى اثنى عشر رجلًا إلى وادى القرى؛ لاستكشاف حركات العدو إن كانت هناك، فهجم عليهم سكان وادى القرى ؛ فقتلوا تسعة، وأفلتت ثلاثة فيهم زيد بن حارثة[(٢)].

٨ - سرية الخَبَط - تذكر هذه السرية فى رجب سنة ٨هـ، ولكن السياق يدل على أنها كانت قبل الحديبية - قال جابر: بعثنا النبى ﷺ فى ثلاثمائة راكب، أميرنا أبو عبيدة بن الجراح، نرصد عيرًا لقريش، فأصابنا جوع شديد حتى أكلنا الخبط، فسمى جيش الخبط، فنحر رجل ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم نحر ثلاث جزائر، ثم إن أبا عبيدة نهاه، فألقى إلينا البحر دابة يقال لها: العَنْبَر، فأكلنا منه نصف شهر، وادَّهَنَّا منه حتى ثابت منه أجسامنا، وصلحت، وأخذ أبو عبيدة ضلعًا من أضلاعه، فنظر إلى أطول رجل فى الجيش وأطول جمل، فحمل عليه، ومر تحته، وتزودنا من لحمه وَشَائِق، فلما قدمنا المدينة، أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا له ذلك، فقال: «**هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شىء تطعمونا؟**» فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه[(٣)].

وإنما قلنا: إن سياق هذه السرية يدل على أنها كانت قبل الحديبية؛ لأن المسلمين لم يكونوا يتعرضون لعير قريش بعد صلح الحديبية.

---

(١) وممن ذكر هذه السرية فى حوادث سنة ٦ هـ ابن حجر فى فتح البارى ٧/ ٤٩٨.

(٢) رحمة للعالمين ٢/ ٢٢٦، وانظر لهذه السرايا المصدر المذكور، وزاد المعاد ٢/ ١٢٠- ١٢٢، وحواشى تلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٢٨، ٢٩.

(٣) صحيح البخارى ٢/ ٦٢٥، ٦٢٦، وصحيح مسلم ٢/ ١٤٥، ١٤٦.

غزوة بنى المُصطلق أو غزوة المريسيع
(فى شعبان سنة ٥ أو ٦ هـ)

وهذه الغزوة وإن لم تكن طويلة الذيل، عريضة الأطراف من حيث الوجهة العسكرية، إلا أنها وقعت فيها وقائع أحدثت البلبلة والاضطراب فى المجتمع الإسلامى، وتمخضت عن افتضاح المنافقين، والتشريعات التعزيرية التى أعطت المجتمع الإسلامى صورة خاصة من النبل والكرامة وطهارة النفوس. ونسرد الغزوة أولًا، ثم نذكر تلك الوقائع.

كانت هذه الغزوة فى شعبان سنة خمس عند عامة أهل المغازى، وسنة ست على قول ابن إسحاق[(١)].

وسببها: أنه بلغه ﷺ أن رئيس بنى المصطلق الحارث بن أبى ضِرَار سار فى قومه ومن قدر عليه من العرب يريدون حرب رسول الله ﷺ، فبعث بُرَيْدَة بن الحصيب الأسلمى لتحقيق الخبر، فأتاهم، ولقى الحارث بن أبى ضرار وكلمه، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر.

وبعد أن تأكد لديه ﷺ صحة الخبر ندب الصحابة، وأسرع فى الخروج، وكان خروجه لليلتين خلتا من شعبان، وخرج معه جماعة من المنافقين لم يخرجوا فى غزاة قبلها، واستعمل على المدينة زيد ابن حارثة، وقيل: أبا ذر، وقيل: نُمَيْلَة بن عبد الله الليثى، وكان الحارث ابن أبى ضرار قد وجه عينًا؛ ليأتيه بخبر الجيش الإسلامى، فألقى المسلمون عليه القبض وقتلوه.

---

(١) واستدل على ذلك بما ثبت فى حديث الإفك من أن القضية كانت بعد ما أنزل الحجاب، وآية الحجاب نزلت فى شأن زينب، وزينب إذ ذاك كانت تحته، فإنه ﷺ سألها عن عائشة فقالت: أحمى سمعى وبصرى، قالت عائشة: وهى التى كانت تسامينى من أزواج النبى ﷺ، وقد عقد عليها النبى ﷺ فى أواخر سنة خمس بعد غزوة بنى قريظة، وأما ما وقع فى حديث الإفك من أن سعد بن معاذ وسعد بن عبادة تسارعا فى أعقاب الإفك، ومعلوم أن سعد ابن معاذ مات عقب غزوة بنى قريظة، فالظاهر أن هذا وهم من الراوى، فقد روى ابن إسحاق حديث الإفك عن الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن عائشة، فلم يذكر فيه سعد بن معاذ، بل ذكر أسيد بن حضير، قال أبو محمد ابن حزم: وهذا هو الصحيح الذى لا شك فيه، وذكر سعد بن معاذ وَهْم (وانظر: زاد المعاد ٢/ ١١٥).

أما الذين قالوا بوقوع هذه الغزوة سنة ٥ هـ فقد قدموا عقده ﷺ على زينب إلى السنة الرابعة أو أوائل السنة الخامسة، وقالوا: إن ذكر سعد بن معاذ ليس بوهم، بل هو ثابت تمامًا، والله أعلم.

ولما بلغ الحارث بن أبى ضرار ومن معه مسير رسول الله ﷺ وقتله عينه، خافوا خوفًا شديدًا وتفرق عنهم من كان معهم من العرب، وانتهى رسول الله ﷺ إلى المُرَيْسِيع - بالضم فالفتح مصغرًا، اسم لماء من مياههم فى ناحية قُدَيْد إلى الساحل - فتهيأوا للقتال. وَصَفَّ رسول الله ﷺ أصحابه، ورأية المهاجرين مع أبى بكر الصديق، ورأية الأنصار مع سعد بن عبادة، فتراموا بالنبل ساعة، ثم أمر رسول الله ﷺ فحملوا حملة رجل واحد، فكانت النصرة وانهزم المشركون، وقتل من قتل، وسبى رسول الله ﷺ النساء والذرارى والنعم والشاء، ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد، قتله رجل من الأنصار ظنًا منه أنه من العدو.

كذا قال أهل المغازى والسير، قال ابن القيم: هو وَهْم، فإنه لم يكن بينهم قتال، وإنما أغار عليهم على الماء فسبى ذراريهم وأموالهم، كما فى الصحيح أغار رسول ﷺ على بنى المصطلق وهم غارون، وذكر الحديث[(١)]. انتهى.

وكان من جملة السبى: جُوَيْرِيَة بنت الحارث سيد القوم، وقعت فى سهم ثابت ابن قيس، فكاتبها، فأدى عنها رسول الله ﷺ وتزوجها، فأعتق المسلمون بسبب هذا التزويج مائة أهل بيت من بنى المصطلق قد أسلموا، وقالوا: أصهار رسول الله ﷺ[(٢)].

وأما الوقائع التى حدثت فى هذه الغزوة، فلأجل أن مبعثها كان هو رأس النفاق عبد الله بن أبى وأصحابه، نرى أن نورد أولًا شيئًا من أفعالهم فى المجتمع الإسلامى.

دور المنافقين قبل غزوة بنى المصطلق:

قدمنا مرارًا أن عبد الله بن أبى كان يَحْنَقُ على الإسلام والمسلمين، ولاسيما على رسول الله ﷺ حَنَقًا شديدًا ؛ لأن الأوس والخزرج كانوا قد اتفقوا على سيادته، وكانوا ينظمون له الخَرَزَ ليتوجوه، إذ دخل فيهم الإسلام، فصرفهم عن ابن أبى، فكان يرى أن رسول الله ﷺ هو الذى استلبه ملكه.

وقد ظهر حنقه هذا وتحرقه منذ بداية الهجرة قبل أن يتظاهر بالإسلام، وبعد أن تظاهر به. ركب رسول الله ﷺ مرة على حمار ليعود سعد بن عبادة، فمر بمجلس فيه عبد الله بن أبى فخَمَّرَ ابن أبى أنفه، وقال: لا تُغَبِّرُوا علينا[(٣)]. ولما تلا رسول الله ﷺ على المجلس

(١) انظر: صحيح البخارى: كتاب العتق ١/ ٣٤٥، وانظر أيضًا: فتح البارى ٥/ ٢٠٢ و ٧/ ٤٣١.
(٢) زاد المعاد ٢/ ١١٢، ١١٣، وابن هشام ٢/ ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٤، ٢٩٥.
(٣) لا تثيروا علينا الغبار.

القرآن، قال: اجلس فى بيتك، ولا تؤذنا فى مجالسنا[١].

وهذا قبل أن يتظاهر بالإسلام، ولما تظاهر به بعد بدر لم يزل إلا عدوًّا لله ولرسوله وللمؤمنين، ولم يكن يفكر إلا فى تشتيت المجتمع الإسلامى وتوهين كلمة الإسلام. وكان يوالى أعداءه، وقد تدخل فى أمر بنى قينقاع كما ذكرنا، وكذلك جاء فى غزوة أحد من الشر والغدر والتفريق بين المسلمين، وإثارة الارتباك والفوضى فى صفوفهم بما مضى.

وكان من شدة مكر هذا المنافق وخداعه بالمؤمنين أنه كان بعد التظاهر بالإسلام، يقوم كل جمعة حين يجلس رسول الله ﷺ للخطبة، فيقول: هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزكم به، فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس، فيقوم رسول الله ﷺ ويخطب. وكان من وقاحة هذا المنافق أنه قام فى يوم الجمعة التى بعد أحد - مع ما ارتكبه من الشر والغدر الشنيع - قام ليقول ما كان يقوله من قبل، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه، وقالوا له: اجلس أى عدو الله، لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت، فخرج يتخطى رقاب الناس، وهو يقول: والله لكأنما قلت بُجْرًا أن قمت أشدد أمره، فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد... فقال: ويلك، ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ، قال: والله ما أبتغى أن يستغفر لى[٢].

وكانت له اتصالات ببنى النضير يؤامر معهم ضد المسلمين حتى قال لهم:] F Z Q P O N M L K J I H G [الحشر: ١١].

وكذلك فعل هو وأصحابه فى غزوة الأحزاب من إثارة القلق والاضطراب وإلقاء الرعب والدهشة فى قلوب المؤمنين ما قصه الله تعالى فى سورة الأحزاب:] وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ Z إلى قوله:] يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ Z [الأحزاب].

بيد أن جميع أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والمشركين كانوا يعرفون جيدًا أن سبب غلبة الإسلام ليس هو التفوق المادى وكثرة السلاح والجيوش والعدد، وإنما السبب هى القيم والأخلاق والمثل التى يتمتع بها المجتمع الإسلامى وكل من يمت بصلة إلى هذا

(١) ابن هشام ١/ ٥٨٤، ٥٨٧، وصحيح البخارى ٢/ ٩٢٤، وصحيح مسلم ٢/ ١٠٩.
(٢) ابن هشام ٢/ ١٠٥. والبُجر: الشرّ.

الدين، وكانوا يعرفون أن منبع هذا الفيض إنما هو رسول الله ﷺ الذى هو المثل الأعلى – إلى حد الإعجاز – لهذه القيم، كما عرفوا بعد إدارة دفة الحروب طيلة خمس سنين، أن القضاء على هذا الدين وأهله لا يمكن عن طريق استخدام السلاح، فقرروا أن يشنوا حربًا دعائية واسعة ضد الدين من ناحية الأخلاق والتقاليد، وأن يجعلوا شخصية الرسول ﷺ أول هدف لهذه الدعاية الكاذبة الخاطئة. ولما كان المنافقون هم الطابور الخامس فى صفوف المسلمين، ولكونهم سكان المدينة، كان يمكن لهم الاتصال بالمسلمين واستفزاز مشاعرهم كل حين. تحمل فريضة الدعاية هؤلاء المنافقون، وعلى رأسهم ابن أبى.

وقد ظهرت خطتهم هذه جلية حينما تزوج رسول الله ﷺ بأم المؤمنين زينب بنت جحش، بعد أن طلقها زيد بن حارثة، فقد كان من تقاليد العرب أنهم كانوا يعتبرون المتبنى مثل الابن الصلبى، فكانوا يعتقدون حرمة حليلة المتبنى على الرجل الذى تبناه، فلما تزوج النبى ﷺ بزينب وجد المنافقون ثُلْمَتَيْن – حسب زعمهم – لإثارة المشاغب ضد النبى ﷺ.

الأولى: أن زوجته هذه كانت زوجة خامسة، والقرآن لم يكن أذن فى الزواج بأكثر من أربع نسوة، فكيف صح له هذا الزواج؟

الثانية: أن زينب كانت زوجة ابنه – مُتَبَنَّاه – فالزواج بها من أكبر الكبائر، حسب تقاليد العرب. وأكثروا من الدعاية فى هذا السبيل، واختلقوا قصصًا وأساطير، قالوا: إن محمدًا رآها بغتة، فتأثر بحسنها وشغفته حبًّا، وعلقت بقلبه، وعلم بذلك ابنه زيد فخلى سبيلها لمحمد، وقد نشروا هذه الدعاية المختلقة نشرًا بقيت آثاره فى كتب التفسير والحديث إلى هذا الزمان، وقد أثرت تلك الدعاية أثرًا قويًّا فى صفوف الضعفاء حتى نزل القرآن بالآيات البينات فيها شفاء لما فى الصدور، وينبئ عن سعة نشر هذه الدعاية أن الله استفتح سورة الأحزاب بقوله: [! " # $ % & ' ( ) | * + , - . / Z [الأحزاب].

وهذه إشارات عابرة، وصور مصغرة لما اقترفه المنافقون قبل غزوة بنى المصطلق، وكان النبى ﷺ يكابد كل ذلك بالصبر واللين والتلطف، وكان عامة المسلمين يحترزون عن شرهم، أو يتحملونه بالصبر ؛ إذ كانوا قد عرفوهم بافتضاحهم مرة بعد أخرى حسب قوله تعالى: [T U V W X Y Z [\ ] ^_ ` a b c d Z [التوبة].

دور المنافقين فى غزوة بنى المصطلق:

ولما كانت غزوة بنى المصطلق وخرج فيها المنافقون مثلوا قوله تعالى:] لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ Z [التوبة: ٤٧]،فقد وجدوا متنفسين للتنفس بالشر، فأثاروا الارتباك الشديد فى صفوف المسلمين، والدعاية الشنيعة ضد النبى ﷺ، وهاك بعض التفصيل عنها:

١ - قول المنافقين: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»:

كان رسول الله ﷺ بعد الفراغ من الغزوة مقيمًا على المُرَيْسِيع، ووردت واردة الناس، ومع عمر بن الخطاب أجير يقال له: جَهْجَاه الغفارى، فازدحم هو وسِنَان بن وَبَر الجهنى على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهنى: يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فقال رسول الله ﷺ: **«أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ دعوها فإنها مُنْتِنَة»**، وبلغ ذلك عبد الله ابن أبى ابن سلول فغضب - وعنده رهط من قومه، فيهم زيد بن أرقم غلام حدث - وقال: أو قد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما نحن وهم إلا كما قال الأول: سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ثم أقبل على من حضره فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فأخبر زيد بن أرقم عمه بالخبر، فأخبر عمه رسول الله ﷺ وعنده عمر، فقال عمر: مُرْ عَبَّاد ابن بشر فليقتله. فقال: **«فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟ لا ولكن أَذِّنْ بالرحيل»**، وذلك فى ساعة لم يكن يرتحل فيها، فارتحل الناس، فلقيه أسيد بن حضير فحياه، وقال: لقد رحت فى ساعة منكرة؟ فقال له: **«أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟»** يريد ابن أبى، فقال: وما قال؟ قال: **«زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل»**، قال: فأنت يا رسول الله، تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخَرَز ليتوجوه، فإنه يرى أنك استلبته ملكًا.

ثم مشى بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصَدْر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مَسَّ الأرض فوقعوا نيامًا. فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث.

أما ابن أبى فلما علم أن زيد بن أرقم بلَّغ الخبر جاء إلى رسول الله ﷺ، وحلف بالله ما

قلت ما قال، ولا تكلمت به، فقال من حضر من الأنصار: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل. فصدقه، قال زيد: فأصابنى هَمٌّ لم يصبنى مثله قط، فجلست فى بيتى، فأنزل الله: [` a b Z إلى قوله: [ D E F G Z إلى [ _ ` a b Z [المنافقون: ١ - ٨]، فأرسل إلى رسول الله ﷺ فقرأها علىّ. ثم قال: «إن الله قد صدقك»[(١)].

وكان ابن هذا المنافق - وهو عبد الله بن عبد الله بن أبى - رجلًا صالحًا من الصحابة الأخيار، فتبرأ من أبيه، ووقف له على باب المدينة، واستل سيفه، فلما جاء ابن أبى قال له: والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل، فلما جاء النبى ﷺ أذن له فخلى سبيله، وكان قد قال عبد الله بن عبد الله بن أبى: يا رسول الله، إن أردت قتله فمرنى بذلك، فأنا والله أحمل إليك رأسه[(٢)].

٢ - حديث الإفك:

وفى هذه الغزوة كانت قصة الإفك، وملخصها: أن عائشة رضي الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله ﷺ معه فى هذه الغزوة بقرعة أصابتها، وكانت تلك عادته مع نسائه، فلما رجعوا من الغزوة نزلوا فى بعض المنازل، فخرجت عائشة لحاجتها، ففقدت عقدًا لأختها كانت أعارتها إياه، فرجعت تلتمسه فى الموضع الذى فقدته فيه فى وقتها، فجاء النفر الذين كانوا يرحلون هَوْدَجَها فظنوها فيه فحملوا الهودج، ولا ينكرون خِفَّتَه؛ لأنها رضي الله عنها كانت فَتِيَّةَ السن لم يَغْشَهَا اللحم الذى كان يثقلها، وأيضًا فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج لم ينكروا خفته، ولو كان الذى حمله واحدًا أو اثنين لم يخف عليهما الحال، فرجعت عائشة إلى منازلهم، وقد أصابت العقد، فإذا ليس به داع ولا مجيب، فقعدت فى المنزل، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون فى طلبها، والله غالب على أمره، يدبر الأمر من فوق عرشه كما يشاء، فغلبتها عيناها، فنامت، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان ابن المُعَطَّل: إنا لله وإنا إليه راجعون، زوجة رسول الله ﷺ؟ وكان صفوان قد عَرَس فى أخريات الجيش ؛ لأنه كان كثير النوم، فلما رآها عرفها، وكان يراها قبل نزول الحجاب، فاسترجع وأناخ راحلته، فقربها إليها، فركبتها، وما كلمها كلمة واحدة، ولم تسمع منه إلا استرجاعه، ثم سار بها يقودها، حتى

(١) انظر: صحيح البخارى ١/ ٤٩٩، ٢/ ٧٢٧- ٧٢٩، وصحيح مسلم، ح (٢٥٨٤)، والترمذى، ح (٣٣١٢)، وابن هشام ٢/ ٢٩٠- ٢٩٢.

(٢) ابن هشام ٢/ ٢٩٢، ومختصر السيرة للشيخ عبد الله، ص ٢٧٧.

قدم بها، وقد نزل الجيش فى نحر الظهيرة، فلما رأى ذلك الناس تكلم كل منهم بشاكلته، وما يليق به، ووجد الخبيث عدو الله ابن أبى متنفسًا، فتنفس من كرب النفاق والحسد الذى بين ضلوعه، فجعل يستحكى الإفك، ويستوشيه، ويشيعه، ويذيعه، ويجمعه ويفرقه، وكان أصحابه يتقربون به إليه، فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك فى الحديث، ورسول الله ﷺ ساكت لايتكلم، ثم استشار أصحابه - لما استلبث الوحى طويلًا - فى فراقها، فأشار عليه على رضي الله عنه أن يفارقها، ويأخذ غيرها، تلويحًا لاتصريحًا، وأشار عليه أسامة وغيره بإمساكها، وألا يلتفت إلى كلام الأعداء. فقام على المنبر يستعذر من عبد الله بن أبى، فأظهر أسيد بن حضير سيد الأوس رغبته فى قتله فأخذت سعد بن عبادة - سيد الخزرج، وهى قبيلة ابن أبى - الحمية القبلية، فجرى بينهما كلام تثاور له الحيان، فخفضهم رسول الله ﷺ حتى سكتوا وسكت.

أما عائشة فلما رجعت مرضت شهرًا، وهى لاتعلم عن حديث الإفك شيئًا، سوى أنها كانت لا تعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كانت تعرفه حين تشتكى، فلما نَقِهَتْ خرجت مع أم مِسْطَح إلى البَرَاز ليلًا، فعثرت أم مسطح فى مِرْطِها، فدعت على ابنها، فاستنكرت ذلك عائشة منها، فأخبرتها الخبر، فرجعت عائشة واستأذنت رسول الله ﷺ ؛ لتأتى أبويها وتستيقن الخبر، ثم أتتهما بعد الإذن حتى عرفت جلية الأمر، فجعلت تبكى، فبكت ليلتين ويومًا، لم تكن تكتحل بنوم، ولا يرقأ لها دمع، حتى ظنت أن البكاء فالق كبدها، وجاء رسول الله ﷺ فى ذلك، فتشهد وقال: **«أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه»**.

وحينئذ قَلَص دمعها، وقالت لكل من أبويها أن يجيبا، فلم يدريا ما يقولان. فقالت: والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إنى بريئة - والله يعلم أنى بريئة - لا تصدقوننى بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أنى منه بريئة - لتُصَدِّقُنِّى، والله ما أجد لى ولكم مثلًا إلا قول أبى يوسف، قال: [Z [ ] | [^ _ ` a b Z [يوسف].

ثم تحولت واضطجعت، ونزل الوحى ساعته، فَسُرِّى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك. فكانت أول كلمة تكلم بها: **«يا عائشة، أما الله فقد برأك»**، فقالت لها أمها: قومى إليه.. فقالت عائشة - إدلالًا ببراءة ساحتها، وثقة بمحبة رسول الله ﷺ: والله لا أقوم إليه،

ولا أحمد إلا الله.

والذى أنزله الله بشأن الإفك هو قوله تعالى:] ! " # $ % & ' ... Z [النور: ١١: ٢٠]. العشر الآيات.

وجُلِد من أهل الإفك مِسْطَح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحَمْنَة بنت جحش، جلدوا ثمانين ثمانين، ولم يُحَدّ الخبيث عبد الله بن أبى مع أنه رأس أهل الإفك، والذى تولى كبره ؛ إما لأن الحدود تخفيف لأهلها، وقد وعده الله بالعذاب العظيم فى الآخرة، وإما للمصلحة التى ترك لأجلها قتله[١].

وهكذا وبعد شهر أقشعت سحابة الشك والارتياب والقلق والاضطراب عن جو المدينة، وافتضح رأس المنافقين افتضاحًا لم يستطع أن يرفع رأسه بعد ذلك، قال ابن إسحاق: وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه. فقال رسول الله ﷺ لعمر: «**كيف ترى يا عمر؟ أما والله لوقتلته يوم قلت لى: اقتله، لأرعدت له آنف، ولو أمرتها اليوم بقتله لقتلته**». قال عمر: قد والله علمتُ، لأمْر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى[٢].

(١) صحيح البخارى ١/ ٣٦٤ و٢/ ٦٩٦- ٦٩٨، وزاد المعاد ٢/ ١١٣- ١١٥، وابن هشام ٢/ ٢٩٧- ٣٠٧.

(٢) ابن هشام ٢/ ٢٩٣.

البعوث والسرايا
بعد غزوة المُرَيْسِيع

١ - سرية عبد الرحمن بن عوف إلى ديار بنى كلب بدَوْمَة الجَنْدَل:

فى شعبان سنة ٦ هـ. أقعده رسول الله ﷺ بين يديه وعممه بيده، وأوصاه بأحسن الأمور فى الحرب، وقال له: «**إن أطاعوك فتزوج ابنة ملكهم**»، فمكث عبد الرحمن بن عوف ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم القوم وتزوج عبد الرحمن تُمَاضِر بنت الأصبغ، وهى أم أبى سلمة، وكان أبوها رأسهم وملكهم.

٢ - سرية على بن أبى طالب إلى بنى سعد بن بكر بفَدَك:

فى شعبان سنة ٦ هـ. وذلك أنه بلغ رسول الله ﷺ أن بها جمعًا يريدون أن يمدوا اليهود. فبعث إليهم عليًّا فى مائتى رجل، وكان يسير الليل ويكمن النهار، فأصاب عينًا لهم، فأقر أنهم بعثوه إلى خيبر يعرضون عليهم نصرتهم على أن يجعلوا لهم تمر خيبر. ودل العين على موضع تجمع بنى سعد، فأغار عليهم على، فأخذ خمسمائة بعير وألفى شاة، وهربت بنو سعد بالظُّعنُ، وكان رئيسهم وَبَر بن عُلَيْم.

٣ - سرية أبى بكر الصديق أو زيد بن حارثة إلى وادى القرى:

فى رمضان سنة ٦هـ. كان بطن من فَزَارة يريد اغتيال النبى ﷺ، فبعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق. قال سَلَمَة بن الأكْوَع: وخرجت معه حتى إذا صلينا الصبح أمرنا فشننا الغارة، فوردنا الماء، فقتل أبو بكر من قتل، ورأيت طائفة وفيهم الذرارى، فخشيت أن يسبقونى إلى الجبل فأدركتهم، ورميت بسهم بينهم وبين الجبل، فلما رأوا السهم وقفوا، وفيهم امرأة هى أم قِرْفَة، عليها قَشْعٌ من أدِيم، معها ابنتها من أحسن العرب، فجئت بهم أسوقهم إلى أبى بكر، فنفلنى أبو بكر ابنتها، فلم أكشف لها ثوبا، وقد سأله رسول الله ﷺ بنت أم قِرْفَة، فبعث بها إلى مكة، وفدى بها أسرى من المسلمين هناك[(١)].

وكانت أم قرفة شيطانة تحاول اغتيال النبى ﷺ، وجهزت ثلاثين فارسًا من أهل بيتها لذلك، فلاقت جزاءها، وقتل الثلاثون.

---

(١) انظر: صحيح مسلم ٢/ ٨٩، ويقال: إن هذه السرية كانت سنة سبع.

٤ - سرية كُرْز بن جابر الفهرى[(١)] إلى العُرَنِيِّين:

فى شوال سنة ٦هـ. وذلك أن رهطًا من عُكَل وعُرَينَة أظهروا الإسلام، وأقاموا بالمدينة فاستوخموها، فبعثهم رسول الله ﷺ فى ذود فى المراعى، وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها، فلما صحوا قتلوا راعى رسول الله ﷺ، واستاقوا الإبل، وكفروا بعد إسلامهم، فبعث فى طلبهم كرزًا الفهرى فى عشرين من الصحابة، ودعا على العرنيين: «**اللهم أعم عليهم الطريق، واجعلها عليهم أضيق من مَسَك**»، فعمى الله عليهم السبيل فأدركوا، فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسَمُلَتْ أعينهم، جزاء وقصاصًا بما فعلوا، ثم تركوا فى ناحية الحرة حتى ماتوا[(٢)]، وحديثهم فى الصحيح عن أنس[(٣)].

ويذكر أهل السير بعد ذلك سرية عمرو بن أمية الضَّمْرِى مع سلمة بن أبى سلمة، فى شوال سنة ٦ هـ: أنه ذهب إلى مكة لاغتيال أبى سفيان ؛ لأن أبا سفيان كان أرسل أعرابيًا لاغتيال النبي ﷺ، بيد أن المبعوثين لم ينجحا فى الاغتيال، لاهذا، ولا ذاك. ويذكرون أن عمرا قتل فى الطريق ثلاثة رجال، ويقولون: إن عمرا أخذ جثة الشهيد خُبَيْب فى هذا السفر، والمعروف أن خبيبًا استشهد بعد الرَّجِيع بأيام أو أشهر، ووقعة الرجيع كانت فى صفر سنة ٤هـ، فلا أدرى هل اختلط السفران على أهل السير، أو كان الأمران فى سفر واحد فى السنة الرابعة، وقد أنكر العلامة المنصورفورى أن تكون هذه السرية سرية حرب أو مناوشة. والله أعلم.

هذه هى السرايا والغزوات بعد الأحزاب، وبنى قريظة، لم يجر فى واحدة منها قتال مرير، وإنما وقعت فيما وقعت مصادمة خفيفة، فليست هذه البعوث إلا دوريات استطلاعية، أو تحركات تأديبية ؛ لإرهاب الأعراب والأعداء الذين لم يستكينوا بعد. ويظهر بعد التأمل فى الظروف أن مجرى الأيام كان قد أخذ فى التطور بعد غزوة الأحزاب، وأن أعداء الإسلام كانت معنوياتهم فى انهيار متواصل، ولم يكن بقى لهم أمل فى نجاح كسر الدعوة الإسلامية وخَضْد شوكتها، إلا أن هذا التطور ظهر جليًا بصلح الحديبية، فلم تكن الهدنة إلا الاعتراف بقوة الإسلام، والتسجيل على بقائها فى ربوع الجزيرة العربية.

---

(١) هذا هو الذى كان قد أغار على سرح المدينة قبل بدر فى غزوة سَفَوان، ثم أسلم وقتل شهيدًا يوم فتح مكة.

(٢) زاد المعاد ٢/ ١٢٢. والمَسَك: الأسورة.

(٣) صحيح البخارى ٢/ ٦٠٢.

عمرة الحديبية
فى ذى القعدة سنة ٦ هـ

سبب عمرة الحديبية:

ولما تطورت الظروف فى الجزيرة العربية إلى حد كبير لصالح المسلمين، أخذت طلائع الفتح الأعظم ونجاح الدعوة الإسلامية تبدو شيئًا فشيئًا، وبدأت التمهيدات لإقرار حق المسلمين فى أداء عبادتهم فى المسجد الحرام، الذى كان قد صد عنه المشركون منذ ستة أعوام.

أرى رسول الله ﷺ فى المنام، وهو بالمدينة، أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وأخذ مفتاح الكعبة، وطافوا واعتمروا، وحلق بعضهم وقصر بعضهم، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم داخلو مكة عامهم ذلك، وأخبر أصحابه أنه معتمر فتجهزوا للسفر.

استنفار المسلمين:

واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى ليخرجوا معه، فأبطأ كثير من الأعراب، أما هو فغسل ثيابه، وركب ناقته القَصْواء، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم أو نُمَيْلَة الليثى. وخرج منها يوم الإثنين غرة ذى القعدة سنة ٦هـ، ومعه زوجته أم سلمة، فى ألف وأربعمائة، ويقال: ألف وخمسمائة، ولم يخرج معه بسلاح، إلا سلاح المسافر: السيوف فى القُرُب.

المسلمون يتحركون إلى مكة:

وتحرك فى اتجاه مكة، فلما كان بذى الحُلَيْفَة قَلَّد الهدى وأشْعَرَه، وأحرم بالعمرة؛ ليأمن الناس من حربه، وبعث بين يديه عينًا له من خزاعة يخبره عن قريش، حتى إذا كان قريبًا من عُسْفَان أتاه عينه، فقال: إنى تركت كعب بن لؤى قد جمعوا لك الأحابيش[1]، وجمعوا لك جموعًا، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت، واستشار النبى ﷺ أصحابه، وقال: «أترون

(١) هم عرب من بطون بنى كنانة وغيرهم، وليسوا من الحبشة، كما يتبادر من اللفظ، منسوبون إلى حُبْشِى - بضم فسكون فشين معجمة مكسورة فياء مشددة- جبل بأسفل مكة بنعمان الأراك، بينه وبين مكة ستة أميال، اجتمع بذنبه بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، وبنو المصطلق والحيا ابن سعد ابن عمر، وبنو الهون بن خزيمة فحالفوا قريشًا، وتحالفوا بالله: إنا ليد واحدة على غيرنا ما سجا ليل ووضح نهار، وما رسا حبشى مكانه، فسموا أحابيش قريش باسم الجبل. (معجم البلدان ٢ / ٢١٤، والمنمق) ص ٢٧٥).

نميل إلى ذرارى هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم؟ فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين، وإن نجوا يكن عنق قطعها الله، أم تريدون أن نؤم هذا البيت فمن صدنا عنه قاتلناه؟» فقال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين، ولم نجئ لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبى ﷺ: **«فروحوا»**، فراحوا.

محاولة قريش صد المسلمين عن البيت:

وكانت قريش لما سمعت بخروج النبى ﷺ عقدت مجلسًا استشاريًا قررت فيه صد المسلمين عن البيت كيفما يمكن، فبعد أن أعرض رسول الله ﷺ عن الأحابيش، نقل إليه رجل من بنى كعب أن قريشًا نازلة بذى طُوَى، وأن مائتى فارس فى قيادة خالد بن الوليد مرابطة بكُرَاع الغَمِيم فى الطريق الرئيسى الذى يوصل إلى مكة. وقد حاول خالد صد المسلمين، فقام بفرسانه إزاءهم يتراءى الجيشان. ورأى خالد المسلمين فى صلاة الظهر يركعون ويسجدون، فقال: لقد كانوا على غرة، لو كنا حملنا عليهم لأصبنا منهم، ثم قرر أن يميل على المسلمين - وهم فى صلاة العصر - ميلة واحدة، ولكن الله أنزل حكم صلاة الخوف، ففاتت الفرصة خالدًا.

تبديل الطريق ومحاولة اجتناب اللقاء الدامى:

وأخذ رسول الله ﷺ طريقًا وَعْرًا بين شعاب، وسلك بهم ذات اليمين بين ظهرى الحَمْض فى طريق تخرجه على ثنية المُرَار مهبط الحديبية من أسفل مكة، وترك الطريق الرئيسى الذى يفضى إلى الحرم مارًّا بالتنعيم، تركه إلى اليسار، فلما رأى خالد قَتَرَة[١] الجيش الإسلامى قد خالفوا عن طريقه انطلق يركض نذيرًا لقريش.

وسار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بثنية المرار بركت راحلته، فقال الناس: حَلْ حَلْ، فألَحَّتْ[٢]، فقالوا: خلأت القصواء، فقال النبى ﷺ: **«ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»**، ثم قال: **«والذى نفسى بيده، لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها»**، ثم زجرها فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية، على ثَمَد[٣] قليل الماء، إنما يتبرضه[٤] الناس تبرضًا، فلم يلبث أن نزحوه. فشكوا

(١) غبار.
(٢) حلْ حَلْ: تقال زجرا للناقة، وألَحَّتْ الناقة وخلأت بمعنى: حَرُنت.
(٣) حوض.
(٤) يأخذون منه قليلا قليلا.

إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهمًا من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالرى حتى صدروا.

بُدَيْل يتوسط بين رسول الله ﷺ وقريش:

ولما اطمأن رسول الله ﷺ جاء بديل بن وَرْقَاء الخزاعى فى نفر من خزاعة، وكانت خزاعة عَيْبَة نُصْح[١] لرسول الله ﷺ من أهل تُهَامَة، فقال: إنى تركت كعب بن لؤى، نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العُوذ المَطَافِيل[٢]، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت. قال رسول الله ﷺ: **«إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكنا جئنا معتمرين، وإن قريشًا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم، فإن شاءوا ماددتهم، ويخلوا بينى وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جَمُّوا[٣]، وإن هم أبوا إلا القتال فوالذى نفسى بيده، لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى، أو لينفذن الله أمره»**.

قال بديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قريشًا، فقال: إنى قد جئتكم من عند هذا الرجل، وسمعته يقول قولا، فإن شئتم عرضته عليكم.

فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء. وقال ذوو الرأى منهم: هات ما سمعته. قال: سمعته يقول كذا وكذا، فبعثت قريش مِكْرَز بن حفص، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: هذا رجل غادر، فلما جاء وتكلم قال له مثل ما قال لبديل وأصحابه، فرجع إلى قريش وأخبرهم.

رسل قريش:

ثم قال رجل من كنانة - اسمه الحُلَيْس بن علقمة: دعونى آته. فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبى ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ: **«هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن، فابعثوها»**، فبعثوها له، واستقبله القوم يلبون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت، فرجع إلى أصحابه فقال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، وما أرى أن يصدوا، وجرى بينه وبين قريش كلام لم أحفظه.

فقال عروة بن مسعود الثقفى: إن هذا قد عرض عليكم خطة رُشْد فاقبلوها، ودعونى آته، فأتاه، فجعل يكلمه، فقال له النبى ﷺ نحوًا من قوله لبديل. فقال له عروة عند ذلك:

---

(١) أى: موضع سرّه.
(٢) العوذ: الإبل، والمطافيل: حديثة النتاج.
(٣) استراحوا.

أى محمد أرأيت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك، وإن تكن الأخرى فوالله إنى لا أرى وجوها، وإنى أرى أوباشا من الناس خليقًا أن يفروا ويدعوك، قال له أبو بكر: امصص بَظْر اللات، أنحن نفر عنه؟ قال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر، قال: أما والذى نفسى بيده، لولا يد كانت عندى لم أَجْزِكَ بها لأجبتك. وجعل يكلم النبى ﷺ، وكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة عند رأس النبى ﷺ، ومعه السيف وعليه المِغْفَرُ، فكلما أهوى عروة إلى لحية النبى ﷺ ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه، وقال: من ذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة، فقال: أى غُدَر، أو لستُ أسعى فى غَدْرَتِك؟ وكان المغيرة صَحِبَ قومًا فى الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبى ﷺ: «**أما الإسلام فأقبلُ، وأما المال فلست منه فى شيء**» «وكان المغيرة ابن أخى عروة».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ وتعظيمهم له، فرجع إلى أصحابه، فقال: أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك، على قيصر وكسرى والنجاشى، والله ما رأيت ملكًا يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمدًا، والله إن تَنَخَّمَ نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظر تعظيمًا له، وقد عرض عليكم خطة رُشْدٍ فاقبلوها.

هو الذى كف أيديهم عنكم:

ولما رأى شباب قريش الطائشون، الطامحون إلى الحرب، رغبة زعمائهم فى الصلح، فكروا فى خطة تحول بينهم وبين الصلح، فقرروا أن يخرجوا ليلًا، ويتسللوا إلى معسكر المسلمين، ويحدثوا أحداثًا تشعل نار الحرب، وفعلًا قد قاموا بتنفيذ هذا القرار، فقد خرج سبعون أو ثمانون منهم ليلًا فهبطوا من جبل التنعيم، وحاولوا التسلل إلى معسكر المسلمين، غير أن محمد بن مسلمة قائد الحرس اعتقلهم جميعًا.

ورغبة فى الصلح أطلق سراحهم النبى ﷺ وعفا عنهم، وفى ذلك أنزل الله:] ! " # $ % & ' ( ) * + , - . Z [الفتح: ٢٤].

عثمان بن عفان سفيرًا إلى قريش:

وحينئذ أراد رسول الله ﷺ أن يبعث سفيرًا يؤكد لدى قريش موقفه وهدفه من هذا السفر، فدعا عمر بن الخطاب ليرسله إليهم، فاعتذر قائلًا: يا رسول الله، ليس لى أحد بمكة

من بنى عدى ابن كعب يغضب لى إن أوذيت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وإنه مبلغ ما أردت، فدعاه، وأرسله إلى قريش، وقال: أخبرهم أنا لم نأت لقتال، وإنما جئنا عمارًا، وادعهم إلى الإسلام، وأمره أن يأتى رجالًا بمكة مؤمنين، ونساء مؤمنات، فيبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفى فيها أحد بالإيمان.

فانطلق عثمان حتى مر على قريش بِبَلْدَح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثنى رسول الله ﷺ بكذا وكذا، قالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفذ لحاجتك، وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به ثم أسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، وأجاره وأردفه حتى جاء مكة، وبلغ الرسالة إلى زعماء قريش، فلما فرغ عرضوا عليه أن يطوف بالبيت، فرفض هذا العرض، وأبى أن يطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ.

إشاعة مقتل عثمان وبيعة الرضوان:

واحتبسته قريش عندها - ولعلهم أرادوا أن يتشاوروا فيما بينهم فى الوضع الراهن، ويبرموا أمرهم، ثم يردوا عثمان بجواب ما جاء به من الرسالة - وطال الاحتباس، فشاع بين المسلمين أن عثمان قتل، فقال رسول الله ﷺ لما بلغته الإشاعة: «**لا نبرح حتى نناجز القوم**»، ثم دعا أصحابه إلى البيعة، فثاروا إليه يبايعونه على ألا يفروا، وبايعته جماعة على الموت، وأول من بايعه أبو سنان الأسدى، وبايعه سلمة بن الأكوع على الموت ثلاث مرات، فى أول الناس ووسطهم وآخرهم، وأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه وقال: «**هذه عن عثمان**». ولما تمت البيعة جاء عثمان فبايعه، ولم يتخلف عن هذه البيعة إلا رجل من المنافقين يقال له: جَدُّ بن قَيْس.

أخذ رسول الله ﷺ هذه البيعة تحت شجرة، وكان عمر آخذا بيده، ومَعْقِل بن يَسَار آخذا بغصن الشجرة يرفعه عن رسول الله ﷺ، وهذه هى بيعة الرضوان التى أنزل الله فيها:] لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ Z الآية [الفتح: ١٨].

إبرام الصلح وبنوده:

وعرفت قريش ضيق الموقف، فأسرعت إلى بعث سُهَيْل بن عمرو لعقد الصلح، وأكدت له ألا يكون فى الصلح إلا أن يرجع عنا عامه هذا، لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدًا، فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه عليه السلام قال: «**قد سهل لكم أمركم**»، أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل، فجاء سهيل فتكلم طويلًا، ثم اتفقا على قواعد الصلح، وهى هذه:

١- الرسول ﷺ يرجع من عامه، فلا يدخل مكة، وإذا كان العام القابل دخلها المسلمون فأقاموا بها ثلاثًا، معهم سلاح الراكب، السيوف فى القُرُب، ولا يتعرض لهم بأى نوع من أنواع التعرض.

٢- وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض.

٣- من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وتعتبر القبيلة التى تنضم إلى أى الفريقين جزءًا من ذلك الفريق، فأى عدوان تتعرض له أى من هذه القبائل يعتبر عدوانًا على ذلك الفريق.

٤- من أتى محمدًا من قريش من غير إذن وليه - أى هاربًا منهم - رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد - أى هاربًا منه - لم يرد عليه.

ثم دعا عليًا ليكتب الكتاب، فأملى عليه: «**بسم الله الرحمن الرحيم**» فقال سهيل: أما الرحمن فوالله لا ندرى ما هو؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم. فأمر النبى ﷺ بذلك. ثم أملى: «**هذا ما صالح عليه محمد رسول الله**» فقال سهيل: لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال: «**إنى رسول الله وإن كذبتمونى**»، وأمر عليًا أن يكتب: محمد ابن عبد الله، ويمحو لفظ «**رسول الله**»، فأبى على أن يمحو هذا اللفظ. فمحاه ﷺ بيده، ثم تمت كتابة الصحيفة، ولما تم الصلح دخلت خزاعة فى عهد رسول الله ﷺ - وكانوا حليف بنى هاشم منذ عهد عبد المطلب، كما قدمنا فى أوائل الكتاب، فكان دخولهم فى هذا العهد تأكيدًا لذلك الحلف القديم - ودخلت بنو بكر فى عهد قريش.

رد أبى جندل:

وبينما الكتاب يكتب إذ جاء أبو جَنْدَل بن سهيل يَرْسُفُ فى قيوده، قد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين، فقال سهيل: هذا أول ما أقاضيك عليه على أن ترده، فقال النبى ﷺ: «**إنا لم نقض الكتاب بعد**».

فقال: فوالله إذا لا أقاضيك على شىء أبدًا. فقال النبى ﷺ: «**فأجزه لى**». قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: «**بلى فافعل**»، قال: ما أنا بفاعل. وقد ضرب سهيل أبا جندل فى وجهه، وأخذ بتلابيبه وجره ؛ ليرده إلى المشركين، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى؟ فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا جندل، اصبر**

واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله فلا نغدر بهم».

فوثب عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أبى جندل يمشى إلى جنبه ويقول: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب، ويدنى قائم السيف منه، يقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، فضن الرجل بأبيه، ونفذت القضية.

النَّحْر والحَلْق للحِلِّ عن العمرة:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب قال: **«قوموا فانحروا»**، فوالله ما قام منهم أحد حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقى من الناس، فقالت: يا رسول الله، أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحدًا كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فقام فخرج فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدْنَه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا، وكانوا نحروا البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة، ونحر رسول الله ﷺ جملًا كان لأبى جهل، كان فى أنفه بُرَةٌ[1] من فضة، ليغيظ به المشركين، ودعا رسول الله ﷺ للمحلقين ثلاثًا بالمغفرة وللمقصرين مرة. وفى هذا السفر أنزل الله فدية الأذى لمن حلق رأسه بالصيام أو الصدقة أو النسك، فى شأن كعب بن عُجْرَة.

الإباء عن رد المهاجرات:

ثم جاء نسوة مؤمنات، فسأل أولياؤهن أن يردهن عليهم بالعهد الذى تم فى الحديبية، فرفض طلبهم هذا ؛ بدليل أن الكلمة التى كتبت فى المعاهدة بصدد هذا البند هى: **«وعلى أنه لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته علينا»**، فلم تدخل النساء فى العقد رأسًا. وأنزل الله فى ذلك:] w x y z { | } ~ Z، حتى بلغ:] Ç È Z [الممتحنة:١٠] فكان رسول الله ﷺ يمتحنهن بقوله تعالى:] # $ % & ' ( ) * + , Z إلخ [الممتحنة: ١٢]، فمن أقرت بهذه الشروط قال لها: **«قد بايعتك»**، ثم لم يكن يردهن.

وطلق المسلمون زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم. فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له فى الشرك، تزوج بإحداهما معاوية، وبالأخرى صفوان بن أمية.

---

(١) حلقة.

ماذا يتمخض عن بنود المعاهدة؟:

هذا هو صلح الحديبية، ومن سبر أغوار بنوده مع خلفياته لا يشك أنه فتح عظيم للمسلمين، فقريش لم تكن تعترف بالمسلمين أى اعتراف، بل كانت تهدف استئصال شأفتهم، وتنتظر أن تشهد يومًا ما نهايتهم، وكانت تحاول بأقصى قوتها الحيلولة بين الدعوة الإسلامية وبين الناس، بصفتها ممثلة الزعامة الدينية والصدارة الدنيوية فى جزيرة العرب، ومجرد الجنوح إلى الصلح اعتراف بقوة المسلمين، وأن قريشًا لا تقدر على مقاومتهم، ثم البند الثالث يدل بفحواه على أن قريشًا نسيت صدارتها الدنيوية وزعامتها الدينية، وأنها لاتهمها الآن إلا نفسها، أما سائر الناس وبقية جزيرة العرب فلو دخلت فى الإسلام بأجمعها، فلايهم ذلك قريشًا، ولا تتدخل فى ذلك بأى نوع من أنواع التدخل. أليس هذا فشلًا ذريعًا بالنسبة إلى قريش؟ وفتحا مبينًا بالنسبة إلى المسلمين؟ إن الحروب الدامية التى جرت بين المسلمين وبين أعدائهم لم تكن أهدافها - بالنسبة إلى المسلمين - مصادرة الأموال وإبادة الأرواح، وإفناء الناس، أو إكراه العدو على اعتناق الإسلام، وإنما كان الهدف الوحيد الذى يهدفه المسلمون من هذه الحروب هو الحرية الكاملة للناس فى العقيدة والدين] G H I J K L Z [الكهف: ٢٩]. لا يحول بينهم وبين ما يريدون أى قوة من القوات، وقدحصل هذا الهدف بجميع أجزائه ولوازمه، وبطريق ربما لا يحصل بمثله فى الحروب مع الفتح المبين، وقد كسب المسلمون لأجل هذه الحرية نجاحًا كبيرًا فى الدعوة، فبينما كان عدد المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف قبل الهدنة صار عدد الجيش الإسلامى فى سنتين عند فتح مكة عشرة آلاف.

أما البند الثانى فهو جزء ثان لهذا الفتح المبين، فالمسلمون لم يكونوا بادئين بالحروب، وإنما بدأتها قريش، يقول الله تعالى:] وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ Z [التوبة: ١٣]، أما المسلمون فلم يكن المقصود من دورياتهم العسكرية إلا أن تفيق قريش عن غطرستها وصدها عن سبيل الله، وتعمل معهم بالمساواة، كل من الفريقين يعمل على شاكلته، فالعقد بوضع الحرب عشر سنين حد لهذه الغطرسة والصد، ودليل على فشل من بدأ بالحرب وعلى ضعفه وانهياره.

أما البند الأول فهو حد لصد قريش عن المسجد الحرام، فهو أيضًا فشل لقريش، وليس فيه ما يشفى قريشًا سوى أنها نجحت فى الصد لذلك العام الواحد فقط.

أعطت قريش هذه الخلال الثلاث للمسلمين، وحصلت بإزائها خلة واحدة فقط،

وهى ما فى البند الرابع، ولكن تلك الخلة تافهة جدًّا، ليس فيها شىء يضر بالمسلمين، فمعلوم أن المسلم ما دام مسلمًا لا يفر عن الله ورسوله، وعن مدينة الإسلام، ولا يفر إلا إذا ارتد عن الإسلام ظاهرًا أو باطنًا، فإذا ارتد فلا حاجة إليه للمسلمين، وانفصاله من المجتمع الإسلامى خير من بقائه فيه، وهذا الذى أشار إليه رسول الله ﷺ بقوله: «**إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله**»(١). وأما من أسلم من أهل مكة فهو وإن لم يبق للجوئه إلى المدينة سبيل لكن أرض الله واسعة، ألم تكن الحبشة واسعة للمسلمين حينما لم يكن يعرف أهل المدينة عن الإسلام شيئًا؟ وهذا الذى أشار إليه النبى بقوله: «**ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجًا ومخرجًا**»(٢).

والأخذ بمثل هذا الاحتفاظ، وإن كان مظهر الاعتزاز لقريش، لكنه فى الحقيقة ينبئ عن شدة انزعاج قريش وهلعهم وخَوَرِهم، وعن شدة خوفهم على كيانهم الوثنى، وكأنهم كانوا قد أحسوا أن كيانهم اليوم على شفا جُرُف هار لا بد له من الأخذ بمثل هذا الاحتفاظ. وما سمح به النبى ﷺ من أنه لا يسترد من فرّ إلى قريش من المسلمين، فليس هذا إلا دليلًا على أنه يعتمد على تثبيت كيانه وقوته كمال الاعتماد، ولا يخاف عليه من مثل هذا الشرط.

حزن المسلمين ومناقشة عمر النبى ﷺ:

هذه هى حقيقة بنود هذ الصلح، لكن هناك ظاهرتان عمت لأجلها المسلمين كآبة وحزن شديد.

الأولى: أنه كان قد أخبرهم أنا سنأتى البيت فنطوف به، فما له يرجع ولم يطف به؟

الثانية: أنه رسول الله ﷺ وعلى الحق، والله وعد إظهار دينه، فما له قبل ضغط قريش، وأعطى الدَّنِيَّةَ فى الصلح؟

كانت هاتان الظاهرتان مثار الريب والشكوك والوساوس والظنون، وصارت مشاعر المسلمين لأجلها جريحة، بحيث غلب الهم والحزن على التفكير فى عواقب بنود الصلح. ولعل أعظمهم حزنًا كان عمر بن الخطاب، فقد جاء إلى النبى ﷺ وقال: يا رسول الله، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: «بلى». قال: أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ قال: «بلى». قال: ففيم نعطى الدنية فى ديننا، ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ قال: «**يا ابن الخطاب، إنى رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصرى ولن يضيعنى أبدًا**». قال: أوليس

(١،٢) صحيح مسلم: باب صلح الحديبية ٢/ ١٠٥.

كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟» قال: لا. قال: «فإنك آتيه ومطوف به».

ثم انطلق عمر متغيظا فأتى أبا بكر، فقال له كما قال لرسول الله ﷺ، ورد عليه أبو بكر، كما رد عليه رسول الله ﷺ سواء، وزاد: فاستمسك بغَرْزِه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق.

ثم نزلت:] ! " # $ % & Z إلخ [سورة الفتح]، فأرسل رسول الله إلى عمر فأقرأه إياه. فقال: يا رسول الله، أو فتح هو؟ قال: «نعم». فطابت نفسه ورجع.

ثم ندم عمر على ما فرط منه ندمًا شديدًا، قال عمر: فعملت لذلك أعمالًا، مازلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ، مخافة كلامى الذى تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيرًا[1].

انحلت أزمة المستضعفين:

ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، واطمأن بها، انفلت رجل من المسلمين، ممن كان يعذب فى مكة، وهو أبو بَصِير، رجل من ثقيف حليف لقريش، فأرسلوا فى طلبه رجلين، وقالوا للنبى ﷺ: العهد الذى جعلت لنا. فدفعه النبى ﷺ إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحُلَيْفَة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنى لأرى سيفك هذا يا فلان جيدًا، فاستله الآخر فقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جَرَّبْتُ به ثم جَرَّبْتُ. فقال أبو بصير: أرنى أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه حتى برد.

وفر الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعرًا»، فلما انتهى إلى النبى ﷺ قال: قُتِل صاحبى، وإنى لمقتول، فجاء أبو بصير وقال: يا نبى الله، قد والله أوْفَى الله ذمتك، قد رددتنى إليهم، ثم أنجانى الله منهم، قال رسول الله ﷺ: «ويل أمه، مِسْعَر حَرْبٍ لو كان له أحد»، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سِيفَ[2] البحر، وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبى بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير، حتى اجتمعت

(١) انظر لتفصيل هذه الغزوة والصلح: فتح البارى ٧/ ٤٣٩ - ٤٥٨، وصحيح البخارى ١/ ٣٧٨- ٣٨١، ٢/ ٥٩٨، ٦٠٠، ٧١٧، وصحيح مسلم ٢ / ١٠٤- ١٠٦، وابن هشام ٢/ ٣٠٨- ٣٢٢، وزاد المعاد ٢/ ١٢٢- ١٢٧، وتاريخ عمر بن الخطاب لابن الجوزى ص ٣٩، ٤٠.

(٢) ساحل.

منهم عصابة. فو الله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها، فقتلوهم وأخذوا أموالهم. فأرسلت قريش إلى النبى ﷺ تناشده الله والرحم لما أرسل، فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبى ﷺ إليهم، فقدموا عليه المدينة.

إسلام أبطال من قريش:

وفى سنة ٧ من الهجرة بعد هذا الصلح أسلم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان ابن طلحة، ولما حضروا عند النبى ﷺ قال: «**إن مكة قد ألقت إلينا أفلاذ كبدها**»[١].

(١) اختلفوا كثيرًا فى تعيين السنة التى أسلم فيها هؤلاء الصحابة، وعامة كتب أسماء الرجال تصرح بأنها سنة ثمان، ولكن قصة إسلام عمرو بن العاص عند النجاشى معروفة، وأسلم خالد وطلحة حين رجع عمرو بن العاص من الحبشة، فإنه بعد الرجوع قصد المدينة فلقياه فى الطريق، وحضر الثلاثة عند النبى ﷺ وأسلموا، وهذا يقتضى أنهم أسلموا فى سنة سبع. والله أعلم.

obeikandl.com

المرحلة الثانية

طور جديد

إن صلح الحديبية كان بداية طور جديد فى حياة الإسلام والمسلمين، فقد كانت قريش أقوى قوة وأعندها وألدها فى عداء الإسلام، وبانسحابها عن ميدان الحرب إلى رحاب الأمن والسلام انكسر أقوى جناح من أجنحة الأحزاب الثلاثة - قريش وغَطَفَان واليهود - ولما كانت قريش ممثلة للوثنية، وزعيمتهم فى ربوع جزيرة العرب انخفضت حدة مشاعر الوثنيين، وانهارت نزعاتها العدائية إلى حد كبير، ولذلك لا نرى لغطفان استفزازًا كبيرًا بعد هذه الهدنة، وجل ما جاء منهم إنما جاء من قبل إغراء اليهود.

أما اليهود فكانوا قد جعلوا خيبر بعد جلائهم عن يثرب وكرا للدس والتآمر، وكانت شياطينهم تبيض هناك وتفرخ، وتؤجج نار الفتنة، وتغرى الأعراب الضاربة حول المدينة، وتبيت للقضاء على النبى ﷺ والمسلمين، أو لإلحاق الخسائر الفادحة بهم، ولذلك كان أول إقدام حاسم من النبى ﷺ بعد هذا الصلح هو شن الحرب الفاصلة على هذا الوكر.

ثم إن هذه المرحلة التى بدأت بعد الصلح أعطت المسلمين فرصة كبيرة لنشر الدعوة الإسلامية وإبلاغها، وقد تضاعف نشاط المسلمين فى هذا المجال، وبرز نشاطهم فى هذا الوجه على نشاطهم العسكرى ؛ ولذلك نرى أن نقسم هذه المرحلة إلى قسمين:

١ - النشاط فى مجال الدعوة، أو مكاتبة الملوك والأمراء.

٢ - النشاط العسكرى.

وقبل أن نتابع النشاط العسكرى فى هذه المرحلة، نتناول موضوع مكاتبة الملوك والأمراء ؛ إذ الدعوة الإسلامية هى المقدمة طبعًا، بل ذلك هو الهدف الذى عانى له المسلمون ما عانوه من المصائب والآلام، والحروب والفتن، والقلاقل والاضطرابات.

مكاتبة الملوك والأمراء

فى أواخر السنة السادسة حين رجع رسول الله ﷺ من الحديبية كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام.

ولما أراد أن يكتب إلى هؤلاء الملوك قيل له: إنهم لا يقرءون كتابا إلا وعليه خاتم، فاتخذ النبى ﷺ خاتمًا من فضة، نقشه: محمد رسول الله ﷺ، وكان هذا النقش ثلاثة أسطر: محمد سطر، ورسول سطر، والله سطر، هكذا محمد رسول الله (١).

واختار من أصحابه رسلًا لهم معرفة وخبرة، وأرسلهم إلى الملوك، وقد جزم العلامة المنصورفورى أن النبى ﷺ أرسل هؤلاء الرسل غرة المحرم سنة سبع من الهجرة قبل الخروج إلى خيبر بأيام (٢). وفيما يلى نصوص هذه الكتب، وبعض ما تمخضت عنه.

١ - الكتاب إلى النجاشى ملك الحبشة:

وهذا النجاشى اسمه أَصْحَمَة بن الأبْجَر، كتب إليه النبى ﷺ مع عمرو بن أمية الضَّمْرِى فى آخر سنة ست أو فى المحرم سنة سبع من الهجرة. وقد ذكر الطبرى نص الكتاب، ولكن النظر الدقيق فى ذلك النص، يفيد أنه ليس بنص الكتاب الذى كتبه ﷺ بعد الحديبية، بل لعله نص كتاب بعثه مع جعفر حين خرج هو وأصحابه مهاجرين إلى الحبشة فى العهد المكى، فقد ورد فى آخر الكتاب ذكر هؤلاء المهاجرين بهذا اللفظ: «**وقد بعثت إليكم ابن عمى جعفرًا ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر**».

وروى البيهقى عن ابن إسحاق نص كتاب كتبه النبى ﷺ إلى النجاشى، وهو هذا:

«**بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول الله إلى النجاشى، الأصحم عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلاالله وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبه ولا ولدًا، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الإسلام، فإنى أنا رسوله فأسلم تسلم،** H G F E D C B A @ ? > = < ; [**رسوله فأسلم تسلم،** Z Z Y X W V U T R Q P O N M L K J I [آل عمران] **فإن أبيت فعليك إثم النصارى من قومك**» (٣).

---

(١) صحيح البخارى ٢/ ٨٧٢، ٨٧٣.
(٢) رحمة للعالمين ١/ ١٧١.
(٣) دلائل النبوة للبيهقى ٢/ ٣٠٨، والمستدرك للحاكم ٢/ ٦٢٣.

وقد أورد المحقق الكبير الدكتور حميد الله – باريس – نص كتاب قد عثر عليه فى الماضى القريب – بمثل ما أورده ابن القيم مع الاختلاف فى كلمة فقط – وبذل الدكتور فى تحقيق ذلك النص جهدًا بليغًا، واستعان فى ذلك كثيرًا باكتشافات العصر الحديث، وأورد صورته فى الكتاب وهو هكذا:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشى عظيم الحبشة، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد:

فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإنى أدعو إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعنى، وتؤمن بالذى جاءنى، فإنى رسول الله ﷺ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبل نصيحتى، والسلام على من اتبع الهدى»[(١)].

وأكد الدكتور المحترم أن هذا هو نص الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ إلى النجاشى بعد الحديبية، أما صحة هذا النص فلا شك فيها بعد النظر فى الدلائل، وأما أن هذا الكتاب هو الذى كتب بعد الحديبية فلا دليل عليه، والذى أورد البيهقى عن ابن إسحاق أشبه بالكتب التى كتبها النبى ﷺ إلى ملوك وأمراء النصارى بعد الحديبية، فإن فيه الآية الكريمة:] ; < = > ? Z إلخ، كما كان دأبه فى تلك الكتب، وقد ورد فيه اسم الأصحمة صريحًا، وأما النص الذى أورده الدكتور حميد الله، فالأغلب عندى أنه نص الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ بعد موت أصحمة إلى خليفته، ولعل هذا هو السبب فى ترك الاسم.

وهذا الترتيب ليس عندى عليه دليل قطعى سوى الشهادات الداخلية التى تؤديها نصوص هذه الكتب. والعجب من الدكتور حميد الله أنه جزم بأن النص الذى أورده البيهقى عن ابن عباس هو نص الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ بعد موت أصحمة إلى خليفته مع أن اسم أصحمة وارد فى هذا النص صريحًا، والعلم عند الله[(٢)].

ولما بلغ عمرو بن أمية الضمرى كتاب النبى ﷺ إلى النجاشى أخذه النجاشى،

---

(١) انظر: رسول أكرم كى سياسى زندكَس (بالأردو) ص ١٠٨، ١٠٩، ١٢٢– ١٢٥، وفى زاد المعاد: «أسلم أنت» بدل: «والسلام على من اتبع الهدى». انظر: زاد المعاد ٣/ ٦٠.

(٢) انظر لهذه المباحث: كتاب الدكتور حميد الله «رسول أكرم كى سياسى زندكَى» ص ١٠٨– ١١٤، ١٢١– ١٣١.

ووضعه على عينه، ونزل عن سريره على الأرض، وأسلم على يد جعفر بن أبى طالب، وكتب إلى النبى ﷺ بذلك، وهاك نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. إلى محمد رسول الله من النجاشى أصحمة، سلام عليك يا نبى الله من الله ورحمة الله وبركاته، الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد:

فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تُفْرُوقا[١]، إنه كما قلت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرينا ابن عمك وأصحابك، فأشهد أنك رسول الله صادقًا مصدقًا، وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين»[٢].

وكان النبى ﷺ قد طلب من النجاشى أن يرسل جعفرًا ومن معه من مهاجرى الحبشة، فأرسلهم فى سفينتين مع عمرو بن أمية الضمرى، فقدم بهم على النبى ﷺ وهو بخيبر[٣].

وتوفى النجاشى هذا فى رجب سنة تسع من الهجرة بعد تبوك، ونعاه النبى ﷺ يوم وفاته، وصلى عليه صلاة الغائب، ولما مات وتخلف على عرشه ملك آخر كتب إليه النبى ﷺ كتابًا آخر، ولا يدرى هل أسلم أم لا؟[٤].

٢ - الكتاب إلى المقوقس ملك مصر:

وكتب النبى ﷺ إلى جُرَيْج بن مَتَّى[٥] الملقب بالمُقَوْقِس ملك مصر والإسكندرية:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم أهل القبط،] ; < = > ? @ A B

C D E F G H I J K L M N O P Q R S T U V W

(١) التُّفروق: قِمَع التمرة.

(٢) زاد المعاد ٣/ ٦١.

(٣) ابن هشام ٢/ ٣٥٩.

(٤) ربما يؤخذ هذا مما رواه مسلم عن أنس ٢/ ٩٩.

(٥) هذا على رأى العلامة المنصورفورى فى كتابه: رحمة للعالمين ١/ ١٧٨، وقال الدكتور حميد الله: «إن اسمه بنيامين». انظر: رسول أكرم كى سياسى زندكَى، ص ١٤١.

X Y Z Z [آل عمران]»[1].

واختار لحمل هذا الكتاب حاطب بن أبى بَلْتَعَة. فلما دخل حاطب على المقوقس قال له: إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، فانتقم به ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يعتبر غيرك بك.

فقال المقوقس: إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه.

فقال حاطب: ندعوك إلى دين الإسلام الكافى به الله فَقْدَ ما سِواه، إن هذا النبى دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش، وأعداهم له اليهود، وأقربهم منه النصارى، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، فكل نبى أدرك قومًا فهم أمته، فالحق عليهم أن يطيعوه، وأنت ممن أدركه هذا النبى، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكنا نأمرك به.

فقال المقوقس: إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى، فوجدته لا يأمر بمزهود فيه. ولا ينهى عن مرغوب فيه، ولم أجده بالساحر الضال، ولا الكاهن الكاذب، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء والإخبار بالنجوى، وسأنظر.

وأخذ كتاب النبى ﷺ، فجعله فى حُقٍّ من عاج، وختم عليه، ودفعه إلى جارية له، ثم دعا كاتبًا له يكتب بالعربية، فكتب إلى رسول الله ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم. لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط، سلام عليك، أما بعد:

فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه، وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًّا بقى، وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك بجاريتين، لهما مكان فى القبط عظيم، وبكسوة، وأهديت بغلة لتركبها، والسلام عليك».

ولم يزد على هذا ولم يسلم، والجاريتان مارية، وسيرين، والبغلة دُلْدُل، بقيت إلى زمن معاوية[2]، واتخذ النبى ﷺ مارية سرية له، وهى التى ولدت له إبراهيم. وأما سيرين فأعطاها لحسان بن ثابت الأنصارى.

---

(١) هذا النص أورده ابن القيم فى زاد المعاد ٣/ ٦١، والذى أورده الدكتور حميد الله أخذا من صورة الكتاب الذى عثر عليه فى الماضى القريب يختلف بعض كلماته عن هذا النص، ففيه: «**فأسلم تسلم يؤتك الله...** » إلخ، وفيه: «**إثم القبط**» بدل قوله: «**إثم أهل القبط**». انظر: رسول أكرم كى سياسى زندكى، ص ١٣٦، ١٣٧.

(٢) زاد المعاد ٣/ ٦١.

٣ - الكتاب إلى كسرى ملك فارس:

وكتب النبى ﷺ إلى كسرى ملك فارس:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأدعوك بدعاية الله، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك».

واختار لحمل هذا الكتاب عبد الله بن حذافة السهمى، فدفعه السهمى إلى عظيم البحرين، ولا ندرى هل بعث به عظيم البحرين رجلًا من رجالاته، أم بعث عبد الله السهمى؟، وأيًا ما كان فلما قرئ الكتاب على كسرى مزقه، وقال فى غطرسة: عبد حقير من رعيتى يكتب اسمه قبلى، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: «مزق الله ملكه»، وقد كان كما قال، فقد كتب كسرى إلى بَاذَان عامله على اليمن: ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به. فاختار باذان رجلين ممن عنده، أحدهما: قهرمانه بانويه، وكان حاسبًا كاتبًا بكتاب فارس. وثانيهما: خرخسرو من الفرس[(١)]، وبعثهما بكتاب إلى رسول الله ﷺ يأمر أن ينصرف معهما إلى كسرى، فلما قدما المدينة، وقابلا النبي ﷺ، قال أحدهما: إن شاهنشاه (ملك الملوك) كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره بأن يبعث إليك من يأتيه بك، وبعثنى إليك لتنطلق معى، وقال قولًا توعده فيه، فأمرهما النبى ﷺ أن يلاقياه غدًا.

وفى ذلك الوقت كانت قد قامت ثورة كبيرة ضد كسرى من داخل بيته بعد أن لاقت جنوده هزيمة منكرة أمام جنود قيصر، فقد قام شيرويه بن كسرى على أبيه فقتله، وأخذ الملك لنفسه، وكان ذلك فى ليلة الثلاثاء لعشر مضين من جمادى الأولى سنة سبع[(٢)]، وعلم رسول الله ﷺ الخبر من الوحى، فلما غدوا عليه أخبرهما بذلك. فقالا: هل تدرى ما تقول؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر، أفنكتب هذا عنك، ونخبره الملك. قال: **«نعم أخبراه ذلك عنى، وقولا له: إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ كسرى ! وينتهى إلى منتهى الخف والحافر، وقولا له: إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك، وملكتك على قومك من الأبناء»**، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر، وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه، وقال له شيرويه فى كتابه: انظر الرجل الذى كان كتب فيه أبى إليك، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٧.

(٢) فتح البارى ٨/ ١٢٧، وتاريخ ابن خلدون ٢/ ٣٧.

وكان ذلك سببًا فى إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن[(١)].

٤ - الكتاب إلى قيصر ملك الروم:

روى البخارى - ضمن حديث طويل - نص الكتاب الذى كتبه النبى ﷺ إلى ملك الروم هرقل، وهو هذا:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين I H G F E D C B A @ ? > = < ; [**Z** Z Y X W V U T R Q P O N M L K J **[آل عمران]»**[(٢)].

واختار لحمل هذا الكتاب دَحْيَة بن خليفة الكلبى، وأمره أن يدفعه إلى عظيم بصرى، ليدفعه إلى قيصر، وقد روى البخارى عن ابن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش، كانوا تجارًا بالشام، فى المدة التى كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء[(٣)]، فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا ترجمانه فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ قال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسبًا، فقال: أدنوه منى، وقربوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: إنى سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبنى فكذبوه، فو الله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبًا لكذبت عليه.

ثم قال: أول ما سألنى عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ فقلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١/ ١٤٧، وفتح البارى ٨/ ١٢٧، ١٢٨.

(٢) صحيح البخارى ١/ ٤، ٥. والأريسيون: الفلاحون، وهم كانوا عامة شعبه.

(٣) كان قيصر جاء إذ ذاك فى إيلياء- بيت المقدس- من حمص، شكرًا لما مَنَّ الله عليه من إلحاق الهزيمة الساحقة بالفرس. (انظر: صحيح مسلم ٢/ ٩٩)، وكانت الفرس قد قتلوا كسرى أبرويز، وصالحوا الروم على تسليم جميع ما كانوا قد احتلوا من بلاد قيصر، وردوا إليه الصليب الذى تزعم النصارى أن المسيح عليه السلام كان قد صلب عليه، فكان قيصر قد جاء إلى إيلياء (بيت المقدس) سنة ٦٢٩م (أى سنة ٧ هـ) يضع الصليب فى موضعه ويشكر الله على هذا الفتح المبين.

أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه: قلت: لا. قال: فهل تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها - قال: ولم تمكننى كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة - قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: «**اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم**»، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، وكذلك الرسل تبعث فى نسب من قومها. وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول قبله؟ فذكرت أن لا. قلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتسى بقول قيل قبله. وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا. فقلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس، ويكذب على الله. وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك: أيرتد أحد سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: بماذا يأمر؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئًا وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمى هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه أنه منكم، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه.

ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرئ، فلما فرغ من قراءة الكتاب ارتفعت الأصوات عنده وكثر اللغط، وأمر بنا فأخرجنا، قال: فقلت لأصحابى حين أخرجنا: لقد أمِرَ[1]

(١) أى: اشتد أمره. وأبو كبشة هو وجز بن غالب الخزاعى جد وهب بن عبد مناف من جهة الأم، ووهب هو جد النبى ﷺ من جهة الأم، كان أبو كبشة مشركًا فذهب إلى الشام فتنصر، فلما خالف النبى ﷺ دين قريش وجاء بالحنيفية شبهوه به ونسبوه إليه للتعيير. (دلائل النبوة للبيهقى ١/ ٨٢، ٨٣، والسيرة النبوية لأبى حاتم، ص ٤٤).

أَمْرُ ابن أبى كَبْشَة، إنه ليخافه ملك بنى الأصفر[١]، فما زلت موقنا بأمر رسول الله ﷺ أنه سيظهر حتى أدخل الله على الإسلام[٢].

هذا ما رآه أبو سفيان من أثر هذا الكتاب على قيصر، وقد كان من أثره عليه أنه أجاز دحية بن خليفة الكلبى، حامل كتاب الرسول ﷺ بمال وكسوة، ولما كان دحية بحِسْمَى فى الطريق لقيه ناس من جُذَام، فقطعوها عليه، فلم يتركوا معه شيئًا، فجاء رسول الله ﷺ قبل أن يدخل بيته، فأخبره، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى حسمى، وهى وراء وادى القرى، فى خمسمائة رجل، فشن زيد الغارة على جذام، فقتل فيهم قتلًا ذريعًا، واستاق نَعَمهم ونساءهم، فأخذ من النعم ألف بعير، ومن الشاء خمسة آلاف، والسبى مائة من النساء والصبيان.

وكان بين النبى ﷺ وبين قبيلة جذام موادعة، فأسرع زيد بن رِفَاعة الجذامى أحد زعماء هذه القبيلة بتقديم الاحتجاج إلى النبى ﷺ، وكان قد أسلم هو ورجال من قومه، ونصروا دحية حين قطع عليه الطريق، فقبل النبى ﷺ احتجاجه، وأمر برد الغنائم والسبى.

وعامة أهل المغازى يذكرون هذه السرية قبل الحديبية، وهو خطأ واضح، فإن بعث الكتاب إلى قيصر كان بعد الحديبية ؛ ولذا قال ابن القيم: هذا بعد الحديبية بلا شك[٣].

٥ - الكتاب إلى المنذر بن سَاوِى:

وكتب النبى ﷺ إلى المنذر بن ساوى حاكم البحرين كتابًا يدعوه فيه إلى الإسلام، وبعث إليه العلاء بن الحضرمى بذلك الكتاب، فكتب المنذر إلى رسول الله ﷺ:

«أما بعد، يا رسول الله، فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه، ودخل فيه، ومنهم من كرهه، وبأرضى مجوس ويهود، فأحدث إلىّ فى ذلك أمرك».

فكتب إليه رسول الله ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى، سلام عليك، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد، فإنى أذكرك الله عز وجل، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطيع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى،

(١) بنو الأصفر هم الروم.

(٢) صحيح البخارى ١/ ٤، وصحيح مسلم ٢/ ٩٧- ٩٩.

(٣) انظر: زاد المعاد ٢/ ١٢٢، وحاشية تلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٢٩.

ومن نصح لهم فقد نصح لى، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرًا، وإنى قد شفعتك فى قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب، فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلم نعزلك عن عملك. ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية»[(١)].

٦ - الكتاب إلى هَوْذَة بن على صاحب اليمامة:

وكتب النبى ﷺ إلى هوذة بن على صاحب اليمامة:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هوذة بن على، سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن دينى سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك».

واختار لحمل هذا الكتاب سَلِيط بن عمرو العامرى، فلما قدم سليط على هوذة بهذا الكتاب مختومًا أنزله وحياه، وقرأ عليه الكتاب، فرد عليه ردًّا دون رد، وكتب إلى النبى ﷺ: «ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، والعرب تهاب مكانى، فاجعل لى بعض الأمر أتبعك»، وأجاز سليطًا بجائزة، وكساه أثوابًا من نسج هجر.

فقدم بذلك كله على النبى ﷺ فأخبره، وقرأ النبى ﷺ كتابه فقال: **«لو سألنى قطعة من الأرض ما فعلت، باد، وباد ما فى يديه»**. فلما انصرف رسول الله من الفتح جاءه جبريل عليه السلام بأن هوذة مات، فقال النبى ﷺ: **«أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبى، يقتل بعدى»**، فقال قائل: يا رسول الله، من يقتله؟ فقال: **«أنت وأصحابك»**، فكان كذلك؟[(٢)].

٧ - الكتاب إلى الحارث بن أبى شَمِر الغسانى صاحب دمشق:

كتب إليه النبى ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله وصدق، وإنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك».

واختار لحمل هذا الكتاب شجاع بن وهب من بنى أسد بن خزيمة، ولما أبلغه الكتاب

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٦١، ٦٢، والنص الذى أورده الدكتور حميد الله- آخذًا من صورة الكتاب الذى عثر عليه فى الماضى القريب- يختلف فى كلمة واحدة، ففيه: «لا إله غيره» بدل قوله: «لا إله إلا هو».

(٢) زاد المعاد ٣/ ٦٣.

رمى به وقال: «من ينزع ملكى منى؟ أنا سائر إليه»، ولم يسلم[(١)]. واستأذن قيصر فى حرب رسول الله ﷺ فثناه عن عزمه، فأجاز الحارث شجاع بن وهب بالكسوة والنفقة، ورده بالحسنى.

٨ - الكتاب إلى ملك عُمَان:

وكتب النبى ﷺ كتابًا إلى ملك عمان جَيْفَر وأخيه عبد ابنى الجُلَنْدَى، ونصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد:

فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإنى رسول الله ﷺ إلى الناس كافة، لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، فإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما [أن تقرا بالإسلام] فإن ملككما زائل، وخيلى تحل بساحتكما، وتظهر نبوتى على ملككما».

واختار لحمل هذا الكتاب عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال عمرو: فخرجت حتى انتهيت إلى عمان، فلما قدمتها عمدت إلى عبد - وكان أحلم الرجلين، وأسهلهما خلقًا - فقلت: إنى رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك، فقال: أخى المقدم على بالسن والملك، وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك، ثم قال: وما تدعو إليه؟ قلت: أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وتخلع ما عبد من دونه، وتشهد أن محمدًا عبده ورسوله. قال: يا عمرو، إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك؟ فإن لنا فيه قدوة. قلت: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ، ووددت أنه كان أسلم وصدق به، وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هدانى الله للإسلام. قال: فمتى تبعته؟ قلت: قريبًا. فسألنى أين كان إسلامك؟ قلت: عند النجاشى، وأخبرته أن النجاشى قد أسلم. قال: وكيف صنع قومه بملكه؟ فقلت: أقروه واتبعوه. قال: والأساقفة والرهبان تبعوه؟ قلت: نعم. قال: انظر يا عمرو ما تقول، إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له من الكذب. قلت: ما كذبت، وما نستحله فى ديننا، ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشى. قلت: بلى، قال: فبأى شىء علمت ذلك؟ قلت: كان النجاشى يخرج له خرجًا، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ، قال: لا والله لو سألنى درهما واحدًا ما أعطيته، فبلغ هرقل قوله، فقال له اليَنَّاق أخوه: أتدع عبدك لا يخرج لك خرجًا، ويدين بدين غيرك دينًا محدثًا؟ قال هرقل: رجل رغب فى دين، فاختاره لنفسه، ما أصنع به؟ والله لولا الضن بملكى لصنعت كما صنع. قال: انظر ما تقول يا عمرو؟ قلت: والله صدقتك.

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٦٣، ومحاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١/ ١٤٦.

قال عبد: فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه؟ قلت: يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته، ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان، وعن الزنا، وعن الخمر، وعن عبادة الحجر والوثن والصليب. قال: ما أحسن هذا الذى يدعو إليه، لو كان أخى يتابعنى عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ﷺ ونصدق به، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبًا. قلت: إنه إن أسلم مَلَّكَهُ رسول الله ﷺ على قومه، فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم. قال: إن هذا لخلق حسن. وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ فى الصدقات فى الأموال، حتى انتهيت إلى الإبل. قال: يا عمرو، وتؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى الشجر وترد المياه؟ فقلت: نعم، فقال: والله ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا.

قال: فمكثت ببابه أيامًا، وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى، ثم إنه دعانى يومًا فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضبعى فقال: دعوه، فأرسلت فذهبت لأجلس، فأبوا أن يدعونى أجلس، فنظرت إليه فقال: تكلم بحاجتك، فدفعت إليه الكتاب مختومًا، ففض خاتمه، وقرأ حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته، إلا أنى رأيت أخاه أرق منه، قال: ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه، إما راغب فى الدين، وإما مقهور بالسيف. قال: ومن معه؟ قلت: الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال، فما أعلم أحدًا بقى غيرك فى هذه الحَرجَة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتبعته توطئك الخيل وتبيد خضراءك، فأسلم تسلم، ويستعملك على قومك، ولا تدخل عليك الخيل والرجال، قال: دعنى يومى هذا، وارجع إلى غدًا.

فرجعت إلى أخيه فقال: يا عمرو، إنى لأرجو أن يسلم إن لم يَضِنَّ بملكه، حتى إذا كان الغد أتيت إليه، فأبى أن يأذن لى. فانصرفت إلى أخيه، فأخبرته أنى لم أصل إليه، فأوصلنى إليه، فقال: إنى فكرت فيما دعوتنى إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلًا ما فى يدى، وهو لاتبلغ خيله هاهنا، وإن بلغت خيله لقيت قتالًا ليس كقتال من لاقى. قلت: أنا خارج غدًا، فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه فقال: ما نحن فيما ظهر عليه، وكل من أرسل إليه قد أجابه، فأصبح فأرسل إلى، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعًا، وصدقا النبى ﷺ، وخليا بينى وبين الصدقة، وبين الحكم فيما بينهم، وكانا لى عونًا على من خالفنى[(١)].

(١) زاد المعاد ٣/ ٦٢، ٦٣.

وسياق هذه القصة تدل على أن إرسال الكتاب إليهما تأخر كثيرًا عن كتب بقية الملوك، والأغلب أنه كان بعد الفتح.

وبهذه الكتب كان النبى ﷺ قد أبلغ دعوته إلى أكثر ملوك الأرض، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر، ولكن شغل فكره هؤلاء الكافرين، وعرف لديهم باسمه ودينه.

obeikandl.com

النشاط العسكرى بعد صلح الحديبية

غزوة الغابة أو غزوة ذى قَرَد:

هذه الغزوة حركة مطاردة ضد فصيلة من بنى فَزَارة قامت بعمل القرصنة فى لِقَاحِ[١] رسول الله ﷺ.

وهى أول غزوة غزاها رسول الله ﷺ بعد الحديبية، وقبل خيبر. ذكر البخارى فى ترجمة باب أنها كانت قبل خيبر بثلاث، وروى ذلك مسلم مسندًا من حديث سلمة بن الأكوع. وذكر الجمهور من أهل المغازى أنها كانت قبل الحديبية، وما فى الصحيح أصح مما ذكره أهل المغازى[٢].

وخلاصة الروايات عن سلمة بن الأكوع بطل هذه الغزوة أنه قال: بعث رسول الله ﷺ بظهره مع غلامه رَبَاح، وأنا معه بفرس أبى طلحة، فلما أصبحنا إذا عبد الرحمن الفزارى قد أغار على الظهر، فاستاقه أجمع، وقتل راعيه، فقلت: يا رباح، خذ هذا الفرس فأبلغه أبا طلحة، وأخبر رسول الله ﷺ، ثم قمت على أَكَمَة، واستقبلت المدينة، فناديت ثلاثًا: يا صباحاه، ثم خرجت فى آثار القوم أرميهم بالنبل وأرتجز، أقول:

[خُـذْهـا] أنـا ابـنُ الأكْـوَع والـيـومُ يـومُ الـرُّضَّـع

فو الله ما زلت أرميهم وأعقر بهم، فإذا رجع إلىّ فارس جلست فى أصل الشجر، ثم رميته فتعفرت به، حتى إذا دخلوا فى تضايق الجبل علوته، فجعلت أردیهم بالحجارة، فما زلت كذلك أتبعهم حتى ما خلق الله تعالى من بعير من ظهر رسول الله ﷺ إلا خلفته وراء ظهرى، وخلوا بينى وبينه، ثم اتبعتهم أرميهم، حتى ألقوا أكثر من ثلاثين بردة، وثلاثين رمحًا يستخفون، ولا يطرحون شيئًا إلا جعلت عليه آرامًا من الحجارة، يعرفها رسول الله ﷺ وأصحابه. حتى أتوا متضايقًا من ثَنِيَّةٍ، فجلسوا يتغدون، وجلست على رأس قَرْن، فصعد

(١) اللقاح: الإبل الحوامل ذوات اللبن.

(٢) انظر: صحيح البخارى: باب غزوة ذات قرد ٢/ ٦٠٣، وصحيح مسلم: باب غزوة ذى قرد وغيرها ٢/ ١١٣- ١١٥، وفتح البارى ٧/ ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٣، وزاد المعاد ٢/ ١٢٠ ويدل على تأخر هذه الغزوة عن الحديبية حديث آخر رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى: كتاب الحج، باب الترغيب فى سكنى المدينة والصبر على لأوائها ٢/ ١٠٠١ (١٣٧٤/ ٤٧٥).

إلى منهم أربعة فى الجبل، قلت: هل تعرفوننى؟ أنا سلمة بن الأكوع، لا أطلب رجلًا منكم إلا أدركته، ولا يطلبنى فيدركنى، فرجعوا. فما برحت مكانى حتى رأيت فوارس رسول الله ﷺ يتخللون الشجر، فإذا أولهم أخرم، وعلى أثره أبو قتادة، وعلى أثره المقداد بن الأسود، فالتقى عبد الرحمن وأخرم، فعقر بعبد الرحمن فرسه، وطعنه عبد الرحمن فقتله، وتحول على فرسه، ولحق أبو قتادة بعبد الرحمن فطعنه فقتله، وولى القوم مدبرين، فتبعتهم أعدو على رجلى، حتى يعدلوا قبل غروب الشمس إلى شعب فيه ماء يقال له: ذو قَرَد، ليشربوا منه، وهم عطاش، فأجليتهم عنه، فما ذاقوا قطرة منه، ولحقنى رسول الله ﷺ والخيل عشاء، فقلت: يا رسول الله، إن القوم عطاش، فلو بعثتنى فى مائة رجل استنقذت ما عندهم من السَّرْح، وأخذت بأعناق القوم، فقال: «**يا بن الأكوع. ملكت فأسجح**»، ثم قال: «**إنهم ليقرون الآن فى غطفان**».

وقال رسول الله ﷺ: «**خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة**». وأعطانى سهمين، سهم الراجل وسهم الفارس، وأردفنى وراءه على العَضْبَاء راجعين إلى المدينة.

استعمل رسول الله ﷺ على المدينة فى هذه الغزوة ابن أم مكتوم، وعقد اللواء للمقداد ابن عمرو[(١)].

(١) انظر: صحيح البخارى ٢/ ٦٠٣، وصحيح مسلم ٢/ ١١٣- ١١٥، وزاد المعاد ٢/ ١٢٠.

غزوة خيبر ووادى القُرى

«فى المحرم سنة ٧ هـ»

كانت خيبر مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بعد ثمانين ميلا من المدينة فى جهة الشمال، وهى الآن قرية فى مناخها بعض الوخامة.

سبب الغزوة:

ولما اطمأن رسول الله ﷺ من أقوى أجنحة الأحزاب الثلاثة، وهو قريش، وأمن منه تمامًا بعد صلح الحديبية أراد أن يحاسب الجناحين الباقيين - اليهود وقبائل نجد - حتى يتم الأمن والسلام، ويسود الهدوء فى المنطقة، ويفرغ المسلمون من الصراع الدامى المتواصل إلى تبليغ رسالة الله والدعوة إليه.

ولما كانت خيبر هى وكرة الدس والتآمر ومركز الاستفزازات العسكرية، ومعدن التحرشات وإثارة الحروب، كانت هى الجديرة بالتفات المسلمين أولا.

أما كون خيبر بهذه الصفة، فلا ننسى أن أهل خيبر هم الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بنى قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا فى الاتصالات بالمنافقين - الطابور الخامس فى المجتمع الإسلامى - وبغطفان وأعراب البادية - الجناح الثالث من الأحزاب - وكانوا هم أنفسهم يتهيأون للقتال، فألقوا المسلمين بإجراءاتهم هذه فى محن متواصلة، حتى وضعوا خطة لاغتيال النبى ﷺ، وإزاء ذلك اضطر المسلمون إلى بعوث متواصلة، وإلى الفتك برأس هؤلاء المتآمرين، مثل سلام بن أبى الحُقَيْق، وأسِير بن زارم، ولكن الواجب على المسلمين إزاء هؤلاء اليهود كان أكبر من ذلك، وإنما أبطأوا فى القيام بهذا الواجب ؛ لأن قوة أكبر وأقوى وألد وأعند منهم - وهى قريش - كانت مجابهة للمسلمين، فلما انتهت هذه المجابهة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين، واقترب لهم يوم الحساب.

الخروج إلى خيبر:

قال ابن إسحاق: أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم، ثم خرج فى بقية المحرم إلى خيبر.

قال المفسرون: إن خيبر كانت وعدا وعدها الله تعالى بقوله:] وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ Z [الفتح: ٢٠] يعنى: صلح الحديبية، وبالمغانم الكثيرة: خيبر.

عدد الجيش الإسلامى:

ولما كان المنافقون وضعفاء الإيمان تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة الحديبية أمر الله تعالى نبيه ﷺ فيهم قائلًا: [¹ º » ¼ ½ ¾ ¿ À Á Â Ã Ä Å Æ Ç È É Ê Ë Ì Í Î Ï Ð Ñ Ò Ó Ô Õ Ö × Ø Ù Ú Û Ü Z [الفتح].

فلما أراد رسول الله ﷺ الخروج إلى خيبر أعلن ألا يخرج معه إلا راغب فى الجهاد، فلم يخرج إلا أصحاب الشجرة وهم ألف وأربعمائة.

واستعمل على المدينة سِبَاع بن عُرْفُطَةَ الغفارى، وقال ابن إسحاق: نُمَيْلَة بن عبد الله الليثى، والأول أصح عند المحققين[١].

وبعد خروجه ﷺ قدم أبو هريرة المدينة مسلمًا، فوافى سباع بن عرفطة فى صلاة الصبح، فلما فرغ من صلاته أتى سباعا فزوده، حتى قدم على رسول الله ﷺ، وكلم المسلمين فأشركوه وأصحابه فى سهمانهم.

اتصال المنافقين باليهود:

وقد قام المنافقون يعملون لليهود، فقد أرسل رأس المنافقين عبد الله بن أبى إلى يهود خيبر: إن محمدًا قصد قصدكم، وتوجه إليكم، فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون، عزّل، لا سلاح معهم إلا قليل، فلما علم ذلك أهل خيبر، أرسلوا كنانة ابن أبى الحقيق وهَوْذَة بن قيس إلى غطفان يستمدونهم ؛ لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر، ومظاهرين لهم على المسلمين، وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين.

الطريق إلى خيبر:

وسلك رسول ﷺ فى اتجاهه نحو خيبر جبل عصر - بالكسر، وقيل: بالتحريك - ثم على الصهباء، ثم نزل على واد يقال له: الرجيع، وكان بينه وبين غطفان مسيرة يوم وليلة، فتهيأت غطفان وتوجهوا إلى خيبر، لإمداد اليهود، فلما كانوا ببعض الطريق سمعوا من خلفهم حسًّا ولغطًا، فظنوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم وأموالهم فرجعوا، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر.

(١) انظر: فتح البارى ٧/ ٤٦٥، وزاد المعاد ٢/ ١٣٣.

ثم دعا رسول الله ﷺ الدليلين اللذين كانا يسلكان بالجيش - وكان اسم أحدهما: حُسَيْل - ليدلاه على الطريق الأحسن، حتى يدخل خيبر من جهة الشمال - أى جهة الشام - فيحول بين اليهود وبين طريق فرارهم إلى الشام، كما يحول بينهم وبين غطفان.

قال أحدهما: أنا أدلك يا رسول الله ﷺ، فأقبل حتى انتهى إلى مفرق الطرق المتعددة وقال: يا رسول الله، هذه طرق يمكن الوصول من كل منها إلى المقصد، فأمر أن يسمها له واحدًا واحدًا. قال: اسم واحد منها حزن، فأبى النبى ﷺ من سلوكه، قال: اسم الآخر شاش، فامتنع منه أيضًا، وقال: اسم الآخر حاطب، فامتنع منه أيضًا، قال حسيل: فما بقى إلا واحد. قال عمر: ما اسمه؟ قال: مَرْحَب، فاختار النبى ﷺ سلوكه.

بعض ما وقع فى الطريق:

١ - عن سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع النبى ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلًا، فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر، ألا تسمعنا من هنيهاتك؟ - وكان عامر رجلًا شاعرًا - فنزل يحدو بالقوم، يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تَصدَّقْنا ولا صَلَّينا
فاغفر فِدَاءً لك ما اقْتَفَيْنا وَثبِّت الأقدام إن لاقينا
وألْقِينْ سكينة علينا إنا إذا صِيحَ بنا أبينا
وبالصياح عَوَّلُوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: «من هذا السائق» قالوا: عامر بن الأكوع، قال: «يرحمه الله»: قال رجل من القوم: وجبت يا نبى الله، لولا أمتعتنا به[(١)].

وكانوا يعرفون أن رسول الله ﷺ لا يستغفر لإنسان يخصه إلا استشهد[(٢)]، وقد وقع ذلك فى حرب خيبر.

٢ - وبالصهباء من أدنى خيبر صلى النبى ﷺ العصر، ثم دعا بالأزواد، فلم يؤت إلا بالسَّوِيق، فأمر به فثرى، فأكل وأكل الناس، ثم قام إلى المغرب، فمضمض، ومضمض الناس، ثم صلى ولم يتوضأ[(٣)]، ثم صلى العشاء[(٤)].

---

(١) صحيح البخارى: باب غزوة خيبر ٢/ ٦٠٣، وصحيح مسلم: باب غزوة ذى قرد وغيرها ٢/ ١١٥.
(٢) صحيح مسلم ٢/ ١١٥.
(٣) صحيح البخارى ٢/ ٦٠٣.
(٤) مغازى الواقدى (غزوة خيبر، ص ١١٢).

٣ – ولما دنا من خيبر وأشرف عليها قال: «قفوا»، فوقف الجيش، فقال: «**اللهم رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه القرية، وشر أهلها، وشر ما فيها، أقدموا، بسم الله**»[(١)].

الجيش الإسلامى إلى أسوار خيبر:

وبات المسلمون الليلة الأخيرة التى بدأ فى صباحها القتال قريبًا من خيبر، ولا تشعر بهم اليهود، وكان النبى ﷺ إذا أتى قومًا بليل لم يقربهم حتى يصبح، فلما أصبح صلى الفجر بغَلَس، وركب المسلمون، فخرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم، ولا يشعرون، بل خرجوا لأرضهم، فلما رأوا الجيش قالوا: محمد، والله محمد والخَمِيس[(٢)]، ثم رجعوا هاربين إلى مدينتهم، فقال النبى ﷺ: «**الله أكبر، خربت خيبر، الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**»[(٣)].

حصون خيبر:

وكانت خيبر منقسمة إلى شطرين، شطر فيها خمسة حصون:

١ – حصن ناعم. ٢ – حصن الصَّعْب بن معاذ. ٣ – حصن قلعة الزبير.

٤ – حصن أبىّ. ٥ – حصن النِّزَار.

والحصون الثلاثة الأولى منها كانت تقع فى منطقة يقال لها: «النطاة» وأما الحصنان الآخران فيقعان فى منطقة تسمى بالشَّقِّ.

أما الشطر الثانى، ويعرف بالكتيبة، ففيه ثلاثة حصون فقط:

١ – حصن القَمُوص (وكان حصن بنى أبى الحقيق من بنى النضير).

٢ – حصن الوَطِيح. ٣ – حصن السُّلالم.

وفى خيبر حصون وقلاع غير هذه الثمانية، إلا أنها كانت صغيرة، لا تبلغ إلى درجة هذه القلاع فى مناعتها وقوتها.

والقتال المرير إنما دار فى الشطر الأول منها، أما الشطر الثانى فحصونها الثلاثة مع كثرة المحاربين فيها سلمت دونما قتال.

---

(١) ابن هشام ٢/ ٣٢٩ وغيره.

(٢) الجيش.

(٣) صحيح البخارى: باب غزوة خيبر ٢/ ٦٠٣، ٦٠٤.

معسكر الجيش الإسلامى:

وتقدم رسول الله ﷺ حتى اختار لمعسكره منزلًا، فأتاه حُبَاب بن المنذر، فقال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أنزلكه الله، أم هو الرأى فى الحرب؟ قال: «**بل هو الرأى**» فقال: يا رسول الله، إن هذا المنزل قريب جدًّا من حصن نَطَاة، وجميع مقاتلى خيبر فيها، وهم يدرون أحوالنا، ونحن لا ندرى أحوالهم، وسهامهم تصل إلينا، وسهامنا لا تصل إليهم، ولا نأمن من بياتهم، وأيضًا هذا بين النخلات، ومكان غائر، وأرض وخيمة، لو أمرت بمكان خال عن هذه المفاسد نتخذه معسكرًا، قال ﷺ: «**الرأى ما أشرت**»، ثم تحول إلى مكان آخر.

التهيؤ للقتال وبشارة الفتح:

ولما كانت ليلة الدخول - وقيل: بل بعد عدة محاولات ومحاربات - قال النبى ﷺ: «**لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، [يفتح الله على يديه]**» فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «**أين على بن أبى طالب؟**» فقالوا: يا رسول الله، هو يشتكى عينيه، قال: «**فأرسلوا إليه**»، فأتى به فبصق رسول الله ﷺ فى عينيه، ودعا له، فبرئ، كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا، قال: «**انفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله، لأن يهدى الله بك رجلا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم**»[(١)].

بدء المعركة وفتح حصن ناعم:

أما اليهود فإنهم لما رأوا الجيش وفروا إلى مدينتهم تحصنوا فى حصونهم، وكان من الطبيعى أن يستعدوا للقتال.

وأول حصن هاجمه المسلمون من حصونهم الثمانية هو حصن ناعم.

وكان خط الدفاع الأول لليهود لمكانه الاستراتيجى، وكان هذا الحصن هو حصن مرحب البطل اليهودى الذى كان يعد بالألف.

خرج على بن أبى طالب رضي الله عنه بالمسلمين إلى هذا الحصن، ودعا اليهود إلى الإسلام، فرفضوا هذه الدعوة، وبرزوا إلى المسلمين ومعهم ملكهم مرحب، فلما خرج إلى ميدان

(١) صحيح البخارى: باب غزوة خيبر ٢/ ٦٠٥، ٦٠٦.

القتال دعا إلى المبارزة، قال سلمة بن الأكوع: فلما أتينا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه يقول:

قد عَلِمتْ خيبر أنى مَرْحَب شَاكِى السلاح بطل مُجَرَّب
إذا الحروب أقبلتْ تَلَهَّب

فبرز له عمى عامر فقال:

قد علمت خيبر أنى عامر شاكى السلاح بطل مُغَامِر

فاختلفا ضربتين، فوقع سيف مرحب فى ترس عمى عامر، وذهب عامر يسفل له، وكان سيفه قصيرًا، فتناول به ساق اليهودى ليضربه، فيرجع ذُبَاب سيفه فأصاب عين ركبته فمات منه، وقال فيه النبى ﷺ: «**إن له لأجرين - وجمع بين إصبعيه - إنه لَجَاهِدٌ مُجَاهِد، قَلَّ عربى مَشَى بها مِثْلَه**»(١).

ويبدو أن مرحبًا دعا بعد ذلك إلى البراز مرة أخرى وجعل يرتجز بقوله:

قد علمت خيبر أنى مرحب... إلخ، فبرز له على بن أبى طالب. قال سلمة بن الأكوع: فقال على:

أنا الذى سمتنى أمى حَيْدَرَهْ كَلَيْثِ غابات كَرِيه المَنْظَرَهْ
أُوفِيهم بالصَّاع كَيْل السَّنْدَرَهْ

فضرب رأس مرحب فقتله، ثم كان الفتح على يديه(٢).

ولما دنا على رضي الله عنه من حصونهم اطلع يهودى من رأس الحصن، وقال: من أنت؟ فقال: أنا على ابن أبى طالب، فقال اليهودى: علوتم وما أنزل على موسى.

ثم خرج ياسر أخو مرحب، وهو يقول: من يبارز؟ فبرز إليه الزبير، فقالت صفية أمه: يا رسول الله، يقتل ابنى، قال: «**بل ابنك يقتله**»، فقتله الزبير.

ودار القتال المرير حول حصن ناعم، قتل فيه عدة سراة من اليهود، انهارت لأجله

---

(١) صحيح مسلم: باب غزوة خيبر ٢/ ١٢٢، وباب غزوة ذى قرد وغيرها ٢/ ١١٥، وصحيح البخارى: باب غزوة خيبر ٢/ ٦٠٣. وذباب السيف: طرفه.

(٢) بين المصادر اختلاف كبير فى الرجل الذى قتل مرحبًا، وفى اليوم الذى قتل فيه وفتح هذا الحصن، وبعض هذا الاختلاف موجود فى سياق روايات الصحيحين أيضا، وهذا الترتيب أخذناه بعد ترجيح سياق رواية البخارى.

مقاومة اليهود، وعجزوا عن صد هجوم المسلمين، ويؤخذ من المصادر أن هذا القتال دام أيامًا لاقى المسلمون فيها مقاومة شديدة، إلا أن اليهود يئسوا من مقاومة المسلمين، فتسللوا من هذا الحصن إلى حصن الصَّعْب، واقتحم المسلمون حصن ناعم.

فتح حصن الصعب بن معاذ:

وكان حصن الصعب الحصن الثانى من حيث القوة والمناعة بعد حصن ناعم، قام المسلمون بالهجوم عليه تحت قيادة الحباب بن المنذر الأنصارى، ففرضوا عليه الحصار ثلاثة أيام، وفى اليوم الثالث دعا رسول الله ﷺ لفتح هذا الحصن دعوة خاصة.

روى ابن إسحاق أن بنى سهم من أسلم أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: لقد جهدنا، وما بأيدينا من شيء، فقال: «**اللهم إنك قد عرفت حالهم، وأن ليست بهم قوة، وأن ليس بيدى شيء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غَنَاء، وأكثرها طعامًا ووَدَكًا**». فغدا الناس ففتح الله عز وجل حصن الصعب بن معاذ، وما بخيبر حصن كان أكثر طعامًا وودكًا منه[(١)].

ولما ندب النبى ﷺ المسلمين بعد دعائه لمهاجمة هذا الحصن كان بنو أسلم هم المقاديم فى المهاجمة، ودار البراز والقتال أمام الحصن، ثم فتح الحصن فى ذلك اليوم قبل أن تغرب الشمس، ووجد فيه المسلمون بعض المنجنيقات والدبابات.

ولأجل هذه المجاعة الشديدة التى ورد ذكرها فى رواية ابن إسحاق، كان رجال من الجيش قد ذبحوا الحمير، ونصبوا القدور على النيران، فلما علم رسول الله ﷺ بذلك نهى عن لحوم الحمر الإنسية.

فتح قلعة الزبير:

وبعد فتح حصن ناعم والصعب تحول اليهود من كل حصون النَّطَاة إلى قلعة الزبير، وهو حصن منيع فى رأس قُلَّةٍ[(٢)]، لا تقدر عليه الخيل والرجال لصعوبته وامتناعه، ففرض عليه رسول الله ﷺ الحصار، وأقام محاصرًا ثلاثة أيام، فجاء رجل من اليهود، وقال: يا أبا القاسم، إنك لو أقمت شهرًا ما بالوا، إن لهم شرابًا وعيونًا تحت الأرض، يخرجون بالليل ويشربون منها، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك، فإن قطعت مشربهم عليهم

(١) ابن هشام ملخصًا ٢/ ٣٣٢. والوَدَك: دسم اللحم.
(٢) قمة الجبل.

أصحروا لك. فقطع ماءهم عليهم، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال، قتل فيه نفر من المسلمين، وأصيب نحو العشرة من اليهود، وافتتحه رسول الله ﷺ.

فتح قلعة أبيٍّ:

وبعد فتح قلعة الزبير انتقل اليهود إلى قلعة أبى وتحصنوا فيه، وفرض المسلمون عليهم الحصار، وقام بطلان من اليهود واحد بعد الآخر بطلب المبارزة، وقد قتلهما أبطال المسلمين، وكان الذى قتل المبارز الثانى هو البطل المشهور أبو دُجَانة سِمَاك بن خَرَشَة الأنصارى صاحب العصابة الحمراء. وقد أسرع أبو دجانة بعد قتله إلى اقتحام القلعة، واقتحم معه الجيش الإسلامى، وجرى قتال مرير ساعة داخل الحصن، ثم تسلل اليهود من القلعة، وتحولوا إلى حصن النزار آخر حصن فى الشطر الأول.

فتح حصن النِّزَار:

كان هذا الحصن أمنع حصون هذا الشطر، وكان اليهود على شبه اليقين بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحام هذه القلعة، وإن بذلوا قصارى جهدهم فى هذا السبيل، ولذلك أقاموا فى هذه القلعة مع الذرارى والنساء، بينما كانوا قد أخلوا منها القلاع الأربعة السابقة.

وفرض المسلمون على هذا الحصن أشد الحصار، وصاروا يضغطون عليهم بعنف، ولكون الحصن يقع على جبل مرتفع منيع لم يكونوا يجدون سبيلا للاقتحام فيه. أما اليهود فلم يجترئوا للخروج من الحصن، وللاشتباك مع قوات المسلمين، ولكنهم قاوموا المسلمين مقاومة عنيدة برشق النبال، وبإلقاء الحجارة.

وعندما استعصى حصن النزار على قوات المسلمين، أمر النبى ﷺ بنصب آلات المنجنيق، ويبدو أن المسلمين قذفوا به القذائف، فأوقعوا الخلل فى جدران الحصن، واقتحموه، ودار قتال مرير فى داخل الحصن انهزم أمامه اليهود هزيمة منكرة، وذلك لأنهم لم يتمكنوا من التسلل من هذا الحصن كما تسللوا من الحصون الأخرى، بل فروا من هذا الحصن تاركين للمسلمين نساءهم وذراريهم.

وبعد فتح هذا الحصن المنيع تم فتح الشطر الأول من خيبر، وهى ناحية النَّطَاة والشَّقِّ، وكانت فى هذه الناحية حصون صغيرة أخرى إلا أن اليهود بمجرد فتح هذا الحصن المنيع أخلوا هذه الحصون، وهربوا إلى الشطر الثانى من بلدة خيبر.

فتح الشطر الثانى من خيبر:

ولما أتم رسول الله ﷺ فتح ناحية النطاة والشق، تحول إلى أهل الكتيبة التى بها حصن القَمُوص: حصن بنى أبى الحُقَيْق من بنى النضير، وحصن الوَطِيح والسُّلالم، وجاءهم كل فَلٍّ كان انهزم من النطاة والشق، وتحصن هؤلاء أشد التحصن.

واختلف أهل المغازى هل جرى هناك قتال فى أى حصن من حصونها الثلاثة أم لا؟ فسياق ابن إسحاق صريح فى جريان القتال لفتح حصن القموص، بل يؤخذ من سياقه أن هذا الحصن تم فتحه بالقتال فقط من غير أن يجرى هناك مفاوضة للاستسلام[(١)].

أما الواقدى، فيصرح تمام التصريح أن قلاع هذا الشطر الثلاث إنما أخذت بعد المفاوضة، ويمكن أن تكون المفاوضة قد جرت لاستلام حصن القموص بعد إدارة القتال، وأما الحصنان الآخران فقد سلما إلى المسلمين دونما قتال.

ومهما كان، فلما أتى رسول الله ﷺ إلى هذه الناحية - الكتيبة - فرض على أهلها أشد الحصار، ودام الحصار أربعة عشر يومًا، واليهود لا يخرجون من حصونهم، حتى همّ رسول الله ﷺ أن ينصب عليهم المنجنيق، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله ﷺ الصلح.

المفاوضة:

وأرسل ابن أبى الحُقَيْق إلى رسول الله ﷺ: أنزل فأكلمك؟ قال: «نعم»، فنزل، وصالح على حقن دماء مَنْ فى حصونهم من المقاتلة، وترك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض، وعلى الصفراء والبيضاء - أى الذهب والفضة - والكُرَاع والْحَلْقَة إلا ثوبًا على ظهر إنسان[(٢)]، فقال رسول الله ﷺ: «**وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتمونى شيئا**»، فصالحوه على ذلك[(٣)]، وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلى المسلمين، وبذلك تم فتح خيبر.

---

(١) ابن هشام ٢/ ٣٣١، ٣٣٦، ٣٣٧.

(٢) ولكن صرح فى رواية أبى داود أنه عاهد على أن المسلمين يسمحون لليهود عند جلائهم عن خيبر أن يأخذوا من الأموال ما حملت ركابهم (انظر: سنن أبى داود: باب ما جاء فى حكم أرض خيبر ٢/ ٧٦).

(٣) زاد المعاد ٢/ ١٣٦، والكراع: الخيل، والحلقة: السلاح.

قتل ابنى أبى الحقيق لنقض العهد:

وعلى رغم هذه المعاهدة غيب ابنا أبى الحقيق مالا كثيرا، غيبا مَسْكًا[1] فيه مال وحُلَى لحيى ابن أخطب، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير.

قال ابن إسحاق: وأتى رسول الله ﷺ بكِنَانة الربيع، وكان عنده كنز بنى النضير، فسأله عنه، فجحد أن يكون يعرف مكانه، فأتى رجل من اليهود فقال: إنى رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة، فقال رسول الله ﷺ لكنانة: «**أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك؟**» قال: نعم، فأمر بالخربة، فحفرت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بقى، فأبى أن يؤديه. فدفعه إلى الزبير، وقال: عذبه حتى نستأصل ما عنده، فكان الزبير يقدح بزند فى صدره حتى أشرف على نفسه، ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه بمحمود بن مسلمة (وكان محمود قتل تحت جدار حصن ناعم، ألقى عليه الرحى، وهو يستظل بالجدار فمات).

وذكر ابن القيم أن رسول الله ﷺ أمر بقتل ابنى أبى الحقيق، وكان الذى اعترف عليهما بإخفاء المال هو ابن عم كنانة.

وسبى رسول الله ﷺ صفية بنت حيى بن أخطب، وكانت تحت كنانة بن أبى الحقيق، وكانت عروسًا حديثة عهد بالدخول.

قسمة الغنائم:

وأراد رسول الله ﷺ أن يجلى اليهود من خيبر، فقالوا: يا محمد، دعنا نكون فى هذه الأرض، نصلحها، ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، وكانوا لا يفرغون حتى يقوموا عليها، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع، ومن كل ثمر، ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم، وكان عبد الله ابن رواحة يخرصه عليهم.

وقسم أرض خيبر على ستة وثلاثين سهمًا، جمع كل سهم مائة سهم، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم، فكان لرسول الله ﷺ والمسلمين النصف من ذلك وهو ألف وثمانمائة سهم، لرسول الله ﷺ سهم كسهم أحد المسلمين، وعزل النصف الآخر، وهو ألف وثمانمائة سهم، لنوائبه وما يتنزل به من أمور المسلمين، وإنما قسمت على ألف وثمانمائة سهم لأنها

(١) جِلْدًا.

كانت طعمة من الله لأهل الحديبية من شهد منهم ومن غاب، وكانوا ألفا وأربعمائة، وكان معهم مائتا فرس، لكل فرس سهمان، فقسمت على ألف وثمانمائة سهم، فصار للفارس ثلاثة أسهم، وللراجل سهم واحد[١].

ويدل على كثرة مغانم خيبر ما رواه البخارى عن ابن عمر قال: ما شبعنا حتى فتحنا خيبر، وما رواه عن عائشة قالت: لما فتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر[٢]، ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التى كانوا منحوهم إياها من النخيل حين صار لهم بخيبر مال ونخيل[٣].

قدوم جعفر بن أبى طالب والأشعريين:

وفى هذه الغزوة قدم عليه ابن عمه جعفر بن أبى طالب وأصحابه، ومعهم الأشعريون أبو موسى وأصحابه.

قال أبو موسى: بلغنا مخرج رسول الله ﷺ ونحن باليمن، فخرجنا مهاجرين إليه – أنا وأخوان لى – فى بضع وخمسين رجلًا من قومى، ركبنا سفينة، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشى بالحبشة، فوافقنا جعفرًا وأصحابه عنده، فقال: إن رسول الله ﷺ بعثنا وأمرنا بالإقامة، فأقيموا معنا، فأقمنا معه حتى قدمنا فوافقنا رسول الله ﷺ حين فتح خيبر، فأسهم لنا، وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر شيئا إلا لمن شهد معه، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر وأصحابه، قسم لهم معهم[٤].

ولما قدم جعفر على النبى ﷺ تلقاه وقَبَّلَ ما بين عينيه وقال: «**والله ما أدرى بأيهما أفرح؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر**»[٥].

وكان قدوم هؤلاء على أثر بعث الرسول ﷺ إلى النجاشى عمرو بن أمية الضمرى يطلب توجيههم إليه، فأرسلهم النجاشى على مركبين، وكانوا ستة عشر رجلًا، معهم من بقى من نسائهم وأولادهم، وبقيتهم جاءوا إلى المدينة قبل ذلك[٦].

---

(١) زاد المعاد ٢/ ١٣٧، ١٣٨.
(٢) صحيح البخارى ٢/ ٦٠٩.
(٣) زاد المعاد ٢/ ١٤٨، وصحيح مسلم ٢/ ٩٦.
(٤) صحيح البخارى ١/ ٤٤٣، وانظر أيضا: فتح البارى ٧/ ٤٨٤– ٤٨٧.
(٥) زاد المعاد ٢/ ١٣٩، والمعجم الصغير للطبرانى ١/ ١٩.
(٦) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية للخضرى ١/ ١٢٨.

الزواج بصفية:

ذكرنا أن صفية جعلت فى السبايا حين قتل زوجها كِنَانة بن أبى الحقيق لغدره، ولما جمع السبى جاء دحية بن خليفة الكلبى، فقال: يا نبى الله، أعطنى جارية من السبى، فقال: اذهب فخذ جارية، فأخذ صفية بنت حيى، فجاء رجل إلى النبى ﷺ فقال: يا نبى الله، أعطيت دحية صفية بنت حيى سيدة قريظة وبنى النضير، لا تصلح إلا لك، قال: «**ادعوه بها**». فجاء بها، فلما نظر إليها النبي ﷺ قال: «**خذ جارية من السبى غيرها**»، وعرض عليها النبى ﷺ الإسلام فأسلمت، فأعتقها وتزوجها، وجعل عتقها صداقها، حتى إذا كان بسد الصهباء راجعًا إلى المدينة حلت، فجهزتها له أم سليم، فأهدتها له من الليل، فأصبح عروسًا بها، وأولم عليها بحيس من التمر والسمن والسَّوِيق، وأقام عليها ثلاثة أيام فى الطريق يبنى بها[(١)].

ورأى بوجهها خضرة، فقال: «ما هذا؟» قالت: يا رسول الله، رأيت قبل قدومك علينا كأن القمر زال من مكانه، وسقط فى حجرى، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئا، فقصصتها على زوجى، فلطم وجهى. فقال: تمنين هذا الملك الذى بالمدينة[(٢)].

أمر الشاة المسمومة:

ولما اطمأن رسول الله ﷺ بخيبر بعد فتحها أهدت له زينب بنت الحارث، امرأة سَلاَّم بن مِشْكَم، شاة مَصْلِيَّةً، وقد سألت أى عضو أحب إلى رسول الله ﷺ؟ فقيل لها: الذراع، فأكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدى رسول الله ﷺ تناول الذراع، فَلاَكَ منها مضغة فلم يسغها، ولفظها، ثم قال: «**إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم**»، ثم دعا بها فاعترفت، فقال: «**ما حملك على ذلك؟**» قالت: قلت: إن كان ملكًا استرحت منه، وإن كان نبيًّا فسيخبر، فتجاوز عنها.

وكان معه بِشْر بن البراء بن مَعْرُور، أخذ منها أكلة فأساغها، فمات منها.

واختلفت الروايات فى التجاوز عن المرأة وقتلها، وجمعوا بأنه تجاوز عنها أولا، فلما مات بشر قتلها قصاصا[(٣)].

---

(١) صحيح البخارى ١/ ٥٤، ٢/ ٦٠٤، ٦٠٦، وزاد المعاد ٢/ ١٣٧. والحيس: الخلط.

(٢) المصدر نفسه الأخير، وابن هشام ٢/ ٣٣٦.

(٣) انظر: زاد المعاد ٢/ ١٣٩، ١٤٠، وفتح البارى ٧/ ٤٩٧، وأصل القصة مروية فى البخارى مطولًا ومختصرًا: ١/ ٤٤٩، ٢/ ٦١٠، ٨٦٠، وفى ابن هشام ٢/ ٣٣٧، ٣٣٨. و «مصلية»: مشوية.

قتلى الفريقين فى معارك خيبر:

وجملة من استشهد من المسلمين فى معارك خيبر ستة عشر رجلًا، أربعة من قريش وواحد من أشْجَع، وواحد من أسْلَم، وواحد من أهل خيبر والباقون من الأنصار.

ويقال: إن شهداء المسلمين فى هذه المعارك ٨١ رجلًا.

وذكر العلامة المنصورفورى ٩١ رجلًا، ثم قال: إنى وجدت بعد التفحص ٣٢ اسما، واحد منها فى الطبرى فقط، وواحد عند الواقدى فقط، وواحد مات لأجل أكل الشاة المسمومة، وواحد اختلفوا هل قتل فى بدر أو خيبر، والصحيح أنه قتل فى بدر[(١)].

أما قتلى اليهود فعددهم ثلاثة وتسعون قتيلًا.

فَدَك:

ولما بلغ رسول الله ﷺ إلى خيبر، بعث مُحَيِّصَة بن مسعود إلى يهود فَدَك ليدعوهم إلى الإسلام، فأبطأوا عليه، فلما فتح الله خيبر قذف الرعب فى قلوبهم، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك بمثل ما عامل عليه أهل خيبر، فقبل ذلك منهم، فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة؛ لأنه لم يُوجِف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب[(٢)].

وادى القُرَى:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من خيبر، انصرف إلى وادى القرى، وكان بها جماعة من اليهود، وانضاف إليهم جماعة من العرب.

فلما نزلوا استقبلتهم يهود بالرمى، وهم على تعبئة، فقتل مِدْعَم - عَبْدٌ لرسول الله ﷺ - فقال الناس: هنيئا له الجنة، فقال النبى ﷺ: **«كلا، والذى نفسى بيده، إن الشَّمْلَة التى أخذها يوم خيبر من المغانم، لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه نارًا»**، فلما سمع بذلك الناس جاء رجل إلى النبى ﷺ بشِرَاك أو شراكين، فقال النبى ﷺ: **«شراك من نار أو شراكان من نار»**[(٣)].

ثم عَبَّأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال، وصَفَّهم، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة، وراية إلى الحُبَاب بن المنذر، وراية إلى سهل بن حُنَيْف، وراية إلى عباد بن بشر، ثم دعاهم إلى الإسلام فأبوا، وبرز رجل منهم، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله، ثم برز آخر فقتله، ثم

(١) رحمة للعالمين ٢/ ٢٦٨- ٢٧٠.

(٢) ابن هشام ٢/ ٣٣٧، ٣٥٣.

(٣) صحيح البخارى ٢/ ٦٠٨.

برز آخر فبرز إليه على بن أبى طالب ﷺ فقتله، حتى قتل منهم أحد عشر رجلًا، كلما قتل منهم رجل دعا من بقى إلى الإسلام.

وكانت الصلاة تحضر هذا اليوم، فيصلى بأصحابه، ثم يعود، فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله، فقاتلهم حتى أمسوا، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم، وفتحها عنوة، وغَنَّمَهُ اللهُ أموالهم، وأصابوا أثاثا ومتاعًا كثيرًا.

وأقام رسول الله ﷺ بوادى القرى أربعة أيام. وقسم على أصحابه ما أصاب بها، وترك الأرض والنخل بأيدى اليهود، وعاملهم عليها (كما عامل أهل خيبر)[١].

تَيْمَاء:

ولما بلغ يهود تيماء خبر استسلام أهل خيبر ثم فَدَك ووادى القُرَى، لم يبدوا أى مقاومة ضد المسلمين، بل بعثوا من تلقاء أنفسهم يعرضون الصلح، فقبل ذلك منهم رسول الله ﷺ، وأقاموا بأموالهم[٢]. وكتب لهم بذلك كتابا وهاك نصه: «**هذا كتاب محمد رسول الله لبنى عاديا، أن لهم الذمة، وعليهم الجزية، ولا عداء ولا جلاء، الليل مد، والنهار شد**»، وكتب خالد بن سعيد[٣].

العودة إلى المدينة:

ثم أخذ رسول الله ﷺ فى العودة إلى المدينة، وفى الطريق أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير: «**الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله**» فقال رسول الله ﷺ: «**أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصَمَّ ولا غائبا، إنكم تدعون سميعا قريبا**»[٤].

وفى مرجعه ذلك سار النبى ﷺ ليلة، ثم نام فى آخر الليل ببعض الطريق، وقال لبلال: «**اكلأ لنا الليل**»، فغلبت بلالًا عيناه، وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ أحد، حتى ضربتهم الشمس، وأول من استيقظ بعد ذلك رسول الله ﷺ، ثم خرج من ذلك الوادى، وتقدم، ثم صلى الفجر بالناس، وقيل: إن هذه القصة فى غير هذا السفر[٥].

وبعد النظر فى تفصيل معارك خيبر، يبدو أن رجوع النبى ﷺ كان فى أواخر صفر أو فى ربيع الأول سنة ٧ هـ.

---

(١) زاد المعاد ٢/ ١٤٦، ١٤٧.
(٢) المصدر نفسه ٢/ ١٤٧.
(٣) ابن سعد ١/ ٢٧٩.
(٤) صحيح البخارى ٢/ ٦٠٥.
(٥) ابن هشام ٢/ ٣٤٠، والقصة معروفة مروية فى عامة كتب الحديث، وانظر: زاد المعاد ٢/ ١٤٧.

سرية أبَان بن سعيد:

كان النبى ﷺ يعرف أكثر من كل قائد عسكرى أن إخلاء المدينة تماما بعد انقضاء الأشهر الحرم ليس من الحزم قطعًا، بينما الأعراب ضاربة حولها، تطلب غرة المسلمين للقيام بالنهب والسلب وأعمال القرصنة ؛ ولذلك أرسل سرية إلى نجد لإرهاب الأعراب تحت قيادة أبان ابن سعيد، بينما كان هو إلى خيبر، وقد رجع أبان بن سعيد بعد قضاء ما كان واجبًا عليه، فوافى النبى ﷺ بخيبر، وقد افتتحها.

والأغلب أن هذه السرية كانت فى صفر سنة ٧هـ، وقد ورد ذكرها فى البخارى[١].

قال ابن حجر: لم أعرف حال هذه السرية[٢].

(١) انظر: صحيح البخارى: باب غزوة خيبر ٢/ ٦٠٨، ٦٠٩.

(٢) فتح البارى ٧/ ٤٩١.

obeikandl.com

بقية السرايا والغزوات
فى السنة السابعة

غزوة ذات الرِّقَاع:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من كسر جناحين قويين من أجنحة الأحزاب الثلاثة تفرغ تمامًا للالتفات إلى الجناح الثالث، أى إلى الأعراب القساة الضاربين فى فيافى نجد، والذين ما زالوا يقومون بأعمال النهب والسلب بين آونة وأخرى.

ولما كان هؤلاء البدو لا تجمعهم بلدة أو مدينة، ولم يكونوا يقطنون الحصون والقلاع، كانت الصعوبة فى فرض السيطرة عليهم وإخماد نار شرهم تمامًا تزداد بكثير عما كانت بالنسبة إلى أهل مكة وخيبر ؛ ولذلك لم تكن تجدى فيهم إلا حملات التأديب والإرهاب، وقام المسلمون بمثل هذه الحملات مرة بعد أخرى.

ولفرض الشوكة - أو لاجتماع البدو الذين كانوا يتحشدون للإغارة على أطراف المدينة - قام رسول الله ﷺ بحملة تأديبية عرفت بغزوة ذات الرقاع.

وعامة أهل المغازى يذكرون هذه الغزوة فى السنة الرابعة، ولكن حضور أبى موسى الأشعرى وأبى هريرة رضي الله عنهما فى هذه الغزوة يدل على وقوعها بعد خيبر، والأغلب أنها وقعت فى شهر ربيع الأول سنة ٧ هـ.

وملخص ما ذكره أهل السير حول هذه الغزوة: أن النبى ﷺ سمع باجتماع بنى أنمار أو بنى ثعلبة وبنى مُحَارِب من غطفان، فأسرع بالخروج إليهم فى أربعمائة أو سبعمائة من أصحابه، واستعمل على المدينة أبا ذر أو عثمان بن عفان رضي الله عنهما، وسار فتوغل فى بلادهم حتى وصل إلى موضع يقال له: نخل، على بعد يومين من المدينة، ولقى جمعًا من غطفان، فتقاربوا وأخاف بعضهم بعضًا ولم يكن بينهم قتال، إلا أنه صلى بهم يومئذ صلاة الخوف. وفى رواية البخارى: وأقيمت الصلاة فصلى بطائفة ركعتين، ثم تأخروا، وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين، وكان للنبى ﷺ أربع، وللقوم ركعتان[1].

وفى البخارى عن أبى موسى الأشعرى رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماى، وسقطت أظفارى، فكنا نلف

(١) صحيح البخارى ١/ ٤٠٧، ٤٠٨، ٢/ ٩٣.

على أرجلنا الخرق، فسميت ذات الرقاع، لما كنا نعصب الخرق على أرجلنا[١].

وفيه عن جابر: كنا مع النبى ﷺ بذات الرقاع، فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبى ﷺ، فنزل رسول الله ﷺ فتفرق الناس فى العضاة، يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق بها سيفه. قال جابر: فنمنا نومة، فجاء رجل من المشركين: فاخترط سيف رسول الله ﷺ، فقال: أتخافنى؟ قال: «لا»، قال: فمن يمنعك منى؟ قال: «الله». قال جابر: فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئنا، فإذا عنده أعرابى جالس. فقال رسول الله ﷺ: «**إن هذا اخترط سيفى وأنا نائم، فاستيقظت وهو فى يده صَلْتًا. فقال لى: من يمنعك منى؟ قلت: الله، فها هو ذا جالس**»، ثم لم يعاتبه رسول الله ﷺ. وفى رواية أبى عوانة: فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله ﷺ، فقال: «**من يمنعك منى؟**» قال: كن خير آخذ، قال: «**تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله؟**» قال الأعرابى: أعاهدك على ألا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، قال: فخلى سبيله، فجاء إلى قومه، فقال: جئتكم من عند خير الناس[٢].

وفى رواية البخارى: قال مسدد عن أبى عوانة عن أبى بشر: اسم الرجل غَوْرَث ابن الحارث[٣]. قال ابن حجر: ووقع عند الواقدى فى سبب هذه القصة: أن اسم الأعرابى دُعْثُور، وأنه أسلم، لكن ظاهر كلامه أنهما قصتان فى غزوتين. والله أعلم[٤].

وفى مرجعهم من هذه الغزوة سبوا امرأة من المشركين، فنذر زوجها ألا يرجع حتى يهريق دمًا فى أصحاب محمد ﷺ، فجاء ليلًا، وقد أرصد رسول الله ﷺ رجلين رَبِيئة[٥] للمسلمين من العدو، وهما عباد بن بشر وعمار بن ياسر، فضرب عبادًا، وهو قائم يصلى، بسهم فنزعه، ولم يبطل صلاته، حتى رشقه بثلاثة أسهم، فلم ينصرف منها حتى سلم، فأيقظ صاحبه، فقال: سبحان الله! هلا نبهتنى، فقال: إنى كنت فى سورة فكرهت أن أقطعها[٦].

---

(١) صحيح البخارى: باب غزوة ذات الرقاع ٢/ ٥٩٢، وصحيح مسلم: باب غزوة ذات الرقاع ٢/ ١١٨.

(٢) مختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى ص ٢٦٤، وانظر: فتح البارى ٧/ ٤١٦.

(٣) صحيح البخارى ٢/ ٥٩٣.

(٤) فتح البارى ٧/ ٤٢٨.

(٥) شخص مخصص للمراقبة.

(٦) زاد المعاد ٢/ ١١٢، وانظر لتفصيل مباحث هذه الغزوة: ابن هشام ٢/ ٢٠٣- ٣٠٩، وزاد المعاد ٢/ ١١٠- ١١٢، وفتح البارى ٧/ ١٧ ٤- ٤٢٨.

كان لهذه الغزوة أثر فى قذف الرعب فى قلوب الأعراب القساة، وإذا نظرنا إلى تفاصيل السرايا بعدالغزوة نرى أن هذه القبائل من غطفان لم تجترئ أن ترفع رأسها بعد هذه الغزوة، بل استكانت شيئًا فشيئًا حتى استسلمت، بل وأسلمت، حتى نرى عدة قبائل من هذه الأعراب تقوم مع المسلمين فى فتح مكة، وتغزو حُنَيْنًا، وتأخذ من غنائمها، ويبعث إليها المصدقون فتعطى صدقاتها بعد الرجوع من غزوة الفتح، فبهذا تم كسر الأجنحة الثلاثة التى كانت ممثلة فى الأحزاب، وساد المنطقة الأمن والسلام، واستطاع المسلمون بعد ذلك أن يسدوا بسهولة كل خلل وثلمة حدثت فى بعض المناطق من بعض القبائل، بل بعد هذه الغزوة بدأت التمهيدات لفتوح البلدان والممالك الكبيرة ؛ لأن الظروف فى داخل البلاد كانت قد تطورت لصالح الإسلام والمسلمين.

وبعد الرجوع من هذه الغزوة أقام رسول الله ﷺ إلى شوال سنة ٧ هـ. وبعث فى خلال ذلك عدة سرايا. وهاك بعض تفصيلها:

١ - **سرية غالب بن عبد الله الليثى إلى بنى المُلَوَّح بُقَدَيْد:** فى صفر أو ربيع الأول سنة ٧ هـ. كان بنو الملوح قد قتلوا أصحاب بشير بن سُوَيْد، فبعثت هذه السرية لأخذ الثأر، فشنوا الغارة فى الليل فقتلوا من قتلوا، وساقوا النعم، وطاردهم جيش كبير من العدو، حتى إذا قرب من المسلمين نزل مطر، فجاء سيل عظيم حال بين الفريقين. ونجح المسلمون فى بقية الانسحاب.

٢ - **سرية حِسْمَى:** فى جمادى الثانية سنة ٧هـ، وقد مضى ذكرها فى مكاتبة الملوك.

٣ - **سرية عمر بن الخطاب إلى تُرَبَة:** فى شعبان سنة ٧هـ، ومعه ثلاثون رجلًا. كانوا يسيرون الليل ويستخفون فى النهار، وأتى الخبر إلى هوازن فهربوا، وجاء عمر إلى محالهم فلم يلق أحدًا، فانصرف راجعًا إلى المدينة.

٤ - **سرية بشير بن سعد الأنصارى إلى بنى مرة بناحية فَدَك:** فى شعبان سنة ٧هـ فى ثلاثين رجلًا. خرج إليهم واستاق الشاء والنعم، ثم رجع فأدركه الطلب عند الليل، فرموهم بالنبل حتى فنى نبل بشير وأصحابه، فقتلوا جميعًا إلا بشير، فإنه ارْتُثَّ[1] إلى فدك، فأقام عند يهود حتى برأت جراحه، فرجع إلى المدينة.

٥ - **سرية غالب بن عبد الله الليثى:** فى رمضان سنة ٧ هـ إلى بنى عُوَال وبنى عبد بن

(١) حُمِل من المعركة جريحا.

ثعلبة بالمَيْفَعَة، وقيل: إلى الحُرَقَات من جُهَيْنَة، فى مائة وثلاثين رجلًا، فهجموا عليهم جميعًا، وقتلوا من أشرف لهم، واستاقوا نعما وشاء، وفى هذه السرية قتل أسامةُ بن زيد نَهِيكَ بن مِرْدَاس بعد أن قال: لا إله إلا الله، فلما قدموا وأخبر النبى ﷺ، كبر عليه وقال: «**أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله؟**» فقال: إنما قالها متعوذًا قال: «**فهلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب؟**».

٦ - **سرية عبد الله بن رواحة إلى خيبر**: فى شوال سنة ٧ هـ فى ثلاثين راكبًا. وذلك أن أسِير أو بشير بن زارم كان يجمع غطفان لغزو المسلمين، فأخرجوا أسيرًا فى ثلاثين من أصحابه، وأطمعوه أن الرسول ﷺ يستعمله على خيبر، فلما كانوا بقَرْقَرَة نِيَار وقع بين الفريقين سوء ظن أفضى إلى قتل أسير وأصحابه الثلاثين. ذكر الواقدى هذه السرية فى شوال سنة ست قبل خيبر بأشهر.

٧ - **سرية بشير بن سعد الأنصارى إلى يمن وجَبار** (بالفتح، أرض لغطفان، وقيل: لفَزَارَة وعُذْرَة): فى شوال سنة ٧ هـ فى ثلاثمائة من المسلمين، للقاء جمع كبير تجمعوا للإغارة على أطراف المدينة، فساروا الليل وكمنوا النهار، فلما بلغهم مسير بشير هربوا، وأصاب بشير نعما كثيرة، وأسر رجلين، فقدم بهما المدينة إلى رسول الله ﷺ فأسلما.

٨ - **سرية أبى حَدْرَد الأسلمى إلى الغابة**: ذكرها ابن القيم فى سرايا السنة السابعة قبل عمرة القضاء، وملخصها: أن رجلا من جُشَم بن معاوية أقبل فى عدد كبير إلى الغابة، يريد أن يجمع قيسًا على محاربة المسلمين. فبعث رسول الله ﷺ أبا حدرد مع رجلين ليأتوا منه بخبر وعلم، فوصلوا إلى القوم مع غروب الشمس، فكمن أبو حدرد فى ناحية، وصاحباه فى ناحية أخرى، وأبطأ على القوم راعيهم حتى ذهبت فحمة العشاء، فقام رئيس القوم وحده، فلما مر بأبى حدرد رماه بسهم فى فؤاده فسقط ولم يتكلم، فاحتز أبو حدرد رأسه، وشد فى ناحية العسكر، وكبر، وكبر صاحباه وشدا، فما كان من القوم إلا الفرار، واستاق المسلمون الثلاثة الكثير من الإبل والغنم[(١)].

(١) زاد المعاد ٢/ ١٤٩، ١٥٠، وابن هشام ٢/ ٦٢٩، ٦٣٠ وعنده: ابن أبى حدرد، وانظر لتفصيل هذه السرايا: رحمة للعالمين ٢/ ٢٢٩- ٢٣١، وزاد المعاد ٢/ ١٤٨- ١٥٠، وتلقيح فهوم أهل الأثر مع حواشيها، ص ٣١، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدى، ص ٣٢٢- ٣٢٤.

عمرة القضاء

قال الحاكم: تواترت الأخبار أنه ﷺ لما هَلَّ ذو القعدة أمر أصحابه أن يعتمروا قضاء عمرتهم، وألا يتخلف منهم أحد شهد الحديبية، فخرجوا إلا من استشهد، وخرج معه آخرون معتمرين، فكانت عدتهم ألفين سوى النساء والصبيان. اهـ[١].

واستخلف على المدينة عُوَيف بن الأضْبَط الدِّيلى، أو أبا رُهْم الغفارى، وساق ستين بدنة، وجعل عليها ناجية بن جُنْدُب الأسلمى، وأحرم للعمرة من ذى الحُلَيْفَة، ولبى، ولبى المسلمون معه، وخرج مستعدًّا بالسلاح والمقاتلة، خشية أن يقع من قريش غدر، فلما بلغ يَأجُج وضع الأداة كلها: الحَجَف والمِجَانّ والنَّبْل والرِّماح، وخلف عليها أوس بن خَوْلِى الأنصارى فى مائتى رجل، ودخل بسلاح الراكب: السيوف فى القُرُب[٢].

وكان رسول الله ﷺ عند الدخول راكبًا على ناقته القَصْواء، والمسلمون متوشحون السيوف، محدقون برسول الله ﷺ يلبون.

وخرج المشركون إلى جبل قُعَيْقِعَان - الجبل الذى فى شمال الكعبة - ليروا المسلمين، وقد قالوا فيما بينهم: إنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حمى يثرب، فأمر النبى ﷺ أصحابه أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين. ولم يمنعه أن يأمرهم أن يرملوا الأشواط كلها إلا الإبقاء عليهم، وإنما أمرهم بذلك ليرى المشركين قوته[٣] كما أمرهم بالاضطباع، أى أن يكشفوا المناكب اليمنى، ويضعوا طرفى الرداء على اليسرى.

ودخل رسول الله ﷺ مكة من الثنية التى تطلعه على الحَجُون - وقد صف المشركون ينظرون إليه - فلم يزل يلبى حتى استلم الركن بمِحْجَنِه، ثم طاف، وطاف المسلمون، وعبد الله بن رواحة بين يدى رسول الله ﷺ يرتجز متوشحًا بالسيف:

خلوا بنى الكفار عن سبيله ... خلوا فكل الخير فى رسوله
يارب إنى مؤمن بِقيلِه ... إنى رأيت الحق فى قبوله
بأن خير القتل فى سبيله ... اليوم نضربكم على تنزيله

(١) فتح البارى ٧/ ٥٠٠.
(٢) المصدر السابق نفسه، وزاد المعاد ٢/ ١٥١.
(٣) صحيح البخارى ١/ ٢١٨، ٢/ ٦١٠، ٦١١، وصحيح مسلم ١/ ٤١٢.

ضـربـا يـزيـل الـهـام عـن مقيله ويـذهـل الخليل عـن خليله[١]

وفى حديث أنس: فقال عمر: يا ابن رواحة، بين يدى رسول الله ﷺ، وفى حرم الله تقول الشعر؟ فقال له النبى ﷺ: «**خَلِّ عنه يا عمر، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل**»[٢].

ورَمَلَ رسول الله ﷺ والمسلمون ثلاثة أشواط، فلما رآهم المشركون قالوا: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا[٣].

ولما فرغ من الطواف سعى بين الصفا والمروة، فلما فرغ من السعى، وقد وقف الهدى عند المروة، قال: «**هذا المنحر، وكل فجاج مكة منحر**»، فنحر عند المروة، وحلق هناك، وكذلك فعل المسلمون، ثم بعث ناسًا إلى يَأْجُج، ليقيموا على السلاح، ويأتى الآخرون فيقضون نسكهم ففعلوا.

وأقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاثًا، فلما أصبح من اليوم الرابع أتوا عليًّا فقالوا: قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج النبى ﷺ، ونزل بسَرِف فأقام بها.

ولما أراد الخروج من مكة تبعتهم ابنة حمزة، تنادى، يا عم يا عم، فتناولها على، واختصم فيها على وجعفر وزيد، فقضى النبى ﷺ لجعفر ؛ لأن خالتها كانت تحته.

وفى هذه العمرة تزوج النبى ﷺ بميمونة بنت الحارث العامرية، وكان رسول الله ﷺ قبل الدخول فى مكة بعث جعفر بن أبى طالب بين يديه إلى ميمونة، فجعلت أمرها إلى العباس، وكانت أختها أم الفضل تحته، فزوجها إياه، فلما خرج من مكة خلف أبا رافع ليحمل ميمونة إليه حين يمشى، فبنى بها بسرف[٤].

وسميت هذه العمرة بعمرة القضاء ؛ إما لأنها كانت قضاء عن عمرة الحُدَيْبِيَة، أو لأنها وقعت حسب المقاضاة - أى المصالحة - التى وقعت فى الحديبية، والوجه الثانى رجحه المحققون[٥]، وهذه العمرة تسمى بأربعة أسماء: القضاء، والقَضِيَّة، والقصاص، والصُّلح[٦].

وقد أرسل رسول الله ﷺ بعد الرجوع من هذه العمرة عدة سرايا، وهى كما يلى:

---

(١) اضطربت الأشعار وترتيبها فى الروايات فجمعنا بين شتيتها.

(٢) رواه الترمذى: أبواب الاستئذان والأدب، باب ما جاء فى إنشاد الشعر ٢/ ١٠٧.

(٣) صحيح مسلم ١/ ٤١٢.

(٤) زاد المعاد ٢/ ١٥٢.

(٥) انظر: زاد المعاد ١/ ١٧٢، وفتح البارى ٧/ ٥٠٠.

(٦) انظر: فتح البارى ٧/ ٥٠٠.

١ - **سرية ابن أبى العوجاء:** فى ذى الحجة سنة ٧ هـ فى خمسين رجلًا. بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى سُلَيْم ؛ ليدعوهم إلى الإسلام، فقالوا: لا حاجة لنا إلى ما دعوتنا، ثم قاتلوا قتالًا شديدًا. جرح فيه أبو العوجاء، وأسر رجلان من العدو.

٢ - **سرية غالب بن عبد الله إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفَدَك:** فى صفر سنة ٨ هـ. بعث فى مائتى رجل، فأصابوا من العدو نعما، وقتلوا منهم قتلى.

٣ - **سرية ذات أطلح:** فى ربيع الأول سنة ٨ هـ. كانت بنو قُضَاعَة قد حشدت جموعًا كبيرة للإغارة على المسلمين، فبعث إليهم رسول الله ﷺ كعب بن عمير الأنصارى فى خمسة عشر رجلًا، فلقوا العدو، فدعوهم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم، وأرشقوهم بالنبل حتى استشهد كلهم إلا رجل واحد، فقد ارْتُثَّ من بين القتلى[(١)].

٤ - **سرية ذات عِرْق إلى بنى هوازن:** فى ربيع الأول سنة ٨ هـ. كانت بنو هوازن قد أمدت الأعداء مرة بعد أخرى فأرسل إليها شُجَاع بن وهب الأسدى فى خمسة وعشرين رجلًا، فاستاقوا نَعَما من العدو، ولم يلقوا كيدًا[(٢)].

(١) رحمة للعالمين ٢/ ٢٣١. وارتث: حُمِل جريحا.

(٢) المصدر السابق نفسه، وتلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزى، ص ٣٣ حاشية.

معركة مؤتة

وهذه المعركة أكبر لقاء مُثْخِن، وأعظم حرب دامية خاضها المسلمون فى حياة رسول الله ﷺ، وهى مقدمة وتمهيد لفتوح بلدان النصارى، وقعت فى جمادى الأولى سنة ٨هـ، وفق أغسطس أو سبتمبر سنة ٦٢٩ م.

ومؤتة (بالضم فالسكون) هى قرية بأدنى بلقاء الشام، بينها وبين بيت المقدس مرحلتان.

سبب المعركة:

وسبب هذه المعركة أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدى بكتابه إلى عظيم بُصْرَى. فعرض له شُرَحْبِيل بن عمرو الغسانى - وكان عاملًا على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر - فأوثقه رباطًا، ثم قدمه، فضرب عنقه.

وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم، يساوى بل يزيد على إعلان حالة الحرب، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ حين نقلت إليه الأخبار، فجهز إليهم جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل[١]، وهو أكبر جيش إسلامى لم يجتمع قبل ذلك إلا فى غزوة الأحزاب.

أمراء الجيش ووصية رسول الله ﷺ إليهم:

أمر رسول الله ﷺ على هذا البعث زيد بن حارثة، وقال: **«إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة»**[٢]، وعقد لهم لواء أبيض، ودفعه إلى زيد بن حارثة.

وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعوا مَنْ هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم، وقاتلوهم، وقال لهم: **«اغزوا بسم الله، فى سبيل الله، مَنْ كفر بالله، لا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدًا ولا امرأة، ولا كبيرًا فانيًا، ولا منعزلًا بصومعة، ولا تقطعوا نخلًا ولا شجرة، ولا تهدموا بناء»**[٣].

---

(١) زاد المعاد ٢/ ١٥٥، وفتح البارى ٧/ ٥١١.

(٢) صحيح البخارى: باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٢/ ٦١١.

(٣) مختصر السيرة للشيخ عبد الله، ص ٣٢٧، والحديث مروى بغير القصة فى صحيح مسلم وسنن أبى داود والترمذى وابن ماجه، وغيرها بألفاظ مختلفة.

توديع الجيش الإسلامى وبكاء عبد الله بن رواحة:

ولما تهيأ الجيش الإسلامى للخروج حضر الناس، وودعوا أمراء رسول الله ﷺ، وسلموا عليهم، وحينئذ بكى أحد أمراء الجيش - عبد الله بن رواحة - فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: أما والله ما بى حب الدنيا، ولا صبابة بكم، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار:] ` a b c | e f g h i j Z [مريم]، فلست أدرى كيف لى بالصدور بعد الورود؟ فقال المسلمون: صحبكم الله بالسلامة، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين غانمين، فقال عبد الله بن رواحة:

لكننى أسـأل الـرحـمـن مغفرة ... وضربة ذات فـرغ[1] تقذف الزَّبَدَا

أو طعنة بـيَـدَىْ حَـرَّان مُجْهِزَة ... بحَرْبَة تُنْفِذُ الأحـشـاء والكبدا

حتى يقال إذا مروا على جَدَثِى[2] ... يـا أرْشَـدَ الله من غاز وقد رَشَـدا

ثم خرج القوم، وخرج رسول الله ﷺ مشيعًا لهم حتى بلغ ثنية الوداع، فوقف وودّعهم[3].

تحرك الجيش الإسلامى، ومباغتته حالة رهيبة:

وتحرك الجيش الإسلامى فى اتجاه الشمال حتى نزل مَعَان، من أرض الشام، مما يلى الحجاز الشمالى، وحينئذ نقلت إليهم الاستخبارات بأن هرقل نازل بمآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لَخْم وجُذَام وبَلْقَيْن وبَهْرَاء وبَلِى مائة ألف.

المجلس الاستشارى بمَعَان:

لم يكن المسلمون أدخلوا فى حسابهم لقاء مثل هذا الجيش العرمرم - الذى بوغتوا به فى هذه الأرض البعيدة - وهل يهجم جيش صغير، قوامه ثلاثة آلاف مقاتل فحسب، على جيش كبير عرمرم مثل البحر الخضم، قوامه مائتا ألف مقاتل؟ حار المسلمون، وأقاموا فى مَعَان ليلتين يفكرون فى أمرهم، وينظرون ويتشاورون، ثم قالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ، فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له.

ولكن عبد الله بن رواحة عارض هذا الرأى، وشجع الناس، قائلًا: يا قوم، والله إن

---

(١) الفرغ: السعة.

(٢) قبرى.

(٣) ابن هشام ٢/ ٣٧٣، ٣٧٤، زاد المعاد ٢/ ١٥٦.

التى تكرهون لَلَّتِى خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هى إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة. وأخيرًا استقر الرأى على ما دعا إليه عبد الله بن رواحة.

الجيش الإسلامى يتحرك نحو العدو:

وحينئذ بعد أن قضى الجيش الإسلامى ليلتين فى معان، تحركوا إلى أرض العدو، حتى لقيتهم جموع هرقل بقرية من قرى البلقاء يقال لها: (شَارِف) ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى مؤتة، فعسكروا هناك، وتعبأوا للقتال، فجعلوا على ميمنتهم قُطْبَة بن قتادة العُذْرِى، وعلى الميسرة عبادة ابن مالك الأنصارى.

بداية القتال، وتناوب القواد:

وهناك فى مؤتة التقى الفريقان، وبدأ القتال المرير، ثلاثة آلاف رجل يواجهون هجمات مائتى ألف مقاتل. معركة عجيبة تشاهدها الدنيا بالدهشة والحيرة، ولكن إذا هبت ريح الإيمان جاءت بالعجائب.

أخذ الراية زيد بن حارثة - حِبُّ رسول الله ﷺ - وجعل يقاتل بضراوة بالغة، وبسالة لا يوجد لها نظير إلا فى أمثاله من أبطال الإسلام، فلم يزل يقاتل ويقاتل حتى شاط فى رماح القوم، وخر صريعًا.

وحينئذ أخذ الراية جعفر بن أبى طالب، وطفق يقاتل قتالًا منقطع النظير، حتى إذا أرهقه القتال اقتحم عن فرسه الشقراء فعقرها، ثم قاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، ولم يزل بها حتى قطعت شماله، فاحتضنها بعضديه، فلم يزل رافعًا إياها حتى قتل. يقال: إن روميًّا ضربه ضربةً قطعته نصفين، وأثابه الله بجناحيه جناحين فى الجنة، يطير بهما حيث يشاء ؛ ولذلك سمى بجعفر الطيار، وبجعفر ذى الجناحين.

روى البخارى عن نافع؛ أن ابن عمر أخبره: أنه وقف على جعفر يؤمئذ وهو قتيل، فعددت به خمسين بين طعنة وضربة، ليس منها شىء فى دبره، يعنى ظهره[١].

وفى رواية أخرى قال ابن عمر: كنت فيهم فى تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبى طالب فوجدناه فى القتلى، ووجدنا ما فى جسده بضعًا وتسعين من طعنة ورمية[٢]. وفى

(١،٢) صحيح البخارى: باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٢/ ٦١١.

رواية العمرى عن نافع زيادة: «فوجدنا ذلك فيما أقبل من جسده»[(١)].

ولما قتل جعفر بعد أن قاتل بمثل هذه الضراوة والبسالة، أخذ الراية عبد الله بن رواحة، وتقدم بها، وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد، حتى حاد حيدة ثم قال:

أقسمت يانفس لَتَنْزِلَنَّه كارهة أو لتُطَاوِعَنَّه
إن أجْلَبَ الناس وشدوا الرَّنَّة مالى أراك تكرهين الجنة

ثم نزل، فأتاه ابن عم له بعَرْق من لحم فقال: شد بهذا صلبك، فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده فانتهس منه نَهْسَة، ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قتل.

الراية إلى سيف من سيوف الله:

وحينئذ تقدم رجل من بنى عَجْلان - اسمه ثابت بن أقرم - فأخذ الراية وقال: يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناس على خالد ابن الوليد، فلما أخذ الراية قاتل قتالًا مريرًا، فقد روى البخارى عن خالد ابن الوليد قال: لقد انقطعت فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقى فى يدى إلا صفيحة يمانية[(٢)]. وفى لفظ آخر: لقد دق فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف، وصبرت فى يدى صفيحة لى يمانية[(٣)].

وقد قال رسول الله ﷺ يوم مؤتة - مخبرًا بالوحى، قبل أن يأتى إلى الناس الخبر من ساحة القتال: **«أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب** - وعيناه تذرفان - **حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم»**[(٤)].

نهاية المعركة:

ومع الشجاعة البالغة والبسالة والضراوة المريرتين، كان مستغربًا جدًّا أن ينجح هذا الجيش الصغير فى الصمود أما تيارات ذلك البحر الغطمطم من جيوش الروم. ففى ذلك

(١) انظر: فتح البارى ٧/ ٥١٢، وظاهر الحديثين التخالف فى العدد، وجمع بأن الزيادة باعتبار ما وجد فيه من رمى السهام، انظر المصدر المذكور.
(٢،٣) صحيح البخارى: باب غزوة مؤتة من أرض الشام ٢/ ٦١١.
(٤) صحيح البخارى ٢/ ٦١١.

الوقت أظهر خالد بن الوليد مهارته ونبوغه فى تخليص المسلمين مما ورطوا أنفسهم فيه.

واختلفت الروايات كثيرًا فيما آل إليه أمر هذه المعركة أخيرًا. ويظهر بعد النظر فى جميع الروايات أن خالد بن الوليد نجح فى الصمود أمام جيش الرومان طول النهار، فى أول يوم من القتال. وكان يشعر بمسيس الحاجة إلى مكيدة حربية تلقى الرعب فى قلوب الرومان حتى ينجح فى الانحياز بالمسلمين من غير أن يقوم الرومان بحركات المطاردة. فقد كان يعرف جيدًا أن الإفلات من براثنهم صعب جدًّا لو انكشف المسلمون، وقام الرومان بالمطاردة.

فلما أصبح اليوم الثانى غير أوضاع الجيش، وعبأه من جديد، فجعل مقدمته ساقه، وميمنته ميسرة، وعلى العكس، فلما رآهم الأعداء أنكروا حالهم، وقالوا: جاءهم مدد، فرعبوا، وصار خالد - بعد أن تراءى الجيشان، وتناوشا ساعة - يتأخر بالمسلمين قليلًا قليلًا، مع حفظ نظام جيشه، ولم يتبعهم الرومان ظنًّا منهم أن المسلمين يخدعونهم، ويحاولون القيام بمكيدة ترمى بهم فى الصحراء.

وهكذا انحاز العدو إلى بلاده، ولم يفكر فى القيام بمطاردة المسلمين ونجح المسلمون فى الانحياز سالمين، حتى عادوا إلى المدينة[(١)].

قتلى الفريقين:

واستشهد يومئذ من المسلمين اثنا عشر رجلًا، أما الرومان، فلم يعرف عدد قتلاهم، غير أن تفصيل المعركة يدل على كثرتهم.

أثر المعركة:

وهذه المعركة وإن لم يحصل المسلمون بها على الثأر، الذى عانوا مرارتها لأجله، لكنها كانت كبيرة الأثر لسمعة المسلمين، إنها ألقت العرب كلها فى الدهشة والحيرة، فقد كانت الرومان أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض، وكانت العرب تظن أن معنى جلادها هو القضاء على النفس وطلب الحتف بالظُّلْف، فكان لقاء هذا الجيش الصغير - ثلاثة آلاف مقاتل - مع ذلك الجيش الضخم العرمرم الكبير - مائتا ألف مقاتل - ثم الرجوع عن الغزو من غير أن تلحق به خسارة تذكر. كان كل ذلك من عجائب الدهر، وكان يؤكد أن

(١) انظر: فتح البارى ٧/ ٥١٣، ٥١٤، وزاد المعاد ٢/ ١٥٦، وتفصيل المعركة مأخوذ من هذين المصدرين والذى قبلهما.

المسلمين من طراز آخر غير ما ألفته العرب وعرفته، وأنهم مؤيدون ومنصورون من عند الله، وأن صاحبهم رسول الله حقًّا. ولذلك نرى القبائل اللدودة التى كانت لا تزال تثور على المسلمين جنحت بعد هذه المعركة إلى الإسلام، فأسلمت بنو سُلَيْم وأشْجَع وغَطَفَان وذُبْيَان وفَزَارَة وغيرها.

وكانت هذه المعركة بداية اللقاء الدامى مع الرومان، فكانت توطئة وتمهيدًا لفتوح البلدان الرومانية، واحتلال المسلمين الأراضى البعيدة النائية.

سرية ذات السَّلاسِل:

ولما علم رسول الله ﷺ بموقف القبائل العربية - التى تقطن مشارف الشام - فى معركة مؤتة من اجتماعهم إلى الرومان ضد المسلمين، شعر بمسيس الحاجة إلى القيام بحكمة بالغة توقع الفرقة بينها وبين الرومان، وتكون سببًا للائتلاف بينها وبين المسلمين، حتى لا تتحشد مثل هذه الجموع الكبيرة مرة أخرى.

واختار لتنفيذ هذه الخطة عمرو بن العاص ؛ لأن أم أبيه كانت امرأة من بَلِى. فبعثه إليهم فى جمادى الآخرة سنة ٨ هـ على إثر معركة مؤتة ؛ ليستألفهم، ويقال: بل نقلت الاستخبارات أن جمعًا من قُضَاعَة قد تجمعوا، يريدون أن يدنوا من أطراف المدينة، فبعثه إليه، ويمكن أن يكون السببان اجتمعا معًا.

وعقد رسول الله ﷺ لعمرو بن العاص لواء أبيض، وجعل معه راية سوداء، وبعثه فى ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار، ومعهم ثلاثون فرسًا، وأمره أن يستعين بمن مر به من بَلِى وعُذْرَة وبَلْقَيْن. فسار الليل وَكَمَنَ النهار، فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعًا كثيرًا، فبعث رافع بن مَكِيثٍ الجُهَنِى إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث إليه أبا عبيدة ابن الجراح فى مائتين، وعقد له لواء، وبعث له سراة المهاجرين والأنصار - فيهم أبو بكر وعمر - وأمره أن يلحق بعمرو، وأن يكونا جميعًا ولا يختلفا. فلما لحق به أراد أبو عبيدة أن يؤم الناس، فقال عمرو: إنما قدمت على مددا، وأنا الأمير، فأطاعه أبو عبيدة، فكان عمرو يصلى بالناس.

وسار حتى وطئ بلاد قُضَاعَة، فدوخها حتى أتى أقصى بلادهم، ولقى فى آخر ذلك جمعًا، فحمل عليهم المسلمون فهربوا فى البلاد وتفرقوا.

وبعث عوف بن مالك الأشجعى بريدًا إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بقفولهم وسلامتهم، وما كان فى غزاتهم.

وذات السلاسل (بضم السين الأولى وفتحها: لغتان) بقعة وراء وادى القُرَى، بينها وبين المدينة عشرة أيام. وذكر ابن إسحاق أن المسلمين نزلوا على ماء بأرض جُذَام يقال له: السلسل، فسمى ذات السلاسل[١].

سرية أبى قتادة إلى خضرة:

كانت هذه السرية فى شعبان سنة ٨ هـ ؛ وذلك لأن بنى غَطَفَان كانوا يتحشدون فى خَضِرَة - وهى أرض مُحَارِب بنَجْد - فبعث إليهم رسول الله ﷺ أبا قتادة فى خمسة عشر رجلًا، فقتل منهم، وسَبَى وغنم، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة[٢].

(١) انظر: ابن هشام ٢/ ٦٢٣-٦٢٦، وزاد المعاد ٢/ ١٥٧.

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر، ص ٣٣ وغيرها.

obeikandl.com

غزوة فتح مكة

قال ابن القيم: هو الفتح الأعظم الذى أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيته الذى جعله هدى للعالمين، من أيدى الكفار والمشركين، وهو الفتح الذى استبشر به أهل السماء، وضربت أطناب عِزِّه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به فى دين الله أفواجًا، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجًا [1] ا. هـ.

سبب الغزوة:

قدمنا فى وقعة الحديبية أن بندًا من بنود هذه المعاهدة يفيد أن من أحب أن يدخل فى عقد محمد ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه، وأن القبيلة التى تنضم إلى أى الفريقين تعتبر جزءًا من ذلك الفريق، فأى عدوان تتعرض له أى من تلك القبائل يعتبر عدوانًا على ذلك الفريق.

وحسب هذا البند دخلت خُزَاعَة فى عهد رسول الله ﷺ، ودخلت بنو بكر فى عهد قريش، وصارت كل من القبيلتين فى أمن من الأخرى، وقد كانت بين القبيلتين عداوة وتواترات فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام، ووقعت هذه الهدنة، وأمن كل فريق من الآخر - اغتنمها بنو بكر، وأرادوا أن يصيبوا من خزاعة الثأر القديم، فخرج نَوْفَل بن معاوية الدِّيلى فى جماعة من بنى بكر فى شهر شعبان سنة ٨هـ، فأغاروا على خزاعة ليلًا، وهم على ماء يقال له: (الوَتِير) فأصابوا منهم رجالًا، وتناوشوا واقتتلوا، وأعانت قريش بنى بكر بالسلاح، وقاتل معهم رجال من قريش مستغلين ظلمة الليل، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر: يا نوفل، إنا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك، فقال كلمة عظيمة: لا إله اليوم يا بنى بكر، أصيبوا ثأركم. فلعمرى إنكم لتَسرِقُون فى الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه؟

ولما دخلت خزاعة مكة لجأوا إلى دار بُدَيْل بن وَرْقَاء الخزاعى، وإلى دار مولى لهم يقال له: رافع.

وأسرع عمرو بن سالم الخزاعى، فخرج حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فوقف عليه، وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى الناس فقال:

---

(١) زاد المعاد ٢ / ١٦٠.

يـــارب إنـــى نـاشـــد محمد حلفنا وحلف أبيه الأتْـلَـدَا[١]
قـد كنتم وُلْـــدًا وكـنـا والـــدا[٢] ثُـمَّـةَ أسلمنا ولـــم نـنـزع يـدا
فانصر هـــداك الـلـه نـصـرًا أبـدا وادع عـبـاد الـلـه يـأتـوا مـددا
فيهم رســـول الـلـه قـد تـجـردا أبيضَ مثل البدر يسموا صُعُدا
إن سيم خَسْفًا وَجْـهُـهُ تَـرَبَّـدَا فى فَيْلَقٍ كالبحر يجرى مُزْبَدا
إن قـريـشـا أخـلـفـوك الـمـوعـدا ونـقـضـوا مـيـثـاقـك الـمـؤكـدا
وجـعـلـوا لـى فـى كَـــدَاء رَصَـــدا وزعـمـوا أن لَـسْـتُ أدعـو أحـدا
وهـــم أذل وأقـــل عـــددا هـم بَـيَّـتُـونـا بـالـوَتِـيـر هُـجَّـدا
وقتلونا رُكَّـعًـا وسُـجَّـدًا[٣]

فقال رسول الله ﷺ: «**نصرت يا عمرو بن سالم**»، ثم عرضت له سحابة من السماء، فقال: «**إن هذه السحابة لتستهل بنصر بنى كعب**».

ثم خرج بُدَيْل بن وَرْقَاء الخزاعى فى نفر من خُزَاعَة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فأخبروه بمن أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم، ثم رجعوا إلى مكة.

أبو سفيان يخرج إلى المدينة ليجدد الصلح:

ولا شك أن ما فعلت قريش وحلفاؤها كان غدرًا محضًا ونقضًا صريحًا للميثاق، لم يكن له أى مبرر، ولذلك سرعان ما أحست قريش بغدرها، وخافت وشعرت بعواقبه الوخيمة، فعقدت مجلسًا استشاريًّا، وقررت أن تبعث قائدها أبا سفيان ممثلًا لها ليقوم بتجديد الصلح.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أصحابه بما ستفعله قريش إزاء غدرتهم. قال: «**كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العَقْدَ، ويزيد فى المدة**».

وخرج أبو سفيان - حسب ما قررته قريش - فلقى بديل بن ورقاء بعُسْفَان - وهو راجع من المدينة إلى مكة - فقال: من أين أقبلت يا بديل؟ - وظن أنه أتى النبى ﷺ - فقال: سرت فى خزاعة فى هذا الساحل وفى بطن هذا الوادى. قال: أو ما جئت محمدًا؟ قال: لا.

---

(١) الأتلد: القديم، يشير إلى الحلف الذى كان بين خزاعة وبين بنى هاشم منذ عهد عبد المطلب.
(٢) يشير إلى أن أم عبد مناف - وهى حبى زوجة قصي - كانت من خزاعة.
(٣) يقول: قتلنا وقد أسلمنا.

فلما راح بديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى، فأتى مبرك راحلته، فأخذ من بعرها، ففته، فرأى فيها النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمدًا.

وقدم أبو سفيان المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بنية، أرغبت بى عن هذا الفراش، أم رغبت به عنى؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس. فقال: والله لقد أصابك بعدى شر.

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئًا، ثم ذهب إلى أبى بكر فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل. ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتكم به، ثم جاء فدخل على على بن أبى طالب، وعنده فاطمة، وحسن، غلام يدب بين يديهما، فقال: يا على، إنك أمس القوم بى رحمًا، وإنى قد جئت فى حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائبًا، اشفع لى إلى محمد، فقال: ويحك يا أبا سفيان، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة، فقال: هل لك أن تأمرى ابنك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما يبلغ ابنى ذاك أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ.

وحينئذ أظلمت الدنيا أمام عينى أبى سفيان، فقال لعلى بن أبى طالب فى هلع وانزعاج ويأس وقنوط: يا أبا الحسن، إنى أرى الأمور قد اشتدت على، فانصحنى، قال: والله ما أعلم لك شيئًا يغنى عنك. ولكنك سيد بنى كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الْحَقْ بأرضك. قال: أو ترى ذلك مغنيًا عنى شيئًا؟ قال: لا والله ما أظنه، ولكنى لم أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان فى المسجد، فقال: أيها الناس، إنى قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره، وانطلق.

ولما قدم على قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمدًا فكلمته، فوالله ما رد على شيئًا، ثم جئت ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرًا، ثم جئت عمر بن الخطاب، فوجدته أدنى العدو، ثم جئت عليًّا فوجدته ألين القوم، قد أشار على بشىء صنعته، فوالله ما أدرى هل يغنى عنى شيئًا أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرنى أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا. قالوا: ويلك، إن زاد الرجل على أن لعب بك. قال: لا والله ما وجدت غير ذلك.

التهيؤ للغزوة ومحاولة الإخفاء:

يؤخذ من رواية الطبرانى أن رسول الله ﷺ أمر عائشة - قبل أن يأتى إليه خبر نقض الميثاق بثلاثة أيام - أن تجهزه، ولا يعلم أحد، فدخل عليها أبو بكر، فقال: يابنية، ما هذا الجهاز؟ قالت: والله ما أدرى. فقال: والله ما هذا زمان غزو بنى الأصفر، فأين يريد رسول الله؟ قالت: والله لا علم لى، وفى صباح الثالثة جاء عمرو بن سالم الخزاعى فى أربعين راكبًا، وارتجز: يا رب إنى ناشد محمدًا... الأبيات. فعلم الناس بنقض الميثاق، وبعد عمرو جاء بديل، ثم أبو سفيان، وتأكد عند الناس الخبر، فأمرهم رسول الله ﷺ بالجهاز، وأعلمهم أنه سائر إلى مكة، وقال: «**اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها**».

وزيادة فى الإخفاء والتعمية بعث رسول الله ﷺ سرية قوامها ثمانية رجال، تحت قيادة أبى قتادة بن رِبْعِى، إلى بطن إضَم، فيما بين ذى خَشَب وذى المروة، على ثلاثة بُرُد من المدينة، فى أول شهر رمضان سنة ٨ هـ ؛ ليظن الظان أنه ﷺ يتوجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار، وواصلت هذه السرية سيرها، حتى إذا وصلت حيثما أمرت بلغها أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة، فسارت إليه حتى لحقته[(١)].

وكتب حاطب بن أبى بَلْتَعَة إلى قريش كتابًا يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جُعْلًا على أن تبلغه قريشًا، فجعلته فى قرون رأسها، ثم خرجت به، وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما صنع حاطب، فبعث عليًّا والمقداد والزبير بن العوام وأبا مَرْثَد الغَنَوِى فقال: «**انطلقوا حتى تأتوا رَوْضَةَ خَاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش**»، فانطلقوا تعادى بهم خيلهم حتى وجدوا المرأة بذلك المكان، فاستنزلوها، وقالوا: معك كتاب؟ فقالت: ما معى كتاب، ففتشوا رحلها فلم يجدوا شيئًا. فقال لها على: أحلف بالله، ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذبنا، والله لتخرجن الكتاب أو لنجردنك. فلما رأت الجد منه قالت: أعرض، فأعرض، فحلت قرون رأسها، فاستخرجت الكتاب منها، فدفعته إليهم، فأتوا به رسول الله ﷺ، فإذا فيه: «**من حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش**» يخبرهم بمسير

---

(١) وهذه السرية لقيت عامر بن الأضبط، فسلم علِيهم بتحية الإسلام، فقتله مُحَلِّم بن جثامة لشىء كان بينهما، وأخذ بعيره ومُتَيَعَه، فأنزل الله:] وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا Z الآية، وجاءوا بمحلم ليستغفر له رسول الله ﷺ، فلما قام بين يديه قال: «اللهم لا تغفر لمحلم»، وقالها ثلاثا، فقام وإنه ليتلقى دموعه بطرف ثوبه، قال ابن إسحاق: وزعم قومه أنه استغفر له بعد ذلك. انظر: زاد المعاد ٢/ ١٥٠، وابن هشام ٢/ ٦٢٦- ٦٢٨.

رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ حاطبًا، فقال: «**ما هذا يا حاطب؟**» فقال: لا تَعْجَلْ على يا رسول الله. والله إنى لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتددت ولا بدلت، ولكنى كنت امرأ مُلْصَقًا فى قريش ؛ لست من أنْفَسِهم، ولى فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس لى فيهم قرابة يحمونهم، وكان من معك له قرابات يحمونهم، فأحببت إذ فاتنى ذلك أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتى. فقال عمر بن الخطاب: دعنى يا رسول الله أضرب عنقه، فإنه قد خان الله ورسوله، وقد نافق، فقال رسول الله ﷺ: «**إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**»، فذَرَفَتْ عينا عمر، وقال: الله ورسوله أعلم[1].

وهكذا أخذ الله العيون، فلم يبلغ إلى قريش أى خبر من أخبار تجهز المسلمين وتهيئهم للزحف والقتال.

الجيش الإسلامى يتحرك نحو مكة:

ولعشر خلون من شهر رمضان المبارك ٨هـ، غادر رسول الله ﷺ المدينة متجهًا إلى مكة، فى عشرة آلاف من الصحابة رضي الله عنهم، واستخلف على المدينة أبا رُهْم الغفارى.

ولما كان بالجُحْفَة – أو فوق ذلك – لقيه عمه العباس بن عبد المطلب، وكان قد خرج بأهله وعياله مسلمًا مهاجرًا، ثم لما كان رسول الله ﷺ بالأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبى أمية، فأعرض عنهما، لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو، فقالت له أم سلمة: لا يكن ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك. وقال على لأبى سفيان بن الحارث: ائت رسول الله ﷺ من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف:] قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ Z [يوسف]، فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولًا. ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له رسول الله ﷺ:] لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ Z [يوسف]، فأنشده أبو سفيان أبياتًا منها:

لَعَمْرُكَ إنى حين أحمل راية ... لِتَغْلِبَ خَيْلُ اللات خَيْلَ محمد

لكالمُدْلِج الحيران أظلمَ ليلُه ... فهذا أوانى حين أهدَى فأهتدي

هدانى هادٍ غير نفسى ودَلَّنى ... على الله من طَرَّدْتُه كل مُطَرَّد

(١) انظر: صحيح البخارى ١/ ٤٢٢، ٢/ ٦١٢.

فضرب رسول الله ﷺ صدره وقال: «أنتَ طَرَّدْتَنِى كل مُطَرَّد؟»[١].

الجيش الإسلامى ينزل بمَرِّ الظَّهْرَان:

وواصل رسول الله ﷺ سيره وهو صائم، والناس صيام، حتى بلغ الكُدَيْد - وهو ماء بين عُسْفَان وقُدَيْد - فأفطر، وأفطر الناس معه[٢]. ثم واصل سيره حتى نزل بمر الظهران - وادى فاطمة - نزله عشاء، فأمر الجيش، فأوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

أبو سفيان بين يدى رسول الله ﷺ:

وركب العباس - بعد نزول المسلمين بمر الظهران - بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وخرج يلتمس، لعله يجد بعض الحَطَّابة أو أحدًا يخبر قريشًا ليخرجوا يستأمنون رسول الله ﷺ قبل أن يدخلها.

وكان الله قد عمى الأخبار عن قريش، فهم على وَجَلٍ وترقب، وكان أبو سفيان يخرج يتجسس الأخبار، فكان قد خرج هو وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء يتجسسون الأخبار.

قال العباس: والله إنى لأسير عليها - أى على بغلة رسول الله ﷺ - إذ سمعت كلام أبى سفيان وبديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا. قال: يقول بديل: هذه والله خزاعة، حَمَشَتْها[٣] الحرب، فيقول أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال العباس: فعرفت صوته، فقلت: أبا حَنْظَلَة؟ فعرف صوتى، فقال: أبا الفضل؟ قلت: نعم. قال: مالك؟ فداك أبى وأمى. قلت: هذا رسول الله ﷺ فى الناس، واصباح قريش والله.

---

(١) ابن هشام ٤/ ٤١، ٤٢، ودلائل النبوة للبيهقى ٥/ ٢٨.
حسن إسلام أبى سفيان هذا بعد ذلك، ويقال: إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم حياء منه. وكان رسول الله ﷺ يحبه، وشهد له بالجنة، وقال: «أرجو أن يكون خلفا من حمزة». ولما حضرته الوفاة قال: لا تبكوا عليّ، فوالله ما نطقت بخطيئة منذ أسلمت. زاد المعاد ٢/ ١٦٢، ١٦٣.

(٢) رواه أحمد في مسنده ١/ ٢٦٦، وقال الهيثمى فى المجمع (٦/ ١٦٧):«رجاله رجال الصحيح، غير ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع»، وابن هشام ٤/ ٤٠.

(٣) أحرقتها.

قال: فما الحيلة فداك أبى وأمى؟، قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب فى عجز هذه البغلة، حتى آتى بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك، فركب خلفى، ورجع صاحباه.

قال: فجئت به، فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين، قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته. حتى مررت بنار عمر ابن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إلى، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان، عدو الله؟ الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، وركضتُ البغلة فسبقت، فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان فدعنى أضرب عنقه، قال: قلت: يا رسول الله، إنى قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: والله لا يناجيه الليلة أحد دونى، فلما أكثر عمر فى شأنه قلت: مهلًا يا عمر، فوالله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت مثل هذا، قال: مهلًا يا عباس، فوالله لإسلامك كان أحب إلى من إسلام الخطاب، لو أسلم، وما بى إلا أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب.

فقال رسول الله ﷺ: **«اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتنى به»**، فذهبت، فلما أصبحت غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه قال: **«ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟»** قال: بأبى أنت وأمى، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك؟ لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئًا بعد.

قال: **«ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟»**، قال: بأبى أنت وأمى، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك: أما هذه فإن فى النفس حتى الآن منها شيء. فقال له العباس: ويحك أسلم، واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، قبل أن تضرب عنقك، فأسلم وشهد شهادة الحق.

قال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا. قال: **«نعم، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن»**.

الجيش الإسلامى يغادر مر الظهران إلى مكة:

وفى هذا الصباح - صباح يوم الثلاثاء للسابع عشر من شهر رمضان سنة ٨ هـ -

غادر رسول الله ﷺ مر الظهران إلى مكة، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان بمضيق الوادى عند خَطْم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها، ففعل، فمرت القبائل على راياتها، كلما مرت به قبيلة قال: يا عباس، من هذه؟ فيقول - مثلا - سليم، فيقول: مالى ولِسُلَيْم؟ ثم تمر به القبيلة فيقول: يا عباس، من هؤلاء؟ فيقول: مُزَيْنَة، فيقول: ما لى ولمزينة؟ حتى نفذت القبائل، ما تمر به قبيلة إلا سأل العباس عنها، فإذا أخبره قال: مالى ولبنى فلان؟ حتى مر به رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحَدَق من الحديد، قال: سبحان الله ! يا عباس، من هؤلاء؟ قال: هذا رسول الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة. ثم قال: والله يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلْكُ ابن أخيك اليوم عظيمًا. قال العباس: يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال: فنعم إذن.

وكانت راية الأنصار مع سعد بن عبادة، فلما مر بأبى سفيان قال له: اليوم يوم الملحمة، اليوم تُسْتَحَلُّ الحُرْمَة، اليوم أذل الله قريشًا. فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان قال: يا رسول الله، ألم تسمع ما قال سعد؟ قال: «**وما قال؟**» فقال: قال كذا وكذا. فقال عثمان وعبد الرحمن ابن عوف: يا رسول الله، ما نأمن أن يكون له فى قريش صولة، فقال رسول الله ﷺ: «**بل اليوم يوم تُعَظَّم فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشًا**» ثم أرسل إلى سعد فنزع منه اللواء، ودفعه إلى ابنه قيس، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد. وقيل: بل دفعه إلى الزبير.

قريش تباغت زحف الجيش الإسلامى:

ولما مر رسول الله ﷺ بأبى سفيان ومضى قال له العباس: النجاء إلى قومك. فأسرع أبو سفيان حتى دخل مكة، وصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به. فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن. فقامت إليه زوجته هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحَمِيت[1] الدسم الأحمش الساقين، قُبِّحَ من طَلِيعَة قوم.

قال أبو سفيان: ويلكم، لاتغرنكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن. قالوا: قاتلك الله، وما تغنى عنا دارك؟ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، ووبشوا أوباشًا لهم، وقالوا: نقدم هؤلاء، فإن كان لقريش شىء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطينا الذى سئلنا. فتجمع سفهاء قريش وأخِفَّاؤها مع عكرمة بن أبى جهل، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو بالخَنْدَمَة ليقاتلوا المسلمين. وكان فيهم رجل من بنى بكر - حِمَاس

(١) وعاء السمن.

ابن قيس - كان يعد قبل ذلك سلاحًا، فقالت له امرأته: لماذا تعد ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه. قالت: والله ما يقوم لمحمد وأصحابه شيء. قال: إنى والله لأرجو أن أخدمك بعضهم، ثم قال:

إن يقبلوا اليوم فمالى عِلَّه هذا سلاح كامل وألَّه[1]
وذو غِرَارَيْن[2] سريع السَّلَّة

فكان هذا الرجل فيمن اجتمعوا فى الخندمة.

الجيش الإسلامى بذى طُوَى:

أما رسول الله ﷺ فمضى حتى انتهى إلى ذى طوى - وكان يضع رأسه تواضعًا لله حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى أن شعر لحيته ليكاد يمس واسطة الرحل - وهناك وزع جيشه، وكان خالد بن الوليد على المُجَنِّبَةِ اليمنى - وفيها أَسْلَمُ وسُلَيْم وغِفَار ومُزَيْنَة وجُهَيْنَة وقبائل من قبائل العرب - فأمره أن يدخل مكة من أسفلها، وقال: «**إن عرض لكم أحد من قريش فاحصدوهم حصدًا، حتى توافونى على الصفا**».

وكان الزبير بن العوام على المُجَنِّبَةِ اليسرى، وكان معه راية رسول الله ﷺ، فأمره أن يدخل مكة من أعلاها - من كَدَاء - وأن يغرز رايته بالحَجُون، ولا يبرح حتى يأتيه.

وكان أبو عبيدة على الرجالة والحُسَّر - وهم الذيم لاسلاح معهم - فأمره أن يأخذ بطن الوادى حتى ينصب لمكة بين يدى رسول الله ﷺ.

الجيش الإسلامى يدخل مكة:

وتحركت كل كتيبة من الجيش الإسلامى على الطريق التى كلفت الدخول منها.

فأما خالد وأصحابه فلم يلقهم أحد من المشركين إلا أناموه. وقتل من أصحابه من المسلمين كُرْز بن جابر الفِهْرِى وخُنَيْس بن خالد بن ربيعة. كانا قد شذا عن الجيش، فسلكا طريقًا غير طريقه فقتلا جميعًا، وأما سفهاء قريش فلقيهم خالد وأصحابه بالخَنْدَمَة فناوشوهم شيئا من قتال، فأصابوا من المشركين اثنى عشر رجلًا، فانهزم المشركون، وانهزم حِمَاس بن قيس - الذى كان يعد السلاح لقتال المسلمين - حتى دخل بيته، فقال لامرأته: أغلقى على بابى.

---

(١) الألة: الحربة.
(٢) سيف ذو حدين.

فقالت: وأين ما كنت تقول؟ فقال:

إنك لو شَهدتِ يوم الخَنْدَمَه إذ فَرَّ صفوان وفر عِكْرِمه
واستقبلتنا بالسيوف المُسْلِمَه يقطعن كل ساع وجُمْجُمَه
ضربًا فلا يُسْمَعْ إلا غَمْغَمَه[1] لهم نَهِيتٌ خلفنا هَمْهَمَه
لم تَنْطِقى فى اللَّوم أدنى كَلِمَه

وأقبل خالد يجوس مكة حتى وافى رسول الله ﷺ على الصفا.

وأما الزبير فتقدم حتى نصب راية رسول الله ﷺ بالحَجُون عند مسجد الفتح، وضرب له هناك قبة، فلم يبرح حتى جاءه رسول الله ﷺ.

الرسول ﷺ يدخل المسجد الحرام ويطهره من الأصنام:

ثم نهض رسول الله ﷺ، والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله، حتى دخل المسجد، فأقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه، ثم طاف بالبيت، وفى يده قوس، وحول البيت ثلاثمائة وستون صنما، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول:] q p o m l k j [Z s r [الإسراء]،] ! " # $ % & ' ( ) Z [سبأ] والأصنام تتساقط على وجوهها.

وكان طوافه على راحلته، ولم يكن محرمًا يومئذ، فاقتصر على الطواف، فلما أكمله دعا عثمان ابن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففتحت فدخلها، فرأى فيها الصور، ورأى فيها صورة إبراهيم، وإسماعيل - عليهما السلام - يستقسمان بالأزلام، فقال: «**قاتلهم الله، والله ما استقسما بها قط**». ورأى فى الكعبة حمامة من عيدان، فكسرها بيده، وأمر بالصور فمحيت.

الرسول ﷺ يصلى فى الكعبة ثم يخطب أمام قريش:

ثم أغلق عليه الباب، وعلى أسامة وبلال، فاستقبل الجدار الذى يقابل الباب حتى إذا كان بينه وبينه ثلاثة أذرع وقف، وجعل عمودين عن يساره، وعمودًا عن يمينه، وثلاثة أعمدة وراءه - وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة - ثم صلى هناك. ثم دار فى البيت، وكبر فى نواحيه، ووحد الله، ثم فتح الباب، وقريش قد ملأت المسجد صفوفًا ينتظرون ماذا

(١) الغمغمة: أصوات الأبطال. والنهيت: صياح الأسد. والهمهمة: صوت فى الصدر.

يصنع؟ فأخذ بعضادتى الباب وهم تحته، فقال:

«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثُرَة أو مال أو دم فهو تحت قدمى هاتين، إلا سِدَانَة البيت وسِقاية الحاج، ألاوقتيل الخطأ شبه العمد - السوط والعصا - ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل أربعون منها فى بطونها أولادها».

«يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب» ثم تلا هذه الآية:] E F G H I J K L M N [ ] Z Y X W U T S R Q O [الحجرات].

لا تثريب عليكم اليوم:

ثم قال: **«يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل بكم؟»** قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: **«فإنى أقول لكم كما قال يوسف لإخوته:**] لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ Z **اذهبوا فأنتم الطلقاء».**

مفتاح البيت إلى أهله:

ثم جلس رسول الله ﷺ فى المسجد فقام إليه على رضي الله عنه ومفتاح الكعبة فى يده فقال: اجمع لنا الحجابة مع السقاية، صلى الله عليك - وفى رواية: أن الذى قال ذلك هو العباس - فقال رسول الله ﷺ: **«أين عثمان بن طلحة؟»**. فدعى له، فقال له: **«هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء»**، وفى رواية ابن سعد فى الطبقات: أنه قال له حين دفع المفتاح إليه: **«خذوها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا مما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف».**

بلال يؤذن على الكعبة:

وحانت الصلاة، فأمر رسول الله ﷺ بلالا أن يصعد فيؤذن على الكعبة، وأبو سفيان بن حرب، وعتاب بن أسيد، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيدا ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه. فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه حق لاتبعته. فقال أبو سفيان: أما والله لا أقول شيئًا، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصباء. فخرج عليهم النبى ﷺ فقال لهم: **«لقد علمت الذى قلتم»** ثم ذكر ذلك لهم.

فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك.

صلاة الفتح أو صلاة الشكر:

ودخل رسول الله ﷺ يومئذ دار أم هانئ بنت أبى طالب، فاغتسل وصلى ثمانى ركعات فى بيتها - وكان ضحى - فظنها من ظنها صلاة الضحى، وإنما هذه صلاة الفتح، وأجارت أم هانئ حموين لها، فقال رسول الله ﷺ: «**قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ**»، وقد كان أخوها على بن أبى طالب أراد أن يقتلهما، فأغلقت عليهما باب بيتها، وسألت النبى ﷺ، فقال لها ذلك.

إهدار دم رجال من أكابر المجرمين:

وأهدر رسول الله ﷺ يومئذ دماء تسعة نفر من أكابر المجرمين، وأمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، وهم عبد العزى بن خطل، وعبدالله بن سعد بن أبى سرح، وعكرمة بن أبى جهل، والحارث بن نفيل بن وهب، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود، وقينتان كانتا لابن الأخطل، كانتا تغنيان بهجو النبى ﷺ، وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب، وهى التى وجد معها كتاب حاطب.

فأما ابن أبى سرح فجاء به عثمان إلى النبى ﷺ، وشفع فيه، فحقن دمه، وقبل إسلامه بعد أن أمسك عنه رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله، وكان قد أسلم قبل ذلك وهاجر، ثم ارتد ورجع إلى مكة.

وأما عكرمة بن أبى جهل، ففر إلى اليمن، فاستأمنت له امرأته، فأمنه النبى ﷺ فتبعته، فرجع معها وأسلم وحسن إسلامه.

وأما ابن خطل فكان متعلقًا بأستار الكعبة، فجاء رجل إلى النبى ﷺ وأخبره، فقال: «**اقتله**» فقتله.

وأما مقيس بن صبابة فقتله نميلة بن عبدالله، وكان مقيس قد أسلم قبل ذلك، ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله، ثم ارتد ولحق بالمشركين.

وأما الحارث فكان شديد الأذى لرسول الله بمكة، فقتله عَلِىّ.

وأما هبار بن الأسود فهو الذى كان قد عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها، ففر هبار يوم مكة ثم أسلم وحسن إسلامه.

وأما القينتان فقتلت إحداهما، واستؤمن للأخرى فأسلمت، كما استؤمن لسارة وأسلمت.

قال ابن حجر: وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه: الحارث بن طُلَاطِل الخزاعى، قتله على. وذكر الحاكم أيضًا ممن أهدر دمه: كعب بن زهير، وقصته مشهورة، وقد جاء بعد ذلك وأسلم ومدح، ووَحْشِيّ بن حرب، وهند بنت عتبة امرأه أبى سفيان، وقد أسلمت، وأرنب مولاه ابن خطل أيضًا قتلت، وأم سعد قتلت، فيما ذكر ابن إسحاق، فكملت العدة ثمانية رجال وست نسوة، ويحتمل أن تكون أرنب وأم سعد القينتان، اختلف فى اسمهما أو باعتبار الكنية واللقب[1].

إسلام صفوان بن أمية، وفضالة بن عمير:

لم يكن صفوان ممن أهدر دمه، لكنه بصفته زعيمًا كبيرًا من زعماء قريش خاف على نفسه وفر، فاستأمن له عمير بن وهب الجمحى رسول الله ﷺ فأمنه، وأعطاه عمامته التى دخل بها مكة، فلحقة عمير وهو يريد أن يركب البحر من جدة إلى اليمن فرده، فقال لرسول الله ﷺ: اجعلنى بالخيار شهرين. قال «**أنت بالخيار أربعة أشهر**» ثم أسلم صفوان، وقد كانت امرأته أسلمت قبله، فأقرهما على النكاح الأول.

وكان فضالة رجلًا جريئا جاء إلى رسول الله ﷺ، وهو فى الطواف؛ ليقتله، فأخبر الرسول ﷺ بما فى نفسه فأسلم.

خطبة الرسول ﷺ في اليوم الثانى من الفتح:

ولما كان الغد من يوم الفتح قام رسول الله ﷺ فى الناس خطيبًا، فحمد الله، وأثنى عليه، ومجده بما هو أهله، ثم قال: «**أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهى حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، أو يعضد بها شجرة، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما حلت لى ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب**».

وفى رواية: «**لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط ساقطته إلا من عرفها، ولا يختلى خلاه**»، فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر، فإنه لقينهم وبيوتهم، فقال: «**إلا الإذخر**».

وكانت خزاعة قتلت يومئذ رجلا من بنى ليث بقتيل لهم فى الجاهلية، فقال

(١) فتح البارى ٨/ ١١، ١٢.

رسول الله ﷺ بهذا الصدد: «**يا معشر خزاعة، ارفعو أيديكم عن القتل، فلقد كثر القتل إن نَفَع، ولقد قتلتم قتيلًا لأدِيَنَّهُ، فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النَّظَرَيْن، إن شاءوا فدم قاتله، وإن شاءوا فَعَقْلُه**».

وفى رواية: فقام رجل من أهل اليمن يقال له: شاه فقال: اكتب لى يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «**اكتبو لأبى شاه**»[(١)].

تخوف الأنصار من بقاء الرسول ﷺ فى مكة:

ولما تم فتح مكة على الرسول ﷺ - وهى بلده ووطنه ومولده - قال الأنصار فيما بينهم: أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده أن يقيم بها - وهو يدعو على الصفا رافعًا يديه - فلما فرغ من دعائه قال: «**ماذا قلتم؟**» قالوا: لا شىء يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه، فقال رسول الله ﷺ: «**معاذ الله، المحيا محياكم، والممات مماتكم**».

أخذ البيعة:

وحين فتح الله مكة على رسول الله ﷺ والمسلمين، تبين لأهل مكة الحق، وعلموا أن لا سبيل إلى النجاح إلا الإسلام، فأذعنوا له، واجتمعوا للبيعة، فجلس رسول الله ﷺ على الصفا يبايع الناس، وعمر بن الخطاب أسفل منه، يأخذ على الناس فبايعوه على السمع والطاعة فيما استطاعوا.

وفى المدارك: روى أن النبى ﷺ لما فرغ من بيعة الرجال أخذ فى بيعة النساء، وهو على الصفا، وعمر قاعد أسفل منه، يبايعهن بأمره، ويبلغهن عنه، فجاءت هند بنت عتبة امرأة أبى سفيان متنكرة، خوفًا من رسول الله ﷺ أن يعرفها؛ لما صنعت بحمزة، فقال رسول الله ﷺ «**أبايعكن على ألا تشركن بالله شيئا**»، فبايع عمر النساء على ألا يشركن بالله شيئا، فقال رسول الله ﷺ: «**ولا تسرقن**» فقالت هند: إن أبا سفيان رجل شحيح، فإن أنا أصبت من ماله هنات؟ فقال أبو سفيان: وما أصبت فهو لك حلال، فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال: «**وإنك لهند؟**» قالت: نعم، فاعف عما سلف يا نبى الله، عفا الله عنك.

فقال: «**ولا يزنين**». فقالت: أو تزنى الحرة؟

فقال: «**ولا يقتلن أولادهن**». فقالت: ربيناهم صغارا، وقتلناهم كبارا، فأنتم وهم

(١) انظر لهذه الروايات: صحيح البخارى ١/ ٢٢، ٢١٦، ٢٤٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٢/ ٦١٥، ٦١٧، وصحيح مسلم ١/ ٤٣٧- ٤٣٩، وابن هشام ٢/ ٤١٥، ٤١٦، وأبو داود ١/ ٢٧٦.

أعلم - وكان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قد قتل يوم بدر - فضحك عمر حتى استلقى فتبسم رسول الله ﷺ.

قال: «**ولا يأتين ببهتان**» فقالت: والله إن البهتان لأمر قبيح وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق.

فقال: «**ولا يعصينك فى معروف**» فقالت: والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك.

ولما رجعت جعلت تكسر صنمها وتقول: كنا منك فى غرور[(١)].

وفى الصحيح: جاءت هند بنت عتبة فقالت: يا رسول الله، ما كان على ظهر الأرض من أهل خباء أحب إلى أن يذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلى أن يغزوا من أهل خبائك. قال: «**وأيضا، والذى نفسى بيده**» قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل مسيك فهل على حرج أن أطعم من الذى له عيالنا؟ قال: «**لا أراه إلا بالمعروف**»[(٢)].

إقامته ﷺ بمكة وعمله فيها:

وأقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا يجدد معالم الإسلام، ويرشد الناس إلى الهدى والتقى، وخلال هذه الأيام أمر أبا أسيد الخزاعى، فجدد أنصاب الحرم، وبث سراياه للدعوة إلى الإسلام، ولكسر الأوثان التى كانت حول مكة، فكسرت كلها، ونادى مناديه بمكة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنما إلا كسره.

السرايا والبعوث:

١- ولما اطمأن رسول الله ﷺ بعد الفتح بعث خالد بن الوليد إلى العُزَّى لخمس ليال بقين من شهر رمضان (سنة ٨ هـ) ليهدمها وكانت بنَخْلَة، وكانت لقريش وجميع بنى كنانة وهى أعظم أصنامهم. وكان سدنتها بنى شَيْبَان، فخرج إليها خالد فى ثلاثين فارسًا حتى انتهى إليها، فهدمها. ولما رجع إليها سأله رسول الله ﷺ «**هل رأيت شيئا؟**» قال: لا، قال: «**فإنك لم تهدمها فارجع إليها فاهدمها**» فرجع خالد متغيظًا قد جرد سيفه فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس، فجعل السادن يصيح بها، فضربها خالد فجزلها

(١) مدارك التنزيل للنسفى: تفسير آية البيعة.

(٢) صحيح البخارى، ح (٣٨٢٥، ٧١٦١)، وفتح البارى ٧/ ١٧٥، ١٣/ ١٤٨.

باثنتين، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «**نعم، تلك العزى، وقد أيست أن تعبد فى بلادكم أبدا**».

٢- ثم بعث عمرو بن العاص فى نفس الشهر إلى سُوَاع ليهدمه وهو صنم لهُذَيْل برهاط، على قرابة ١٥٠ كيلوا مترا شمال شرقى مكة، فلما انتهى إليه عمرو قال له السادن: ما تريد؟ قال: أمرنى رسول الله ﷺ أن أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك قال: لم؟ قال: تُمْنَعُ قال: حتى الآن أنت على الباطل؟ ويحك فهل يسمع أو يبصر؟ ثم دنا فكسره، وأمر أصحابه فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا فيه شيئا، ثم قال للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله.

٣- وفى الشهر نفسه بعث سعد بن زيد بن الأشهلى فى عشرين فارسًا إلى مَنَاة وكانت بالمُشَلَّل عند قُدَيْد للأوس والخزرج وغَسَّان وغيرهم، فلما انتهى سعد إليها قال له سادنها: ما تريد؟ قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل إليها سعد، وخرجت امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس، تدعو بالويل، وتضرب صدرها، فقال لها السادن: مناة دونك بعض عصاتك. فضربها سعد فقتلها، وأقبل إلى الصنم فهدمه وكسره، ولم يجدوا فى خزانته شيئًا.

٤- ولما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى بعثه رسول الله ﷺ فى شوال من نفس السنة (٨هـ) إلى بنى جَذِيمَة داعيا إلى الإسلام لا مقاتلا، فخرج فى ثلاثمائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار وبنى سليم، فانتهى إليهم فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا. فجعل خالد يقتلهم ويأسرهم ودفع إلى كل رجل ممن كان معه أسيرًا، فأمر يومًا أن يقتل كل رجل أسيره، فأبى ابن عمر وأصحابه حتى قدموا على النبى ﷺ، فذكروا له، فرفع ﷺ يديه وقال: «**اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالدًا**» مرتين[(١)].

وكانت بنو سليم هم الذين قتلوا أسراهم دون المهاجرين والأنصار، وبعث رسول الله ﷺ عليًّا فودى لهم قتلاهم وما ذهب منهم، وكان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف كلام وشر فى ذلك، فبلغ النبى ﷺ فقال: «**مهلا يا خالد، دع عنك أصحابى، فوالله لو كان أُحُدٌ ذهبا، ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غَدْوَةَ رجل من أصحابى ولا رَوْحَتَه**»[(٢)].

(١) صحيح البخارى ١/ ٤٥٠، ٢٠/ ٦٢٢.

(٢) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة عن ابن هشام ٢/ ٣٨٩- ٤٣٧، وصحيح البخارى: كتاب فضائل أصحاب النبى، ح (٣٦٧٣)، وفتح البارى ٨/ ٣- ٢٧، وصحيح مسلم ١/ ٤٣٧- ٤٣٩، ٢/ ١٠٢، ١٠٣، ١٣٠، وزاد المعاد ٢/ ١٦٠- ١٦٨.

تلك هى غزوة فتح مكة، وهى المعركة الفاصلة والفتح الأعظم الذى قضى على كيان الوثنية قضاء باتًا، ولم يترك لبقائها مجالا ولا مبررا فى ربوع الجزيرة العربية، فقد كانت عامة القبائل تنتظر ماذا يتمخض عنه العراك والاصطدام الذى كان دائرًا بين المسلمين والوثنيين، وكانت تلك القبائل تعرف جيدا أن الحرم لا يسيطر عليه إلا من كان على الحق وكان قد تأكد لديهم هذا الاعتقاد الجازم، أى تأكد قبل نصف القرن حين قصد أصحاب الفيل هذا البيت فأهلكوا وجعلوا كعصف مأكول.

وكان صلح الحديبية مقدمة وتوطئة بين يدى هذا الفتح العظيم، أمن الناس به وكلم بعضهم بعضًا، وناظره فى الإسلام، وتمكن من اختفى من المسلمين بمكة من إظهار دينه والدعوة إليه والمناظرة عليه، ودخل بسببه كثير فى الإسلام، حتى إن عدد الجيش الإسلامى الذى لم يزد فى الغزوات السالفة على ثلاث آلاف، إذا هو يزخر فى هذه الغزوة فى عشرة آلاف.

وهذه الغزوة الفاصلة فتحت أعين الناس وأزالت عنها آخر الستور التى كانت تحول بينها وبين الإسلام وبهذا الفتح سيطر المسلمون على الموقف السياسى والدينى كليهما معا فى طول جزيرة العرب وعرضها، فقد انتقلت إليهم الصدارة الدينية والزعامة الدنيوية.

فالطور الذى كان قد بدأ بعد صلح الحديبية لصالح المسلمين قد تم وكمل بهذا الفتح المبين، وبدأ بعد ذلك طور آخر كان لصالح المسلمين تمامًا، وكان لهم فيه السيطرة على الموقف تمامًا. ولم يبق لأقوام العرب إلا أن يفدوا إلى رسول الله ﷺ فيعتنقوا الإسلام ويحملوا دعوته إلى العالم، وقد تم استعدادهم لذلك فى سنتين آتيتين.

المرحلة الثالثة

وهى آخر مرحلة من مراحل حياة الرسول ﷺ. تمثل النتائج التى أثمرتها دعوته الإسلامية بعد جهاد طويل وعناء ومتاعب وقلاقل، وفتن واضطرابات، ومعارك وحروب دامية، واجهتها طيلة بضعة وعشرين عامًا.

وكان فتح مكة هو أعظم فتح حصل عليه المسلمون فى هذه الأعوام، تغير لأجله مجرى الأيام، وتحول به جو العرب، فقد كان الفتح حدًّا فاصلا بين السابقة عليه وبين ما بعده، فإن قريشًا كانت فى نظر العرب حماة الدين وأنصاره، والعرب فى ذلك تبع لهم، فخضوع قريش يعتبر القضاء الأخير على الدين الوثنى فى جزيرة العرب.

ويمكن أن نقسم هذه المرحلة إلى صفحتين:

١- صفحة المجاهدة والقتال.

٢- صفحة تسابق الشعوب والقبائل إلى اعتناق الإسلام.

وهاتان الصفحتان متلاصقتان تناوبتا فى هذه المرحلة، ووقعت كل واحدة منهما خلال الأخرى، إلا أنا اخترنا فى الترتيب الوضعى أن نأتى على ذكر كل من الصفحتين متميزة عن الأخرى، ونظرًا إلى صفحة القتال ألصق بما مضى، وأكثر مناسبة من الأخرى قدمناها فى الترتيب.

غزوة حنين

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة شَدَهَ لها العرب، وبوغتت القبائل المجاورة بالأمر الواقع، الذى لم يكن يمكن لها أن تدفعه، ولذلك لم تمتنع عن الاستسلام إلا بعض القبائل الشرسة القوية المتغطرسة، وفى مقدمتها بطون هوازن وثقيف، واجتمعت إليها نَصْرٌ وجُشَمٌ وسعد بن بكر وناس من بنى هلال - وكلها من قيس عَيْلان - رأت هذه البطون من نفسها عزا وأَنَفَةً أن تقابل هذا الانتصار بالخضوع، فاجتمعت إلى مالك بن عوف النَّصْرى، وقررت المسير إلى حرب المسلمين.

مسير العدو ونزوله بأوطاس:

ولما أجمع القائد العام - مالك بن عوف - المسير إلى حرب المسلمين، ساق مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم، فسار حتى نزل بأَوْطَاس - وهو واد فى دار هَوَازِن بالقرب من حُنَيْن، لكن وادى أوطاس غير وادى حنين، وحنين واد إلى جنب ذى المَجَاز، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلًا من جهة عرفات[١].

مُجَرِّب الحروب يُغَلِّط رأى القائد:

ولما نزل بأوطاس اجتمع إليه الناس، وفيهم دُرَيْدُ بن الصِّمَّةِ - وهو شيخ كبير، ليس فيه إلا رأيه ومعرفته بالحرب وكان شجاعًا مجربًا - قال دريد: بأى واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نعم مَجَالُ الخيل، لا حَزْنٌ[٢] ضَرسٌ[٣]، ولا سَهْلٌ دَهِس[٤]، مالى أسمع رُغَاء البعير، ونُهَاق الحمير، وبُكَاء الصبى، وثُغَاء الشاء؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم، فدعا مالكًا وسأله عما حمله على ذلك، فقال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال: راعى ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحْتَ فى أهلك ومالك، ثم سأل عن بعض البطون والرؤساء، ثم قال: يا مالك، إنك لم تصنع بتقديم بَيْضَة هوازن إلى نحور الخيل شيئًا، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم، ثم الْقَ الصُّبَاة على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزتَ

(١) انظر: فتح البارى ٨/ ٢٧، ٤٢.
(٢) الحزن: ما ارتفع من الأرض.
(٣) الضرس: أرض بها حجارة محددة.
(٤) الدهس: ما لان من الأرض.

أهلك ومالك.

ولكن مالكًا – القائد العام – رفض هذا الطلب قائلًا: والله لا أفعل، إنك قد كبرت وكبر عقلك، والله لتطيعنى هوازن أو لأتَّكِئَنَّ على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر أو رأى، فقالوا: أطعناك. فقال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يَفُتْنِى:

يـــا لـيـتـنـى فـيـهـا جَـــذَعْ أخُـــبُّ فـيـهـا وأضَـــعْ[1]
أقـــود وطْـــفَـــاءَ الـــزَّمَـــعْ[2] كـأنـهـا شـــاة صَـــدَعْ[3]

سلاح استكشاف العدو:

وجاءت إلى مالك عيون كان قد بعثهم للاستكشاف عن المسلمين، جاءت هذه العيون وقد تفرقت أوصالهم، قال: ويلكم، ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالًا بيضا على خيل بُلْق، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى.

سلاح استكشاف رسول الله ﷺ:

ونقلت الأخبار إلى رسول الله ﷺ بمسير العدو، فبعث أبا حَدْرَد الأسلمى، وأمره أن يدخل فى الناس، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم، ففعل.

الرسول ﷺ يغادر مكة إلى حنين:

وفى يوم السبت – السادس من شهر شوال سنة ٨ هـ – غادر رسول الله ﷺ مكة– وكان ذلك اليوم التاسع عشر من يوم دخوله فى مكة – خرج فى اثنى عشر ألفًا من المسلمين ؛ عشرة آلاف ممن كانوا خرجوا معه لفتح مكة، وألفان من أهل مكة. وأكثرهم حديثو عهد بالإسلام، واستعار من صفوان بن أمية مائة درع بأداتها، واستعمل على مكة عَتَّاب ابن أسيد.

ولما كان عشية جاء فارس، فقال: إنى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن على بكرة آبائهم بِظُعُنِهم ونَعَمِهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله»، وتطوع للحراسة تلك الليلة أنس بن أبى مَرْثَد

(١) أخب وأضع: ضربان من السَّيْر.
(٢) وطفاء الزمع: خيل طويلة الشعر.
(٣) صدع: شىء بين شيئين من أى نوع كان.

الغَنَوى[١].

وفى طريقهم إلى حنين رأوا سِدْرَة عظيمة خضراء يقال لها: ذات أنْوَاط، كانت العرب تعلق عليها أسلحتهم، ويذبحون عندها ويعكفون، فقال بعض أهل الجيش لرسول الله ﷺ: اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط. فقال: «**الله أكبر، قلتم والذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، قال: إنكم قوم تجهلون، إنها السَّنَنُ، لتركبن سَنَنَ من كان قبلكم**»[٢].

وقد كان بعضهم قال نظرًا إلى كثرة الجيش: لن نُغْلَبَ اليوم، وكان قد شق ذلك على رسول الله ﷺ.

الجيش الإسلامى يُباغَت بالرماة والمهاجمين:

انتهى الجيش الإسلامى إلى حنين، الليلة التى بين الثلاثاء والأربعاء لعشر خلون من شوال، وكان مالك بن عوف قد سبقهم، فأدخل جيشه بالليل فى ذلك الوادى، وفرق كُمَنَاءه فى الطرق والمداخل والشعاب والأخباء والمضايق، وأصدر إليهم أمره بأن يرشقوا المسلمين أول ما طلعوا، ثم يشدوا شدة رجل واحد.

وبالسَّحَر عبأ رسول الله ﷺ جيشه، وعقد الألوية والرايات، وفرقها على الناس، وفى غَمَاية الصبح استقبل المسلمون وادى حنين، وشرعوا ينحدرون فيه، وهم لا يدرون بوجود كمناء العدو فى مضايق هذا الوادى، فبينا هم ينحطون إذا تمطر عليهم النبال، وإذا كتائب العدو قد شدت عليهم شدة رجل واحد، فانشمر المسلمون راجعين، لا يلوى أحد على أحد، وكانت هزيمة منكرة، حتى قال أبو سفيان بن حرب، وهو حديث عهد بالإسلام: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر - الأحمر - وصرخ جَبَلَةُ أو كَلَدَةُ بن الحَنْبَل: ألا بطل السِّحْر اليوم.

وانحاز رسول الله ﷺ جهة اليمين وهو يقول: «**هَلُمُّوا إلى أيها الناس، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله**»، ولم يبق معه فى موقفه إلا عدد قليل من المهاجرين والأنصار. تسعة على قول ابن إسحاق، واثنا عشر على قول النووى، والصحيح ما رواه أحمد والحاكم فى المستدرك من حديث ابن مسعود، قال: كنت مع النبى ﷺ يوم حنين، فولى عنه الناس

(١) انظر: سنن أبى داود: الجهاد، فضل الحرس فى سبيل الله ٢/ ١٠.

(٢) روى ذلك الترمذى: الفتن، باب لتركبن من كان قبلكم ٤/ ٤١٢، وأحمد فى مسنده ٥/ ٢١٨.

وثبت معه ثمانون رجلًا من المهاجرين والأنصار، فكنا على أقدامنا ولم نُوَلِّهم الدُّبُر، وروى الترمذى من حديث ابن عمر بإسناد حسن قال: لقد رأيتنا يوم حنين وإن الناس لمولين، وما مع رسول الله ﷺ مائة رجل[(١)].

وحينئذ ظهرت شجاعة النبى ﷺ التى لا نظير لها، فقد طفق يركض بغلته قبل الكفار وهو يقول:

«أنا النبى لا كَذِبْ أنا ابن عبد المطلب»

بيد أن أبا سفيان بن الحارث كان آخذا بلجام بغلته، والعباس بركابه، يكفانها ألا تسرع، ثم نزل رسول الله ﷺ فاستنصر ربه قائلًا: «اللهم أنزل نصرك».

رجوع المسلمين واحتدام المعركة:

وأمر رسول الله ﷺ عمه العباس - وكان جَهِيرَ الصوت - أن ينادى الصحابة، قال العباس: فقلت بأعلى صوتى: أين أصحاب السَّمُرَة؟ قال: فوالله لكأن عَطْفَتَهُم حين سمعوا صوتى عَطْفَة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك، يا لبيك[(٢)]. ويذهب الرجل ليثنى بعيره فلا يقدر عليه، فيأخذ درعه، فيقذفها فى عنقه، ويأخذ سيفه وترسه، ويقتحم عن بعيره، ويخلى سبيله، فيؤم الصوت، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس واقتتلوا.

وصرفت الدعوة إلى الأنصار: يا معشر الأنصار، يا معشر الأنصار، ثم قصرت الدعوة فى بنى الحارث بن الخزرج، وتلاحقت كتائب المسلمين واحدة تلو الأخرى كما كانوا تركوا الموقعة، وتجالد الفريقان مجالدة شديدة، ونظر رسول الله ﷺ إلى ساحة القتال، وقد استحر واحتدم، فقال: «الآن حَمِى الوَطِيسُ». ثم أخذ رسول الله ﷺ قبضة من تراب الأرض، فرمى بها فى وجوه القوم وقال: «شاهت الوجوه»، فما خلق الله إنسانًا إلا ملأ عينيه ترابًا من تلك القبضة، فلم يزل حَدُّهُم كَلِيلًا وأمرهم مُدْبِرًا.

انكسار حدة العدو وهزيمته الساحقة:

وما هى إلا ساعات قلائل - بعد رمى القبضة - حتى انهزم العدو هزيمة منكرة، وقتل من ثَقِيف وحدهم نحو السبعين، وحاز المسلمون ما كان مع العدو من مال وسلاح وظُعُن.

---

(١) أحمد فى مسنده ١/ ٤٥٣، ٤٥٤، والحاكم ٢/ ١١٧، والترمذى: الجهاد، باب ما جاء فى الثبات عند القتال ٤/ ١٧، ح (١٦٨٩)، وانظر أيضا: فتح البارى ٨/ ٢٩، ٣٠، ومسند أبى يعلى ٣/ ٣٨٨، ٣٨٩.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ١٠٠.

وهذا هو التطور الذى أشار إليه سبحانه وتعالى فى قوله:] وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ Z [التوبة].

حركة المطاردة:

ولما انهزم العدو صارت طائفة منهم إلى الطائف، وطائفة إلى نَخْلَة، وطائفة إلى أوْطاس، فأرسل النبى ﷺ إلى أوطاس طائفة من المطاردين يقودهم أبو عامرالأشعرى، فَتَنَاوَشَ الفريقان القتال قليلًا، ثم انهزم جيش المشركين، وفى هذه المناوشة قتل القائد أبو عامر الأشعرى.

وطاردت طائفة أخرى من فرسان المسلمين فلول المشركين الذين سلكوا نخلة، فأدركت دُرَيْدَ بن الصِّمَّة فقتله ربيعة بن رُفَيْع.

وأما معظم فلول المشركين الذين لجأوا إلى الطائف، فتوجه إليهم رسول الله ﷺ بنفسه بعد أن جمع الغنائم.

الغنائم:

وكانت الغنائم: السبى ستة آلاف رأس، والإبل أربعة وعشرون ألفًا، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة، أمر رسول الله ﷺ بجمعها، ثم حبسها بالجِعْرَانَة، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفارى، ولم يقسمها حتى فرغ من غزوة الطائف.

وكانت فى السبى الشيماء بنت الحارث السعدية ؛ أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة، فلما جىء بها إلى رسول الله ﷺ عرفت له نفسها، فعرفها بعلامة فأكرمها، وبسط لها رداءه، وأجلسها عليه، ثم منّ عليها، وردّها إلى قومها.

غزوة الطائف:

وهذه الغزوة فى الحقيقة امتداد لغزوة حنين، وذلك أن معظم فلول هَوَازن وثَقِيف دخلوا الطائف مع القائد العام - مالك بن عوف النَّصْرِى - وتحصنوا بها، فسار إليهم رسول الله ﷺ بعد فراغه من حنين وجمع الغنائم بالجعرانة، فى الشهر نفسه - شوال سنة ٨ هـ.

وقدم خالد بن الوليد على مقدمته طليعة فى ألف رجل، ثم سلك رسول الله ﷺ إلى الطائف، فمر فى طريقه على نخلة اليمانية، ثم على قَرْنِ المنازل، ثم على لِيَّةَ، وكان هناك حصن لمالك بن عوف فأمر بهدمه، ثم واصل سيره حتى انتهى إلى الطائف فنزل قريبًا من حصنه، وعسكر هناك، وفرض الحصار على أهل الحصن.

ودام الحصار مدة غير قليلة، ففى رواية أنس عند مسلم: أن مدة حصارهم كانت أربعين يومًا، وعند أهل السير خلاف فى ذلك، فقيل: عشرين يومًا، وقيل: بضعة عشر، وقيل: ثمانية عشر، وقيل: خمسة عشر[(١)].

ووقعت فى هذه المدة مراماة، ومقاذفات، فالمسلمون أول ما فرضوا الحصار رماهم أهل الحصن رميًا شديدًا، كأنه رِجْل جراد، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة، وقتل منهم اثنا عشر رجلًا، واضطروا إلى الارتفاع عن معسكرهم إلى مسجد الطائف اليوم، فعسكروا هناك.

ونصب النبى ﷺ المنجنيق على أهل الطائف، وقذف به القذائف، حتى وقعت شدخة فى جدار الحصن، فدخل نفر من المسلمين تحت دبابة[(٢)].

ودخلوا بها إلى الجدار ليحرقوه، فأرسل عليهم العدو سكك الحديد محماة بالنار. فخرجوا من تحتها، فرموهم بالنبل وقتلوا منهم رجالًا.

وأمر رسول الله ﷺ - كجزء من سياسة الحرب لإلجاء العدو إلى الاستسلام - أمر بقطع الأعناب وتحريقها، فقطعها المسلمون قطعًا ذريعًا، فسألته ثقيف أن يدعها لله والرحم، فتركها لله والرحم.

ونادى مناديه ﷺ: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فخرج إليهم ثلاثة وعشرون رجلًا[(٣)]، فيهم أبو بكرة - تسور حصن الطائف، وتدلى منه ببكرة مستديرة يستقى عليها، فكناه رسول الله ﷺ «أبا بكرة» - فأعتقهم رسول الله ﷺ، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الحصن مشقة شديدة.

ولما طال الحصار واستعصى الحصن، وأصيب المسلمون بما أصيب من رشق النبال

---

(١) فتح البارى ٨/ ٤٥.

(٢) لم تكن الدبابة كدبابتنا اليوم، وإنما كانت تصنع من الخشب، كان الناس يدخلون فى جوفها ثم يدفعونها فى أصل الحصن لينقبوه وهم فى جوفها، أو ليدخلوا من النقبات.

(٣) صحيح البخارى ٢/ ٦٢٠.

وبسكك الحديد المحماة - وكان أهل الحصن قد أعدوا فيه ما يكفيهم لحصار سنة - استشار رسول الله ﷺ نَوْفَل بن معاوية الدِّيلى فقال: هم ثعلب فى جحر، إن أقمت عليه أخذته وإن تركته لم يضرك، وحينئذ عزم رسول الله ﷺ على رفع الحصار والرحيل، فأمر عمر بن الخطاب فأذن فى الناس، إنا قافلون غدًا إن شاء الله، فثقل عليهم وقالوا: نذهب ولا نفتحه؟ فقال رسول الله ﷺ: **«اغدوا على القتال»**، فغدوا فأصابهم جراح، فقال: **«إنا قافلون غدًا إن شاء الله»**، فسروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول الله ﷺ يضحك.

ولما ارتحلوا واستقلوا قال: قولوا: **«آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون»**.

وقيل: يا رسول الله، ادع على ثقيف، فقال: **«اللهم اهد ثقيفا، وائت بهم»**.

قسمة الغنائم بالجِعْرَانَة:

ولما عاد رسول الله ﷺ بعد رفع الحصار عن الطائف، مكث بالجعرانة بضع عشرة ليلة لا يقسم الغنائم، ويتأنى بها، يبتغى أن يقدم عليه وفد هوازن تائبين فيحرزوا ما فقدوا، ولكنه لم يجئه أحد، فبدأ بقسمة المال، ليسكت المتطلعين من رؤساء القبائل وأشراف مكة، فكان المؤلفة قلوبهم أول من أعطى وحظى بالأنصبة الجزلة.

أعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل، فقال: ابنى يزيد؟ فأعطاه مثلها، فقال: ابنى معاوية؟ فأعطاه مثلها، وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أخرى، فأعطاه إياها. وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل، ثم مائة ثم مائة - كذا فى الشفاء[1] - وأعطى الحارث بن الحارث بن كَلَدَة مائة من الإبل، وكذلك أعطى رجالا من رؤساء قريش وغيرها مائة مائة من الإبل وأعطى آخرين خمسين خمسين وأربعين أربعين، حتى شاع فى الناس أن محمدًا يعطى عطاءً، ما يخاف الفقر، فازدحمت عليه الأعراب يطلبون المال حتى اضطروه إلى شجرة، فانتزعت رداءه فقال: **«أيها الناس، ردوا على ردائى، فو الذى نفسى بيده، لو كان عندى عدد شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتمونى بخيلًا ولا جبانًا ولا كذابًا»**.

ثم قام إلى جنب بعيره فأخذ من سنامه وبرة، فجعلها بين إصبعه، ثم رفعها، فقال: **«أيها الناس، والله مالى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس، والخمس مردود عليكم»**.

وبعد إعطاء المؤلفة قلوبهم أمر رسول الله ﷺ زيد بن ثابت بإحضار الغنائم والناس،

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض ١/ ٨٦.

ثم فرضها على الناس، فكانت سهامهم لكل رجل إما أربعًا من الإبل، وإما أربعين شاة، فإن كان فارسًا أخذ اثنى عشر بعيرًا أو عشرين ومائة شاة.

الأنصار تَجِدُ على رسول الله ﷺ:

كانت هذه القسمة مبنية على سياسة حكيمة، لكنها لم تُفْهَم أول الأمر، فأُطْلِقتْ ألسنة شتى بالاعتراض.

روى ابن إسحاق عن أبى سعيد الخدرى قال: لما أعطى رسول الله ﷺ ما أعطى من تلك العطايا فى قريش وفى قبائل العرب، ولم يكن فى الأنصار منها شيء، وَجَدَ هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم حتى كثرت فيهم القَالَةُ، حتى قال قائلهم: لقى والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، إن هذا الحى من الأنصار قد وَجَدُوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفيء الذى أصبت، قسمت فى قومك، وأعطيت عطايا عظامًا فى قبائل العرب، ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شيء. قال: «**فأين أنت من ذلك يا سعد؟**» قال: يا رسول الله، ما أنا إلا من قومى. قال: «**فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة**». فخرج سعد فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا. وجاء آخرون فردهم، فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال: لقد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «**يا معشر الأنصار، ما قَالَةٌ بلغتنى عنكم، وَجِدَةٌ وجدتموها على فى أنفسكم؟ ألم آتكم ضلالًا فهداكم الله؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟**» قالوا: بلى، الله ورسوله أَمَنُّ وأفْضَلُ.

ثم قال: «**ألا تجيبونى يا معشر الأنصار؟**» قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المن والفضل. قال: «**أما والله لو شئتم لقلتم، فصَدَقْتُمْ ولصُدِّقْتُمْ: أتيتنا مُكَذَّبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فآسَيْنَاك**».

«**أوَجَدْتُمْ يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لَعَاعَةٍ**[1] **من الدنيا تَألَّفْتُ بها قومًا ليُسْلِمُوا، ووَكَلْتُكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فوالذى نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْبًا، وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار**».

(١) بقلة.

فبكى القوم حتى أخْضَلُوا لِحَاهُم وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قَسْمًا وحظًّا، ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرقوا[1].

قدوم وفد هوازن:

وبعد توزيع الغنائم أقبل وفد هوازن مسلمًا، وهم أربعة عشر رجلًا ورأسهم زهير ابن صُرَد، وفيهم أبو بُرْقَان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة، فأسلموا وبايعوا ثم قالوا: يا رسول الله، إن فيمن أصبتم الأمهات والأخوات، والعمات والخالات، وهن مخازى الأقوام:

فامنن علينا رسول الله فى كرم ... فإنك المرء نرجوه وننتظر

امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك تملؤه من محضها الدرر

وذلك فى أبيات. فقال: **«إن معى من ترون، وإن أحب الحديث إلى أصدقه، فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟»** قالوا: ما كنا نعدل بالأحساب شيئًا. فقال: **«إذا صليت الغداة - أى صلاة الظهر - فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله ﷺ إلى المؤمنين، ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ أن يرد إلينا سبينا»**، فلما صلى الغداة قاموا فقالوا ذلك. فقال رسول الله ﷺ: **«أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وسأسأل لكم الناس»**، فقال المهاجرون والأنصار: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال الأقْرَع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا. وقال عُيَيْنَة بن حِصْن: أما أنا وبنو فَزَارَة فلا. وقال العباس بن مِرْدَاس: أما أنا وبنو سُلَيْم فلا. فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ. فقال العباس بن مرداس: وهنتمونى.

فقال رسول الله ﷺ: **«إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين، وقد كنت استأنيت سَبْيَهُمْ، وقد خيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئًا، فمن كان عنده منهن شىء فطابت نفسه بأن يرده فسبيل ذلك، ومن أحب أن يستمسك بحقه فليرد عليهم، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفىء الله علينا»**، فقال الناس: قد طيبنا لرسول الله ﷺ. فقال: **«إنا لا نعرف من رضى منكم ممن لم يرض، فارجعوا حتى يرفع إلينا عُرَفَاؤكم أمركم»**، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم، لم يتخلف منهم أحد غير عيينة بن حصن، فإنه أبى أن يرد عجوزًا صارت فى

(١) ابن هشام ٢/ ٤٩٩، ٥٠٠، وروى مثل ذلك البخارى ٢/ ٦٢٠، ٦٢١.

يديه منهم، ثم ردها بعد ذلك، وكسا رسول الله ﷺ السبى قبطية قبطية[١].

العمرة والانصراف إلى المدينة:

ولما فرغ رسول الله ﷺ من قسمة الغنائم فى الجِعْرَانة أهلَّ معتمرًا منها، فأدى العمرة، وانصرف بعد ذلك راجعًا إلى المدينة بعد أن ولى على مكة عَتَّاب بن أسيد، وكان رجوعه إلى المدينة ودخوله فيها لست ليال بقيت من ذى القعدة سنة ٨ هـ[٢].

(١) لينظر فى قصة سبى هوازن: البخارى مع الفتح ٥/ ٢٠١.

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢/ ٤٨، وانظر لتفصيل هذه الغزوات - فتح مكة وحنين والطائف، وما وقع خلالها: زاد المعاد ٢/ ١٦٠ -٢٠١، وابن هشام ٢/ ٣٨٩-٥٠١. وصحيح البخارى: أبواب غزوة الفتح وحنين وأوطاس والطائف وغيرها ٢/ ٦١٢-٦٢٢، وفتح البارى ٨/ ٣-٥٨.

obeikandl.com

البعوث والسرايا بعد الرجوع من غزوة الفتح

وبعد الرجوع من هذا السفر الطويل الناجح أقام رسول الله ﷺ بالمدينة يستقبل الوفود، ويبعث العمال، ويبث الدعاة، ويَكْبِتُ من بقى فيه الاستكبار عن الدخول فى دين الله، والاستسلام للأمر الواقع الذى شاهدته العرب. وهاك صورة مصغرة من ذلك:

المصدقون:

قد عرفنا مما تقدم أن رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة كان فى أواخر أيام السنة الثامنة، فما هو إلا أن استهل هلال المحرم من سنة ٩هـ، وبعث رسول الله ﷺ المُصَدِّقين إلى القبائل، وهذه هى قائمتهم:

١ – عُيَيْنَةُ بن حصن	إلى بنى تميم.
٢ – يزيد بن الحُصَيْن	إلى أسْلَم وغِفَار.
٣ – عَبَّاد بن بشير الأشهلى	إلى سُلَيْم ومُزَيْنَة.
٤ – رافع بن مَكِيث	إلى جُهَيْنَة.
٥ – عمرو بن العاص	إلى بنى فَزَارَة.
٦ – الضحاك بن سفيان	إلى بنى كلاب.
٧ – بشير بن سفيان	إلى بنى كعب.
٨ – ابن اللُّتْبِيَّة الأزدى	إلى بنى ذُبْيَان.
٩ – المهاجر بن أبى أمية	إلى صنعاء (وخرج عليه الأسود العنسى وهو بها).
١٠ – زياد بن لبيد	إلى حضرموت.
١١ – عدى بن حاتم	إلى طيئ وبنى أسد.
١٢ – مالك بن نُوَيْرَة	إلى بنى حَنْظَلَة.
١٣ – الزِّبْرِقَان بن بدر	إلى بنى سعد (إلى قسم منهم).

١٤ – قيس بن عاصم	إلى بنى سعد (إلى قسم آخر منهم).
١٥ – العلاء بن الحضرمى	إلى البحرين.
١٦ – على بن أبى طالب	إلى نجران
	(لجمع الصدقة والجزية كليهما).

وليس هؤلاء العمال كلهم بعثوا فى المحرم سنة ٩هـ، بل تأخر بعث عدة منهم إلى اعتناق الإسلام من تلك القبائل التى بعثوا إليها. نعم كانت بداية بعث العمال بهذا الاهتمام البالغ فى المحرم سنة ٩هـ، وهذا يدل على مدى نجاح الدعوة الإسلامية بعد صلح الحديبية، وأما بعد فتح مكة فقد دخل الناس فى دين الله أفواجًا.

السرايا:

وكما بعث المصدقون إلى القبائل، مَسَّتِ الحاجة إلى بعث عدة من السرايا مع سيادة الأمن على عامة مناطق الجزيرة، وهاك لوحة تلك السرايا:

١- **سرية عيينة بن حصن الفزارى:** فى المحرم سنة ٩ هـ إلى بنى تميم، فى خمسين فارسًا، لم يكن فيهم مهاجرى ولا أنصارى، وسببها: أن بنى تميم كانوا قد أغروا القبائل، ومنعوهم عن أداء الجزية.

وخرج عيينة بن حصن يسير الليل، ويكمن النهار، حتى هجم عليهم فى الصحراء فولى القوم مدبرين، وأخذ منهم أحد عشر رجلًا وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبيًّا، وساقهم إلى المدينة، فأنزلوا فى دار رَمْلَة بنت الحارث.

وقدم فيهم عشرة من رؤسائهم، فجاءوا إلى باب النبى ﷺ فنادوا: يا محمد، اخرج إلينا، فخرج، فتعلقوا به، وجعلوا يكلمونه، فوقف معهم، ثم مضى حتى صلى الظهر، ثم جلس فى صحن المسجد، فأظهروا رغبتهم فى المفاخرة والمباهاة، وقدموا خطيبهم عُطَارِد ابن حاجب فتكلم، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شَمَّاس – خطيب الإسلام – فأجابهم، ثم قدموا شاعرهم الزبرقان بن بدر، فأنشد مفاخرًا، فأجابه شاعر الإسلام حسان بن ثابت على البديهة.

ولما فرغ الخطيبان والشاعران قال الأقرع بن حابس: خطيبه أخطب من خطيبنا، وشاعره أشعر من شاعرنا، وأصواتهم أعلى من أصواتنا، وأقوالهم أعلى من

أقوالنا، ثم أسلموا، فأجازهم رسول الله ﷺ، فأحسن جوائزهم، ورد عليهم نساءهم وأبناءهم[(١)].

٢- **سرية قُطْبَة بن عامر إلى حى من خَثْعَم بناحية تَبَالَة:** بالقرب من تُرَبَة فى صفر سنة ٩ هـ. خرج قطبة فى عشرين رجلًا على عشرة أبعرة يعتقبونها، فشن الغارة، فاقتتلوا قتالًا شديدًا حتى كثر الجرحى فى الفريقين جميعًا، وقتل قطبة مع من قتل، وساق المسلمون النَّعَم والنساء والشاء إلى المدينة.

٣- **سرية الضحاك بن سفيان الكلابى إلى بنى كِلاَب:** فى ربيع الأول سنة٩هـ. بعثت هذه السرية إلى بنى كلاب ؛ لدعوتهم إلى الإسلام، فأبوا وقاتلوا، فهزمهم المسلمون، وقتلوا منهم رجلًا.

٤- **سرية علقمة بن مُجَزِّزِ المُدْلِجى إلى سواحل جُدَّة:** فى شهر ربيع الآخر سنة ٩هـ فى ثلاثمائة. بعثهم إلى رجال من الحبشة، كانوا قد اجتمعوا بالقرب من سواحل جدة للقيام بأعمال القَرْصَنَة ضد أهل مكة، فخاض علقمة البحر حتى انتهى إلى جزيرة، فلما سمعوا بمسير المسلمين إليهم هربوا[(٢)].

٥- **سرية على بن أبى طالب إلى صنم لطيئ** يقال له: الفُلْس؛ ليهدمه: فى شهر ربيع الأول سنة ٩ هـ. بعثه رسول الله ﷺ فى خمسين ومائة، على مائة بعير وخمسين فرسًا، ومعه راية سوداء ولواء أبيض، فشنوا الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر، فهدموه وملأوا أيديهم من السبى والنعم والشاء، وفى السبى أخت عدى بن حاتم، وهرب عدى إلى الشام، ووجد المسلمون فى خزانة الفلس ثلاثة أسياف وثلاثة أدرع، وفى الطريق قسموا الغنائم، وعزلوا الصفى لرسول الله ﷺ. ولم يقسموا آل حاتم.

ولما جاءوا إلى المدينة استعطفت أخت عدى بن حاتم رسول الله ﷺ، قائلة: يا رسول الله، غاب الوافد، وانقطع الوالد، وأنا عجوز كبيرة، ما بى من خدمة، فمُنَّ علىّ، منّ الله عليك. قال: «**من وافدك؟**» قالت: عدى بن حاتم،. قال: «**الذى فر من الله ورسوله؟**» ثم مضى، فلما كان الغد قالت مثل ذلك، وقال لها مثل ما قال أمس. فلما كان بعد الغد قالت

---

(١) هكذا ذكره أهل المغازى أن هذه السرية كانت فى المحرم سنة ٩هـ، وفيه نظر ظاهر؛ فإن السياق يشعر بأن الأقرع بن حابس لم يكن أسلم قبلها، وقد ذكروا أن الأقرع بن حابس هو الذى قاد حين استرد رسول الله ﷺ سبايا بنى هوازن: أما أنا وبنو تميم فلا، وهذا يقتضى إسلامه قبل هذه السرية.

(٢) فتح البارى ٨ / ٥٩.

مثل ذلك، فمن عليها، وكان إلى جنبه رجل - ترى أنه على - فقال لها: سليه الحِمْلان فسألته فأمر لها به.

ورجعت أخت عدى بن حاتم إلى أخيها عدى بالشام، فلما لقيته قالت عن رسول الله ﷺ: لقد فعل فعلة ما كان أبوك يفعلها، ائته راغبًا أو راهبًا، فجاءه عدى بغير أمان ولا كتاب. فأتى به إلى داره، فلما جلس بين يديه حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: ما يُفِرُّكَ؟ أيُفِرُّك أن تقول: «**لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله سوى الله؟**» قال: لا. ثم تكلم ساعة ثم قال: «**إنما تفر أن يقال: الله أكبر، فهل تعلم شيئًا أكبر من الله؟**» قال: لا. قال: «**فإن اليهود مغضوب عليهم، وإن النصارى ضالون**». قال: فإنى حَنِيف مسلم، فانبسط وجهه فرحًا، وأمر به فنزل عند رجل من الأنصار، وجعل يأتى النبى ﷺ طرفى النهار[(١)].

وفى رواية ابن إسحاق عن عدى: أن النبى ﷺ لما أجلسه بين يديه فى داره قال له: «**إيه يا عدى بن حاتم، ألم تكن رَكُوسِيًّا؟**[(٢)]» قال: قلت: بلى، قال: «**أو لم تكن تسير فى قومك بالمِرْبَاع؟**[(٣)]». قال: قلت: بلى. قال: «**فإن ذلك لم يحل لك فى دينك**». قال: قلت أجل والله. قال: وعرفت أنه نبى مرسل، يعرف ما يُجْهَل[(٤)].

وفى رواية لأحمد: أن النبى ﷺ قال: «**يا عدى، أسلم تسلم**». فقلت: إنى من أهل دين. قال: «**أنا أعلم بدينك منك**». فقلت: أنت أعلم بدينى منى؟ قال: «**نعم، ألست من الركوسية، وأنت تأكل مرباع قومك؟**» فقلت: بلى، قال: «**فإن هذا لا يحل لك فى دينك**». قال: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها[(٥)].

وروى البخارى عن عدى قال: بينا أنا عند النبى ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «**يا عدى، هل رأيت الحيرة؟ فإن طالت بك حياة فلترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحدًا إلا الله، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، ويطلب من يقبله فلا يجد أحدًا يقبله منه...**» الحديث وفى آخره: قال عدى:

---

(١) زاد المعاد ٢/ ٢٠٥.

(٢) دين بين دين النصارى والصابئين.

(٣) ربع الغنيمة.

(٤) ابن هشام ٢/ ٥٨١.

(٥) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٥٧، ٢٧٨.

فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله. وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبى أبو القاسم ﷺ: «يخرج ملء كفه»[(١)].

(١) صحيح البخارى، ح (١٤١٣، ١٤١٧، ٣٥٩٥، ٦٠٢٣، ٦٥٣٩، ٦٥٤٠، ٦٥٦٣، ٧٤٤٣، ٧٥١٢).

obeikandl.com

غزوة تبوك
فى رجب سنة ٩هـ

إن غزوة فتح مكة كانت غزوة فاصلة بين الحق والباطل، لم يبق بعدها مجال للريبة والظن فى رسالة محمد ﷺ عند العرب، ولذلك انقلب المجرى تمامًا، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا - كما سيظهر ذلك مما نقدمه فى فصل الوفود، ومن العدد الذى حضر فى حجة الوداع - وانتهت المتاعب الداخلية، واستراح المسلمون لتعليم شرائع الله، وبث دعوة الإسلام.

سبب الغزوة:

إلا أنه كانت هناك قوة تعرضت للمسلمين من غير مبرر، وهى قوة الرومان - أكبر قوة عسكرية ظهرت على وجه الأرض فى ذلك الزمان - وقد عرفنا فيما تقدم أن بداية هذا التعرض كانت بقتل سفير رسول الله ﷺ - الحارث بن عمير الأزدى - على يدى شُرَحْبِيل بن عمرو الغسانى، حينما كان السفير يحمل رسالة النبى ﷺ إلى عظيم بُصْرَى، وأن النبى ﷺ أرسل بعد ذلك سرية زيد بن حارثة التى اصطدمت بالرومان اصطدامًا عنيفًا فى مؤتة، ولم تنجح فى أخذ الثأر من أولئك الظالمين المتغطرسين، إلا أنها تركت أروع أثر فى نفوس العرب، قريبهم وبعيدهم.

ولم يكن قيصر ليصرف نظره عما كان لمعركة مؤتة من الأثر الكبير لصالح المسلمين، وعما كان يطمح إليه بعد ذلك كثير من قبائل العرب من استقلالهم عن قيصر، ومواطأتهم للمسلمين، إن هذا كان خطرًا يتقدم ويخطو إلى حدوده خطوة بعد خطوة، ويهدد الثغور الشامية التى تجاور العرب، فكان يرى أن القضاء يجب على قوة المسلمين قبل أن تتجسد فى صورة خطر عظيم لا يمكن القضاء عليها، وقبل أن تثير القلاقل والثورات فى المناطق العربية المجاورة للرومان.

ونظرًا إلى هذه المصالح، لم يقض قيصر بعد معركة مؤتة سنة كاملة حتى أخذ يهيئ الجيش من الرومان والعرب التابعة لهم من آل غسان وغيرهم، وبدأ يجهز لمعركة دامية فاصلة.

الأخبار العامة عن استعداد الرومان وغَسَّان:

وكانت الأنباء تترامى إلى المدينة بإعداد الرومان ؛ للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين، حتى كان الخوف يتسورهم كل حين، لا يسمعون صوتًا غير معتاد إلا ويظنونه زحف الرومان. ويظهر ذلك جليًا مما وقع لعمر بن الخطاب، فقد كان النبى ﷺ آلى من نسائه شهرًا فى هذه السنة – ٩هـ – وكان هجرهن واعتزل عنهن فى مشربة له، ولم يفطن الصحابة إلى حقيقة الأمر فى بدايته، فظنوا أن النبى ﷺ طلقهن، فسرى فيهم الهم والحزن والقلق. يقول عمر بن الخطاب – وهو يروى هذه القصة: وكان لى صاحب من الأنصار إذا غبت أتانى بالخبر، وإذا غاب كنت آتية أنا بالخبر – وكانا يسكنان فى عوالى المدينة، يتناوبان إلى النبى ﷺ – ونحن نتخوف ملكًا من ملوك غسان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبى الأنصارى يدق الباب، فقال: افتح، افتح، فقلت: جاء الغسانى؟ فقال: بل أشد من ذلك، اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه... الحديث[1].

وفى لفظ آخر (أنه قال): وكنا تحدثنا أن آل غسان تنعل النعال لغزونا، فنزل صاحبى يوم نَوْبَتِهِ، فرجع عشاء، فضرب بابى ضربًا شديدًا وقال: أنائم هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم. فقلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم منه وأطول، طلق رسول الله ﷺ نساءه... الحديث[2].

وهذا يدل على خطورة الموقف، الذى كان يواجهه المسلمون بالنسبة إلى الرومان، ويزيد ذلك تأكدًا ما فعله المنافقون حينما نقلت إلى المدينة أخبار إعداد الرومان، فبرغم ما رآه هؤلاء المنافقون من نجاح رسول الله ﷺ فى كل الميادين، وأنه لا يوجل من سلطان على ظهر الأرض، بل يذيب كل ما يعترض فى طريقه من عوائق – برغم هذا كله – طفق هؤلاء المنافقون يأملون فى تحقق ما كانوا يخفونه فى صدورهم، وما كانوا يتربصونه من الشر بالإسلام وأهله. ونظرًا إلى قرب تحقق آمالهم أنشأوا وكرة للدس والتآمر، فى صورة مسجد، وهو مسجد الضِّرَار، أسسوه كفرًا وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله ورسوله، وعرضوا على رسول الله ﷺ أن يصلى فيه، وإنما مرامهم بذلك أن يخدعوا المؤمنين فلا يفطنوا ما يؤتى به فى هذا المسجد من الدس والمؤامرة ضدهم، ولا يلتفتوا إلى من يرده ويصدر عنه، فيصير وكرة مأمونة لهؤلاء المنافقين ولرفقائهم فى الخارج، ولكن رسول الله ﷺ أخر الصلاة فيه – إلى قفوله من الغزوة – لشغله بالجهاز، ففشلوا فى مرامهم وفضحهم الله، حتى قام

(١) صحيح البخارى ٢/ ٧٣٠.

(٢) صحيح البخارى ١/ ٣٣٤.

الرسول ﷺ بهدم المسجد بعد القفول من الغزو، بدل أن يصلى فيه.

الأخبار الخاصة عن استعداد الرومان وغسان:

كانت هذه هى الأحوال والأخبار التى يواجهها ويتلقاها المسلمون، إذ بلغهم من الأنباط الذين قدموا بالزيت من الشام إلى المدينة أن هرقل قد هيأ جيشًا عرمرما قوامه أربعون ألف مقاتل، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم، وأنه أجلب معهم قبائل لَخْم وجُذَام وغيرهما من متنصرة العرب، وأن مقدمتهم بلغت إلى البلقاء، وبذلك تمثل أمام المسلمين خطر كبير.

زيادة خطورة الموقف:

والذى كان يزيد خطورة الموقف أن الزمان كان فصل القيظ الشديد، وكان الناس فى عسرة وجدب من البلاء وقلة من الظهر، وكانت الثمار قد طابت، فكانوا يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم فيه، ومع هذا كله كانت المسافة بعيدة، والطريق وعرة صعبة.

الرسول ﷺ يقرر القيام بإقدام حاسم:

ولكن الرسول ﷺ كان ينظر إلى الظروف والتطورات بنظر أدق وأحكم من هذا كله، إنه كان يرى أنه لو توانى وتكاسل عن غزو الرومان فى هذه الظروف الحاسمة، وترك الرومان لتجوس خلال المناطق التى كانت تحت سيطرة الإسلام ونفوذه، وتزحف إلى المدينة كان له أسوأ أثر على الدعوة الإسلامية وعلى سمعة المسلمين العسكرية، فالجاهلية التى تلفظ نفسها الأخير بعد ما لقيت من الضربة القاصمة فى حنين ستحيا مرة أخرى، والمنافقون الذين يتربصون الدوائر بالمسلمين، ويتصلون بملك الرومان بواسطة أبى عامر الفاسق سيبعجون بطون المسلمين بخناجرهم من الخلف، فى حين تهجم الرومان بحملة ضارية ضد المسلمين من الأمام، وهكذا يخفق كثير من الجهود التى بذلها هو وأصحابه فى نشر الإسلام، وتذهب المكاسب التى حصلوا عليها بعد حروب دامية ودوريات عسكرية متتابعة متواصلة... تذهب هذه المكاسب بغير جدوى.

كان رسول الله ﷺ يعرف كل ذلك جيدًا، ولذلك قرر القيام - مع ما كان فيه من العسرة والشدة - بغزوة فاصلة يخوضها المسلمون ضد الرومان فى حدودهم، ولا يمهلونهم حتى يزحفوا إلى دار الإسلام.

الإعلان بالتهيؤ لقتال الرومان:

ولما قرر الرسول ﷺ الموقف أعلن فى الصحابة أن يتجهزوا للقتال، وبعث إلى القبائل من العرب وإلى أهل مكة يستنفرهم. وكان قل ما يريد غزوة يغزوها إلا وَرَّى بغيرها، ولكنه نظرًا إلى خطورة الموقف وإلى شدة العسرة أعلن أنه يريد لقاء الرومان، وجلى للناس أمرهم ؛ ليتأهبوا أهبة كاملة، وحضهم على الجهاد، ونزلت قطعة من سورة براءة تثيرهم على الجلاد، وتحثهم على القتال، ورغبهم رسول الله ﷺ فى بذل الصدقات، وإنفاق كرائم الأموال فى سبيل الله.

المسلمون يتسابقون إلى التجهز للغزو:

ولم يكن من المسلمين أن سمعوا صوت رسول الله ﷺ يدعو إلى قتال الروم إلا وتسابقوا إلى امتثاله، فقاموا يتجهزون للقتال بسرعة بالغة، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة – إلا الذين فى قلوبهم مرض وإلا ثلاثة نفر – حتى كان يجىء أهل الحاجة والفاقة يستحملون رسول الله ﷺ ؛ ليخرجوا إلى قتال الروم، فإذا قال لهم:] لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ Z [التوبة].

كما تسابق المسلمون فى إنفاق الأموال وبذل الصدقات، كان عثمان بن عفان قد جهز عيرًا للشام، مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها، ومائتا أوقية، فتصدق بها، ثم تصدق بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم جاء بألف دينار فنثرها فى حجره ﷺ، فكان رسول الله ﷺ يقلبها ويقول: «**ما ضَرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم**»(١)، ثم تصدق وتصدق حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس سوى النقود.

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتى أوقية فضة، وجاء أبو بكر بماله كلّه ولم يترك لأهله إلا الله ورسوله – وكانت أربعة آلاف درهم – وهو أول من جاء بصدقته. وجاء عمر بنصف ماله، وجاء العباس بمال كثير، وجاء طلحة وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة، كلهم جاءوا بمال. وجاء عاصم بن عدى بتسعين وَسْقًا من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها، حتى كان منهم من أنفق مُدّا أو مدين لم يكن يستطيع غيرها. وبعثت النساء ما قدرن عليه من مَسَك(٢) ومعاضد وخلاخل وقُرْط وخواتم.

(١) جامع الترمذى: مناقب عثمان بن عفان ٢/ ٢١١. (٢) أساور.

ولم يمسك أحد يده، ولم يبخل بماله إلا المنافقون] ¼ » º ¹ [½ ¾ ¿ À Á Â Ã Ä Å Æ Z [التوبة: ٧٩].

الجيش الإسلامى إلى تبوك:

وهكذا تجهز الجيش، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى، وقيل: سِبَاع بن عُرْفُطَةَ، وخلف على أهله على بن أبى طالب، وأمره بالإقامة فيهم، وغَمَصَ عليه المنافقون، فخرج فلحق برسول الله ﷺ، فرده إلى المدينة وقال: «**ألا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبى بعدى**».

وتحرك رسول الله ﷺ يوم الخميس نحو الشمال يريد تبوك، ولكن الجيش كان كبيرًا – ثلاثون ألف مقاتل، لم يخرج المسلمون فى مثل هذا الجمع الكبير قبله قط – فلم يستطع المسلمون مع ما بذلوه من الأموال أن يجهزوه تجهيزًا كاملًا، بل كانت فى الجيش قلة شديدة بالنسبة إلى الزاد والمراكب، فكان ثمانية عشر رجلًا يعتقبون بعيرًا واحدًا، وربما أكلوا أوراق الأشجار حتى تورمت شفاههم، واضطروا إلى ذبح البعير – مع قلتها – ليشربوا ما فى كرشه من الماء، ولذلك سمى هذا الجيش جيش العُسْرَةِ.

ومر الجيش الإسلامى فى طريقه إلى تبوك بالحِجْر – ديار ثمود الذين جابوا الصخر بالواد، أى وادى القُرَى – فاستقى الناس من بئرها.

فلما راحوا قال رسول الله ﷺ: «**لا تشربوا من مائها ولا تتوضأوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئًا**»، وأمرهم أن يستقوا من البئر التى كانت تردها ناقة صالح عليه السلام.

وفى الصحيحين عن ابن عمر قال: لما مر النبى ﷺ بالحجر قال: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين**»، ثم قَنَعَ رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادى[1].

واشتدت فى الطريق حاجة الجيش إلى الماء حتى شكوا إلى رسول الله، فدعا الله، فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجاتهم من الماء.

ولما قرب من تبوك قال: «**إنكم ستأتون غدًا إن شاء الله تعالى عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يَضْحَى النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتى**»، قال معاذ:

(١) صحيح البخارى: باب نزول النبى ﷺ الحجر ٢/ ٦٣٧.

فجئنا وقد سبق إليها رجلان، والعين تَبِضُّ بشيء من مائها، فسألهما رسول الله ﷺ: «**هل مسستما من مائها شيئًا؟**» قالا: نعم. وقال لهما ما شاء الله أن يقول. ثم غرف من العين قليلًا قليلًا حتى اجتمع الْوَشَلُ[١]، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويده، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير، فاستقى الناس، ثم قال رسول الله ﷺ: «**يوشك يا معاذ، إن طالت بك حياة أن ترى ماهاهنا قد ملئ جنانًا**»[٢].

وفى الطريق، أو لما بلغ تبوك - على اختلاف الروايات - قال رسول الله ﷺ: «**تهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد عِقَالَه**»، فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلى طيئ[٣].

وكان دأب رسول الله ﷺ فى الطريق أنه كان يجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء جمع التقديم وجمع التأخير كليهما.

الجيش الإسلامى بتبوك:

نزل الجيش الإسلامى بتبوك، فعسكر هناك، وهو مستعد للقاء العدو، وقام رسول الله ﷺ فيهم خطيبًا، فخطب خطبة بليغة، أتى بجوامع الكلم، وحض على خير الدنيا والآخرة، وحذر وأنذر، وبشر وأبشر، حتى رفع معنوياتهم، وجبر بها ما كان فيهم من النقص والخلل من حيث قلة الزاد والمادة والمؤنة. وأما الرومان وحلفاؤهم فلما سمعوا بزحف رسول الله ﷺ أخذهم الرعب، فلم يجترئوا على التقدم واللقاء، بل تفرقوا فى البلاد فى داخل حدودهم، فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية، فى داخل الجزيرة وأرجائها النائية، وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة خطيرة، لعلهم لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدام بين الجيشين.

جاء يُحَنَّةُ بن رُؤْبَةَ صاحب أيْلَةَ، فصالح الرسول ﷺ وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جَرْبَاء وأهل أذْرُح، فأعطوه الجزية، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا فهو عندهم، وصالحه أهل مِينَاء على ربع ثمارها، وكتب لصاحب أيلة: «**بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أمنة من الله ومحمد النبى رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة، سفنهم وسياراتهم فى البر والبحر لهم ذمة الله وذمة محمد النبى، ومن كان معه من أهل الشام وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثًا، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقًا يريدونه من بر أو بحر**».

---

(١) الماء القليل يُتَحلَّب من الجبل.

(٢، ٣) رواه مسلم عن معاذ بن جبل ٢/ ٢٤٦.

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أُكَيْدِرِ دُومَة الجَنْدَل فى أربعمائة وعشرين فارسًا، وقال له: «**إنك ستجده يصيد البقر**»، فأتاه خالد، فلما كان من حصنه بمنظر العين، خرجت بقرة، تحك بقرونها باب القصر، فخرج أكيدر لصيدها - وكانت ليلة مقمرة - فتلقاه خالد فى خيله، فأخذه وجاء به إلى رسول اللهﷺ، فحقن دمه، وصالحه على ألفى بعير، وثمانمائة رأس وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح، وأقر بإعطاء الجزية، فقاضاه مع يُحَنَّة على قضية دُومَة وتبوك وأيْلَةَ وَتَيْماء.

وأيقنت القبائل التى كانت تعمل لحساب الرومان أن اعتمادها على سادتها الأقدمين قد فات أوانه، فانقلبت لصالح المسلمين، وهكذا توسعت حدود الدولة الإسلامية، حتى لاقت حدود الرومان مباشرة، وشهد عملاء الرومان نهايتهم إلى حد كبير.

الرجوع إلى المدينة:

ورجع الجيش الإسلامى من تبوك مظفرين منصورين، لم ينالوا كيدًا، وكفى الله المؤمنين القتال، وفى الطريق عند عقبة حاول اثنا عشر رجلًا من المنافقين الفتك بالنبى ﷺ، وذلك أنه حينما كان يمر بتلك العقبة كان معه عمار يقود بزمام ناقته، وحذيفة بن اليمان يسوقها، وأخذ الناس ببطن الوادى، فانتهز أولئك المنافقون هذه الفرصة. فبينما رسول الله ﷺ وصاحباه يسيران إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم، قد غشوه وهم ملتثمون، فبعث حذيفة فضرب وجوه رواحلهم بمِحْجَن كان معه، فأرعبهم الله، فأسرعوا فى الفرار حتى لحقوا بالقوم، وأخبر رسول الله ﷺ بأسمائهم، وبما هموا به، فلذلك كان حذيفة يسمى بصاحب سر رسول اللهﷺ، وفى ذلك يقول الله تعالى:] : ; < = Z [التوبة: ٧٤].

ولما لاحت للنبى ﷺ معالم المدينة من بعيد قال: «**هذه طَابَةُ، وهذا أُحُدٌ، جبل يحبنا ونحبه**»، وتسامع الناس بمقدمه، فخرج النساء والصبيان والولائد يقابلن الجيش بحفاوة بالغة ويقلن[(١)]:

طلع البدر علينا ... من ثَنِيَّات الوداع
وَجَبَ الشكر علينا ... ما دعا لله داع

وكانت عودته ﷺ من تبوك ودخوله فى المدينة فى رجب سنة ٩هـ[(٢)]، واستغرقت

(١) هذا رأى ابن القيم وقد مضى البحث عليه.

(٢) وهذا هو الحق دون ما قاله ابن إسحاق من أن عودته ﷺ كانت فى رمضان؛ لأنه يقتضى خروجه ﷺ إلى تبوك فى الخميس الثانى من شهر رجب، وذلك الخميس يوافق الخامس والعشرين من شهر -

هذه الغزوة خمسين يومًا، أقام منها عشرين يومًا فى تبوك، والبواقى قضاها فى الطريق جيئة وذهوبًا. وكانت هذه الغزوة آخر غزواته ﷺ.

المُخَلَّفون:

وكانت هذه الغزوة – لظروفها الخاصة بها – اختبارًا شديدًا من الله، امتاز به المؤمنون من غيرهم، كما هى سنته تعالى فى مثل هذه المواطن، حيث يقول:] مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ Z [آل عمران: ١٧٩]. فقد خرج لهذه الغزوة كل من كان مؤمنًا صادقًا، حتى صار التخلف أمارة على نفاق الرجل، فكان الرجل إذا تخلف وذكروه لرسول الله ﷺ قال لهم: «**دعوه، فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم منه**»، فلم يتخلف إلا من حبسهم العذر، أو الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين، الذين قعدوا بعد أن استأذنوا للقعود كذبًا، أو قعدوا ولم يستأذنوا رأسا. نعم كان هناك ثلاثة نفر من المؤمنين الصادقين تخلفوا من غير مبرر، وهم الذين أبلاهم الله، ثم تاب عليهم.

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسجد، فصلى فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فأما المنافقون – وهم بضعة وثمانون رجلًا – فجاءوا يعتذرون بأنواع شتى من الأعذار، وطفقوا يحلفون له، فقبل منهم علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله.

وأما النفر الثلاثة من المؤمنين الصادقين – وهم كعب بن مالك، ومُرَارَة بن الربيع، وهلال ابن أمية – فاختاروا الصدق، فأمر رسول الله ﷺ الصحابة ألا يكلموا هؤلاء الثلاثة، وجرت ضد هؤلاء الثلاثة مقاطعة شديدة، وتغير لهم الناس، حتى تنكرت لهم الأرض، وضاقت عليهم بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وبلغت بهم الشدة إلى أنهم بعد أن قضوا أربعين ليلة من بداية المقاطعة أمروا أن يعتزلوا نساءهم، حتى تمت على مقاطعتهم خمسون ليلة، ثم أنزل الله توبتهم:] ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 10 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ A Z [التوبة].

= أكتوبر، وهو من الأيام المعتدلة القريبة من البرد، ولاسيما فى الصباح والمساء، وتأتى بعد جداد التمر بزمان، بينما الخروج إلى تبوك كان فى شدة الحر وفى أيام جداد التمر، ثم إن النبى ﷺ كان موجودًا فى المدينة فى شهر شعبان من هذه السنة حين توفيت ابنته أم كلثوم، فالصحيح أنه ﷺ رجع إلى المدينة فى شهر رجب، وكان خروجه قبل ذلك بخمسين يومًا، أى فى شهر جمادى الأولى.

وفرح المسلمون، وفرح الثلاثة فرحًا لا يقاس مداه وغايته، فبشروا وأبشروا واستبشروا وأجازوا وتصدقوا، وكان أسعد يوم من أيام حياتهم.

وأما الذين حبسهم العذر فقد قال تعالى فيهم:] لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ Z [التوبة: ٩١]. وقال فيهم رسول الله حين دنا من المدينة: «**إن بالمدينة رجالًا ما سرتم مَسِيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم، حبسهم العُذْرُ**»، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة**».

أثر الغزوة:

وكان لهذه الغزوة أعظم أثر فى بسط نفوذ المسلمين وتقويته على جزيرة العرب، فقد تبين للناس أنه ليس لأى قوة من القوات أن تعيش فى العرب سوى قوة الإسلام، وبطلت بقايا أمل وأمنية كانت تتحرك فى قلوب بقايا الجاهليين والمنافقين الذين كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين، وكانوا قد عقدوا آمالهم بالرومان، فقد استكانوا بعد هذه الغزوة، واستسلموا للأمر الواقع، الذى لم يجدوا عنه محيدًا ولا مناصًا.

ولذلك لم يبق للمنافقين أن يعاملهم المسلمون بالرفق واللين، وقد أمر الله بالتشديد عليهم، حتى نهى عن قبول صدقاتهم، وعن الصلاة عليهم، والاستغفار لهم والقيام على قبرهم، وأمر بهدم وكرة دسهم وتآمرهم التى بنوها باسم المسجد، وأنزل فيهم آيات افتضحوا بها افتضاحًا تامًّا، لم يبق فى معرفتهم بعدها أى خفاء، كأن الآيات قد نصت على أسمائهم لمن يسكن بالمدينة.

ويعرف مدى أثر هذه الغزوة من أن العرب وإن كانت قد أخذت فى التوافد إلى رسول الله ﷺ بعد غزوة فتح مكة، بل وما قبلها، إلا أن تتابع الوفود وتكاثرها بلغ إلى القمة بعد هذه الغزوة[(١)].

نزول القرآن حول موضوع الغزوة:

نزلت آيات كثيرة من سورة براءة حول موضوع الغزوة، نزل بعضها قبل الخروج، وبعضها بعد الخروج - وهو فى السفر - وبعض آخر منها بعد الرجوع إلى المدينة، وقد

(١) أخذنا تفاصيل هذه الغزوة من ابن هشام ٢/ ٥١٥- ٥٣٧، وزاد المعاد ٣/ ٢- ١٣، وصحيح البخارى ١/ ٢٥٢، ٤١٤ و ٢/ ٦٣٣- ٦٣٧ وغيرها. وصحيح مسلم مع شرحه للنووى ٢/ ٢٤٦، وفتح البارى ٨/ ١١٠- ١٢٦.

اشتملت على ذكر ظروف الغزوة، وفضح المنافقين، وفضل المجاهدين والمخلصين، وقبول التوبة من المؤمنين الصادقين، الخارجين منهم فى الغزوة والمتخلفين، إلى غير ذلك من الأمور.

obeikandl.com

بعض الوقائع المهمة فى هذه السنة

وفى هذه السنة وقعت عدة وقائع لها أهمية فى التاريخ:

١ - بعد قدوم رسول الله ﷺ من تبوك وقع اللعان بين عُوَيْمِر العَجْلانى وامرأته.

٢ - رجمت المرأة الغامدية، التى جاءت فاعترفت على نفسها بالفاحشة، رجمت بعدما فطمت ابنها.

٣ - توفى النجاشى أَصْحَمَة، ملك الحبشة، فى رجب، وصلى عليه رسول الله صلاة الغائب فى المدينة.

٤ - توفيت أم كلثوم بنت النبى ﷺ فى شعبان، فحزن عليها حزنًا شديدًا، وقال لعثمان: «**لو كانت عندى ثالثة لزوجتكها**».

٥ - مات رأس المنافقين عبد الله بن أبى ابن سَلُول بعد مرجع رسول الله ﷺ من تبوك، فاستغفر له رسول الله ﷺ، وصلى عليه بعد أن حاول عمر منعه عن الصلاة عليه، وقد نزل القرآن بعد ذلك بموافقة عمر.

obeikandl.com

حج أبى بكر رضي الله عنه

وفى ذى القعدة أو ذى الحجة من نفس السنة (٩ هـ) بعث رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميرًا على الحج، ليقيم بالمسلمين المناسك.

ثم نزلت أوائل سورة براءة بنقض المواثيق ونبذها على سواء، فبعث رسول الله ﷺ على بن أبى طالب ليؤدى عنه ذلك، وذلك تمشيًا منه على عادة العرب فى عهود الدماء والأموال، فالتقى على بأبى بكر بالعَرْج أو بضَجْنَان، فقال أبو بكر: أمير أو مأمور؟ قال على: لا، بل مأمور. ثم مضيا، وأقام أبو بكر للناس حجهم، حتى إذا كان يوم النحر، قام على بن أبى طالب عند الجمرة، فأذن فى الناس بالذى أمره رسول الله ﷺ، ونبذ إلى كل ذى عهد عهده، وأجل لهم أربعة شهور، وكذلك أجل أربعة أشهر لمن لم يكن له عهد، وأما الذين لم ينقصوا المسلمين شيئًا، ولم يظاهروا عليهم أحدًا فأبقى عهدهم إلى مدتهم.

وبعث أبو بكر رضي الله عنه رجالًا ينادون فى الناس: ألا لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُرْيَان.

وكان هذا النداء بمثابة إعلان نهاية الوثنية فى جزيرة العرب، وأنها لا تُبْدِئُ ولا تُعِيدُ بعد هذا العام[1].

(١) صحيح البخارى ١/ ٢٢٠، ٤٥١، ٢/ ٦٢٦، ٦٧١، وزاد المعاد ٣/ ٢٥، ٢٦، وابن هشام ٢/ ٥٤٣-٥٤٦.

obeikandl.com

نظرة على الغزوات

إذا نظرنا إلى غزوات النبى ﷺ وبعوثه وسراياه، لا يمكن لنا ولا لأحد ممن ينظر فى أوضاع الحروب وآثارها وخلفياتها – لا يمكن لنا إلا أن نقول:

إن النبى ﷺ كان أكبر قائد عسكرى فى الدنيا، وأشدهم وأعمقهم فراسة وتيقظًا، إنه صاحب عبقرية فذة فى هذا الوصف، كما كان سيد الرسل وأعظمهم فى صفة النبوة والرسالة، فلم يخض معركة من المعارك إلا فى الظرف ومن الجهة اللذين يقتضيهما الحزم والشجاعة والتدبير، ولذلك لم يفشل فى أى معركة من المعارك التى خاضها لغلطة فى الحكمة وما إليها من تعبئة الجيش وتعيينه على المراكز الاستراتيجية، واحتلال أفضل المواضع وأوثقها للمجابهة، واختيار أفضل خطة لإدارة دفة القتال، بل أثبت فى كل ذلك أن له نوعًا آخر من القيادة غير ما عرفتها الدنيا فى القواد. ولم يقع ما وقع فى أُحد وحنين إلا من بعض الضعف فى أفراد الجيش – فى حنين – أو من جهة معصيتهم أوامره وتركهم التقيد والالتزام بالحكمة والخطة اللتين كان أوجبهما عليهم من حيث الوجهه العسكرية.

وقد تجلت عبقريته ﷺ فى هاتين الغزوتين عند هزيمة المسلمين، فقد ثبت مجابهًا للعدو، واستطاع بحكمته الفذة أن يخيبهم فى أهدافهم – كما فعل فى أحد – أو يغير مجرى الحرب حتى يبدل الهزيمة انتصارًا – كما فى حنين – مع أن مثل هذا التطور الخطير، ومثل هذه الهزيمة الساحقة تأخذان بمشاعر القواد، وتتركان على أعصابهم أسوأ أثر، لا يبقى لهم بعد ذلك إلا هم النجاة بأنفسهم.

هذه من ناحية القيادة العسكرية الخالصة، أما من نواح أخرى، فإنه استطاع بهذه الغزوات فرض الأمن وبسط السلام، وإطفاء نار الفتنة، وكسر شوكة الأعداء فى صراع الإسلام والوثنية، وإلجائهم إلى المصالحة، وتخلية السبيل لنشر الدعوة، كما استطاع أن يتعرف على المخلصين من أصحابه ممن هو يبطن النفاق، ويضمر نوازع الغدر والخيانة.

وقد أنشأ طائفة كبيرة من القواد، الذين لاقوا بعده الفرس والرومان فى ميادين العراق والشام، ففاقوهم فى تخطيط الحروب وإدارة دفة القتال، حتى استطاعوا إجلاءهم من أرضهم وديارهم وأموالهم من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكيهن.

كما استطاع رسول الله ﷺ بفضل هذه الغزوات أن يوفر السكنى والأرض والحرف

والمشاغل للمسلمين، حتى تَفَصَّى[١] من كثير من مشاكل اللاجئين الذين لم يكن لهم مال ولا دار، وهيأ السلاح والكُرَاع[٢] والعدة والنفقات، حصل على كل ذلك من غير أن يقوم بمثقال ذرة من الظلم والطغيان والبغى والعدوان على عباد الله.

وقد غير أغراض الحروب وأهدافها التى كانت تضطرم نار الحرب لأجلها فى الجاهلية، فبينما كانت الحرب عبارة عن النهب والسلب والقتل والإغارة والظلم والبغى والعدوان، وأخذ الثأر، والفوز بالوَتَر، وكبت الضعيف، وتخريب العمران، وتدمير البنيان، وهتك حرمات النساء، والقسوة بالضعاف والولائد والصبيان، وإهلاك الحرث والنسل، والعبث والفساد فى الأرض - فى الجاهلية - إذ صارت هذه الحرب - فى الإسلام - جهادًا فى تحقيق أهداف نبيلة، وأغراض سامية، وغايات محمودة، يعتز بها المجتمع الإنسانى فى كل زمان ومكان، فقد صارت الحرب جهادًا فى تخليص الإنسان من نظام القهر والعدوان، إلى نظام العدالة والنَّصَف، من نظام يأكل فيه القوى الضعيف، إلى نظام يصير فيه القوى ضعيفًا حتى يؤخذ منه، وصارت جهادًا فى تخليص]) (* + , - Z @ ? > = < ; : 9 8 7 6 5 4 3 2 1 0 / . [النساء]. وصارت جهادًا فى تطهير أرض الله من الغدر والخيانة والإثم والعدوان، إلى بسط الأمن والسلامة والرأفة والرحمة ومراعاة الحقوق والمروءة.

كما شرع للحروب قواعد شريفة ألزم التقيد بها على جنوده وقوادها، ولم يسمح لهم الخروج عنها بحال. روى سليمان بن بريدة عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوى الله عز وجل، ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: «**اغزوا بسم الله، فى سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، فلا تغلوا، ولاتغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا...**» الحديث. وكان يأمر بالتيسير ويقول: «**يسروا ولا تعسروا، وسكنوا ولا تنفروا**»[٣].

وكان إذا جاء قومًا بِلَيْل لم يُغِرْ عليهم حتى يُصبِح، ونهى أشد النهى عن التحريق فى النار، ونهى عن قتل الصبر، وقتل النساء وضربهن، ونهى عن النهب حتى قال: «**إن النُّهْبَى ليست بأحل من الميتة**»، ونهى عن إهلاك الحرث والنسل وقطع الأشجار إلا إذا

---

(١) تخلص.

(٢) الخيل.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ٨٢، ٨٣، والمعجم الصغير للطبرانى ١/ ١٢٣، ١٨٧.

اشتدت إليها الحاجة، ولا يبقى سواه سبيل. وقال عند فتح مكة: «**لا تجهزن على جريح، ولا تتبعن مدبرًا، ولا تقتلن أسيرًا**»، وأمضى السنة بأن السفير لا يقتل، وشدد فى النهى عن قتل المعاهدين حتى قال: «**من قتل معاهدًا لم يُرِحْ رائحة الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة أربعين عامًا**»، إلى غير ذلك من القواعد النبيلة التى طهرت الحروب من أدران الجاهلية حتى جعلتها جهادًا مقدسًا [١].

(١) انظر ذلك مفصلًا فى: زاد المعاد ٢/ ٦٤- ٦٨.

obeikandl.com

الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا

كانت غزوة فتح مكة – كما قلنا – معركة فاصلة، قضت على الوثنية قضاء باتًّا، عرفت العرب لأجلها الحق من الباطل، وزالت عنهم الشبهات، فتسارعوا إلى اعتناق الإسلام. قال عمرو ابن سلمة: كنا بماء ممر الناس، وكان يمر بنا الركبان فنسألهم: ماللناس؟ ما للناس؟ ما هذا الرجل؟ – أى النبى ﷺ – فيقولون: يزعم أن الله أرسله، أوحى إليه، أوحى الله كذا، فكنت أحفظ ذاك الكلام، فكأنما يقر فى صدرى، وكانت العرب تلوم بإسلامهم الفتح، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبى صادق. فلما كانت وقعة أهل الفتح بادر كل قوم بإسلامهم، وبدر أبى قومى بإسلامهم، فلما قدم قال: جئتكم والله من عند النبى ﷺ حقًّا. فقال: صلوا صلاة كذا فى حين كذا، وصلاة كذا فى حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم، وليؤمكم أكثركم قرآنًا... الحديث.

وهذا الحديث يدل مدى أثر فتح مكة فى تطوير الظروف، وتعزيز الإسلام، وتعيين الموقف للعرب، واستسلامهم للإسلام، وتأكد ذلك أى تأكد بعد غزوة تبوك، ولذلك نرى الوفود تقصد المدينة تترى فى هذين العامين – التاسع والعاشر – ونرى الناس يدخلون فى دين الله أفواجًا، حتى إن الجيش الإسلامى الذى كان قوامه عشرة آلاف مقاتل فى غزوة الفتح، إذا هو يزخر فى ثلاثين ألف مقاتل فى غزوة تبوك قبل أن يمضى على فتح مكة عام كامل، ثم نرى فى حجة الوداع بحرًا من رجال الإسلام – مائة ألف من الناس أو مائة ألف وأربعة وأربعون ألفا منهم – يموج حول رسول الله ﷺ بالتلبية والتكبير والتسبيح والتحميد، تدوى له الآفاق، وترتج له الأرجاء.

الوفود

والوفود التى سردها أهل المغازى يزيد عددها على سبعين وفدًا، ولا يمكن لنا استقصاءها، وليس كبير فائدة فى بسط تفاصيلها، وإنما نذكر منها إجمالًا ما له روعة أو أهمية فى التاريخ، وليكن على ذكر من القارئ أن وفادة عامة القبائل وإن كانت بعد الفتح، ولكن هناك قبائل توافدت قبله أيضًا:

١ – وفد عبد القيس:

كانت لهذه القبيلة وفادتان: الأولى سنة خمس من الهجرة أو قبل ذلك. كان رجل منهم يقال له مُنْقِذُ بن حيان، يَرِدُ المدينة بالتجارة، فلما جاء المدينة بتجارته بعد مقدم النبى ﷺ،

وعلم الإسلام أسلم، وذهب بكتاب من النبى ﷺ إلى قومه فأسلموا، فتوافدوا إليه فى شهر حرام فى ثلاثة أو أربعة عشر رجلًا، وفيها سألوا عن الإيمان وعن الأشربة، وكان كبيرهم الأشج العصرى الذى قال فيه رسول الله ﷺ: **«إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»**.

والوفادة الثانية كانت فى سنة الوفود، وكان عددهم فيها أربعين رجلًا، وكان فيهم الجارود ابن العلاء العبدى، وكان نصرانيًّا فأسلم وحسن إسلامه[(١)].

٢ - وفد دَوْس:

كانت وفادة هذه القبيلة فى أوائل سنة سبع، ورسول الله ﷺ بخيبر، وقد قدمنا حديث إسلام الطُّفَيْل بن عمرو الدوسى، وأنه أسلم ورسول الله ﷺ بمكة، ثم رجع إلى قومه، فلم يزل يدعوهم إلى الإسلام، ويبطئون عليه حتى يئس منهم، ورجع إلى رسول الله ﷺ، فطلب منه أن يدعو على دوس، فقال: **«اللهم اهد دوسًا»**. ثم أسلم هؤلاء، فوفد الطفيل بسبعين أو ثمانين بيتا من قومه إلى المدينة فى أوائل سنة سبع، ورسول الله ﷺ بخيبر، فلحق به.

٣ - رسول فَرْوَة بن عمرو الجُذَامى:

كان فروة قائدًا عربيًّا من قواد الرومان، عاملًا لهم على من يليهم من العرب، وكان منزله مَعَان وما حوله من أرض الشام، أسلم بعد ما رأى من جلاد المسلمين وشجاعتهم، وصدقهم اللقاء فى معركة مؤتة سنة ٨هـ، ولما أسلم بعث إلى رسول الله ﷺ رسولًا بإسلامه، وأهدى له بغلة بيضاء، ولما علم الروم بإسلامه أخذوه فحبسوه، ثم خيروه بين الردة والموت، فاختار الموت على الردة، فصلبوه بفلسطين على ماء يقال له: عفراء، وضربوا عنقه[(٢)].

٤ - وفد صُدَاء:

جاء هذا الوفد عقب انصراف رسول الله ﷺ من الجِعْرَانة سنة ٨هـ، وذلك أن رسول الله ﷺ هيأ بعثًا من أربعمائة من المسلمين، وأمرهم أن يطأوا ناحية من اليمن فيها صُدَاء، وبينما ذلك البعث معسكر بصَدْرِ قَنَاة علم به زياد بن الحارث الصدائى، فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: جئتك وافدًا على مَنْ ورائى، فاردد الجيش وأنا لك بقومى، فرد الجيش من صدر قناة، وجاء الصدائى إلى قومه فرغبهم فى القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم

(١) شرح صحيح مسلم للنووى ١/ ٣٣، وفتح البارى ٨/ ٨٥، ٨٦.
(٢) زاد المعاد ٣/ ٤٥.

عليه خمسة عشر رجلًا منهم، وبايعوه على الإسلام، ثم رجعوا إلى قومهم، فدعوهم ففشا فيهم الإسلام، فوافى رسول الله ﷺ منهم مائة رجل فى حجة الوداع.

٥ - قدوم كعب بن زهير بن أبى سلمى:

كان من بيت الشعراء، ومن أشعر العرب، وكان يهجو النبى ﷺ، فلما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة الطائف سنة ٨هـ، كتب إلى كعب بن زهير أخوه بُجَيْر بن زهير أن رسول الله ﷺ قتل رجالًا بمكة ممن كانوا يهجونه ويؤذونه، ومن بقى من شعراء قريش هربوا فى كل وجه، فإن كانت لك فى نفسك حاجة فَطِرْ إلى رسول الله ﷺ، فإنه لا يقتل أحدًا جاء تائبًا، وإلا فانج إلى نجاتك، ثم جرى بين الأخوين مراسلات ضاقت لأجلها الأرض على كعب، وأشفق على نفسه، فجاء المدينة، ونزل على رجل من جُهَيْنَةَ، وصلى معه الصبح، فلما انصرف أشار عليه الجهنى، فقام إلى رسول الله ﷺ حتى جلس إليه، فوضع يده فى يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه فقال: يا رسول الله، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبًا مسلمًا، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال: «**نعم**». قال: أنا كعب ابن زهير، فوثب عليه رجل من الأنصار يستأذن ضرب عنقه، فقال: «**دعه عنك، فإنه قد جاء تائبًا نازعًا عما كان عليه**».

وحينئذ أنشد كعب قصيدته المشهورة التى أولها:

بانت سعاد فقلبى اليوم مَتْبُول ... مُتَيَّمٌ إثْرَهَا، لم يُفْدَ مَكْبُول

قال فيها - وهو يعتذر إلى رسول الله ﷺ، ويمدحه:

نُبِّئْتُ أن رسول الله أوعدنى ... والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذى أعطاك نافلة الـ ... ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لا تأخذنّ بأقوال الوُشَاة ولم ... أذنب، ولو كثرت فِيَّ الأقاويل

لقد أقوم مقاما ما لو يقوم به ... أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل

لَظَلَّ يُرْعَد إلا أن يكون له ... من الرسول بإذن الله تَنْوِيل

حتى وضعتُ يمينى ما أنازعه ... فى كَفِّ ذى نقمات قِيلُهُ القيل

فلهو أخوفُ عندى إذ أكلِّمه ... وقيل: إنك منسوب ومسئول

من ضَيْغَم بِضَرَاء الأرض مَخْدَرُهُ ... فِى بَطْنِ عَثَّرَ غِيلٌ دونه غِيل[1]

(١) ضراء الأرض: ما واراك من الشجر، وعثر: موضع تنسب إليه الأسود، والغيل: الغابة.

إن الـرسـول لـنـور يُستَضاء به مُـهَـنَّـدٌ مـن سيوف الله مسلول

ثم مدح المهاجرين من قريش؛ لأنهم لم يكن تكلم منهم رجل فى كعب حين جاء إلا بخير، وعرض فى أثناء مدحهم على الأنصار لاسئذان رجل منهم فى ضرب عنقه، قال:

يمشون مَشْى الجمال الزُّهْرِ يعصمهم ضَـرْبٌ إذا عَرَّد السُّودُ التَّنَابِيل[1]

فلما أسلم وحسن إسلامه مدح الأنصار فى قصيدة له، وتدارك ما كان قد فرط منه فى شأنهم، قال فى تلك القصيدة:

مـن سـره كَـرَمُ الحياة فـلا يَـزَلْ فى مِقْنَبٍ[2] من صالحى الأنصار

ورثـوا المكارم كـابـرًا عن كابر إن الـخـيـار هـم بـنـو الأخـيـار

٦ - وفد عُذْرَة:

قدم هذا الوفد فى صفر سنة ٩هـ، وهم اثنا عشر رجلًا فيهم حمزة بن النعمان، قال متكلمهم حين سئلوا «**من القوم؟**»: نحن بنو عُذْرَة، إخوة قُصَىٍّ لأمه، نحن الذين عضدوا قصيًّا، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبنى بكر، لنا قرابات وأرحام، فرحب بهم النبى ﷺ، وبشرهم بفتح الشام، ونهاهم عن سؤال الكاهنة، وعن الذبائح التى كانوا يذبحونها. أسلموا وأقاموا أيامًا ثم رجعوا.

٧ - وفد بَلِىّ:

قدم فى ربيع الأول سنة ٩هـ، وأسلم وأقام بالمدينة ثلاثًا، وقد سأل رئيسهم أبو الضُّبَيْب عن الضيافة هل فيها أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: «**نعم، وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة**»، وسأل عن وقت الضيافة، فقال: «**ثلاثة أيام**»، وسأل عن ضالة الغنم، فقال: «**هى لك أو لأخيك أو للذئب**»، وسأل عن ضالة البعير. فقال: «**مالك وله؟ دعه حتى يجده صاحبه**».

٨ - وفد ثقيف:

كانت وفادتهم فى رمضان سنة ٩هـ، وقصة إسلامهم أن رئيسهم عروة بن مسعود الثقفى جاء إلى رسول الله ﷺ بعد مرجعه من غزوة الطائف فى ذى القعدة سنة ٨ هـ قبل أن يصل إلى المدينة، فأسلم عروة، ورجع إلى قومه، ودعاهم إلى الإسلام - وهو يظن أنهم يطيعونه ؛ لأنه كان سيدا مطاعًا فى قومه، وكان أحب إليهم من أبكارهم - فلما دعاهم إلى

(١) عرّد: نكب عن قرنه، والتنابيل: القصار.

(٢) جماعة.

الإسلام رموه بالنبل من كل وجه حتى قتلوه، ثم أقاموا بعد قتله أشهرًا، ثم ائتمروا بينهم، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب مَنْ حولهم من العرب - الذين كانوا قد بايعوا وأسلموا - فأجمعوا أن يرسلوا رجلًا إلى رسول الله ﷺ، فكلموا عَبْد يالِيل بن عمرو، وعرضوا عليه ذلك فأبى، وخاف أن يصنعوا به إذا رجع مثل ما صنعوا بعروة. وقال: لست فاعلًا حتى ترسلوا معى رجالًا، فبعثوا معه رجلين من الأحلاف وثلاثة من بنى مالك، فصاروا ستة فيهم عثمان بن أبى العاص الثقفى، وكان أحدثهم سنًّا.

فلما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبة فى ناحية المسجد، لكى يسمعوا القرآن، ويروا الناس إذا صلوا، ومكثوا يختلفون إلى رسول الله ﷺ، وهو يدعوهم إلى الإسلام، حتى سأل رئيسهم أن يكتب لهم رسول الله ﷺ قضية صلح بينه وبين ثقيف، يأذن لهم فيه بالزنا وشرب الخمور وأكل الربا، ويترك لهم طاغيتهم اللات، وأن يعفيهم من الصلاة، وألا يكسروا أصنامهم بأيديهم، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبل شيئًا من ذلك، فخلوا وتشاوروا فلم يجدوا محيصًا عن الاستسلام لرسول الله ﷺ، فاستسلموا وأسلموا، واشترطوا أن يتولى رسول الله ﷺ هدم اللات، وأن ثقيفًا لا يهدمونها بأيديهم أبدًا. فقبل ذلك، وكتب لهم كتابًا، وأمر عليهم عثمان بن أبى العاص الثقفى ؛ لأنه كان أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم الدين والقرآن. وذلك أن الوفد كانوا كل يوم يغدون إلى رسول الله ﷺ، ويخلفون عثمان بن أبى العاص فى رحالهم، فإذا رجعوا وقالوا بالهاجرة عمد عثمان بن أبى العاص إلى رسول الله ﷺ فاستقرأه القرآن، وسأله عن الدين، وإذا وجده نائمًا عمد إلى أبى بكر لنفس الغرض (وكان من أعظم الناس بركة لقومه فى زمن الردة، فإن ثقيفًا لما عزمت على الردة قال لهم: يا معشر ثقيف، كنتم آخر الناس إسلامًا، فلا تكونوا أول الناس ردة، فامتنعوا عن الردة، وثبتوا على الإسلام).

ورجع الوفد إلى قومه فكتمهم الحقيقة، وخوفهم بالحرب والقتال، وأظهر الحزن والكآبة، وأن رسول الله ﷺ سألهم الإسلام وترك الزنا والخمر والربا وغيرها وإلا يقاتلهم. فأخذت ثقيفًا نخوة الجاهلية، فمكثوا يومين أو ثلاثة يريدون القتال، ثم ألقى الله فى قلوبهم الرعب، وقالوا للوفد: ارجعوا إليه فأعطوه ما سأل. وحينئذ أبدى الوفد حقيقة الأمر، وأظهروا ما صالحوا عليه، فأسلمت ثقيف.

وبعث رسول الله ﷺ رجالًا لهدم اللات، أمر عليهم خالد بن الوليد، فقام المغيرة بن شعبة، فأخذ الكُرْزِين وقال لأصحابه: والله لأضحكنكم من ثقيف، فضرب بالكرزين، ثم

سقط يركض، فارتج أهل الطائف، وقالوا: أبعد الله المغيرة، قتلته الرَّبَّةُ، فوثب المغيرة فقال: قبحكم الله، إنما هى لُكَاع حجارة ومَدَر، ثم ضرب الباب فكسره، ثم علا أعلى سورها، وعلا الرجال فهدموها وسووها بالأرض حتى حفروا أساسها، وأخرجوا حليها ولباسها، فبهتت ثقيف، ورجع خالد مع مفرزته إلى رسول الله ﷺ بحليها وكسوتها، فقسمها رسول الله ﷺ من يومه، وحمد الله على نصرة نبيه وإعزاز دينه[(١)].

٩ - رسالة ملوك اليمن:

وبعد مرجع النبى ﷺ من تبوك قدم كتاب ملوك حِمْيَر، وهم الحارث بن عبد كُلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان، وقَيْلُ ذى رُعَيْن وهَمْدَان ومُعَافِر، ورسولهم إليه ﷺ مالك ابن مرة الرَّهَاوى، بعثوه بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله، وكتب إليهم رسول الله ﷺ كتابًا بَيَّنَ فيه ما للمؤمنين وما عليهم، وأعطى فيه المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله إذا أعطوا ما عليهم من الجزية وبعث إليهم رجالًا من أصحابه أميرهم معاذ بن جبل، وجعله على الكورة العلياء من جهة عَدَن بين السَّكُون والسَّكَاسِك، وكان قاضيًا وحاكمًا فى الحروب، وعاملًا على أخذ الصدقة والجزية، ويصلى بهم الصلوات الخمس، وبعث أبا موسى الأشعرى رضي الله عنه على الكورة السفلى: زُبَيْد ومأرب وَزَمَع والساحل، وقال: «**يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا**». وقد مكث معاذ باليمن حتى توفى رسول الله ﷺ. أما أبو موسى الأشعرى رضي الله عنه فقدم عليه ﷺ فى حجة الوداع.

١٠ - وفد همدان:

قدموا سنة ٩هـ بعد مرجعه ﷺ من تبوك، فكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا أقطعهم فيه ما سألوه، وأمر عليهم مالك بن النَّمَطَ، واستعمله على من أسلم من قومه، وبعث إلى سائرهم خالد ابن الوليد يدعوهم إلى الإسلام، فأقام ستة أشهر يدعوهم فلم يجيبوه، ثم بعث على بن أبى طالب، وأمره أن يَقْفُلَ[(٢)] خالدًا، فجاء على إلى همدان، وقرأ عليهم كتابًا من رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا جميعًا، وكتب على ببشارة إسلامهم إلى رسول ﷺ، فلما قرأ الكتاب خر ساجدًا، ثم رفع رأسه فقال: «**السلام على همدان، السلام على همدان**».

---

(١) زاد المعاد ٣/ ٢٦-٢٨، وابن هشام ٢/ ٥٣٧-٥٤٢، والكرزين: القلعة.

(٢) يتبع.

١١ - وفد بنى فَزَارَة:

قدم هذا الوفد سنة ٩هـ بعد مرجعه ﷺ من تبوك، قدم فى بضعة عشر رجلًا جاءوا مقرين بالإسلام، وشكوا جدب بلادهم، فصعد رسول الله ﷺ المنبر، فرفع يديه واستسقى، وقال: «**اللهم اسق بلادك وبهائمك، وانشر رحمتك، وأحْى بلدك الميت، اللهم اسقنا غَيْثًا مُغِيثًا، مريئًا مَرِيعًا، طَبَقًا واسعًا، عاجلًا غير آجل، نافعًا غير ضار، اللهم سقيا رحمة، لا سقيا عذاب، ولاهَدْم ولا غَرَق ولا مَحْق، اللهم اسقنا الغيث، وانصرنا على الأعداء**»[(١)].

١٢ـ وفد نجران:

(نجران، بفتح النون وسكون الجيم: بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن، كان يشتمل على ثلاث وسبعين قرية، مسيرة يوم للراكب السريع[(٢)]، وكان يؤلف مائة ألف مقاتل كانوا يدينون بالنصرانية).

وكانت وفادة أهل نجران سنة ٩هـ، وقوام الوفد ستون رجلًا منهم أربعة وعشرون من الأشراف، فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران. أحدهمْ: العَاقِب، كانت إليه الإمارة والحكومة، واسمه عبد المسيح. والثانى: السيد، كانت تحت إشرافه الأمور الثقافية والسياسية، واسمه الأيْهَم أو شُرَحْبِيل. والثالث: الأسْقف، وكانت إليه الزعامة الدينية، والقيادة الروحانية، واسمه أبو حارثة بن علقمة.

ولما نزل الوفد بالمدينة، ولقى النبى ﷺ سألهم وسألوه، ثم دعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن فامتنعوا، وسألوه عما يقول فى عيسى عليه السلام، فمكث رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى نزل عليه:] إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ Z [آل عمران].

ولما أصبح رسول الله ﷺ أخبرهم بقوله فى عيسى ابن مريم فى ضوء هذه الآية الكريمة، وتركهم ذلك اليوم ؛ ليفكروا فى أمرهم، فأبوا أن يقروا بما قال فى عيسى. فلما أصبحوا وقد أبوا عن قبول ما عرض عليهم من قوله فى عيسى، وأبوا عن الإسلام دعاهم رسول الله ﷺ

(١) زاد المعاد ٣/ ٤٨.

(٢) فتح البارى ٨/ ٩٤.

إلى المباهلة، وأقبل مشتملًا على الحسن والحسين فى خَمِيل له، وفاطمة تمشى عند ظهره، فلما رأوا منه الجد والتهيؤ خلوا وتشاوروا، فقال كل من العاقب والسيد للآخر: لا تفعل، فو الله لئن كان نبيًّا فَلاَعَنَنَا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، فلا يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظُفْر إلا هلك، ثم اجتمع رأيهم على تحكيم رسول الله ﷺ فى أمرهم، فجاءوا وقالوا: إنا نعطيك ما سألتنا. فقبل رسول الله ﷺ منهم الجزية، وصالحهم على ألفى حُلَّة: ألف فى رجب، وألف فى صفر، ومع كل حلة أوقية، وأعطاهم ذمة الله وذمة رسوله. وترك لهم الحرية الكاملة فى دينهم، وكتب لهم بذلك كتابًا، وطلبوا منه أن يبعث عليهم رجلًا أمينًا، فبعث عليهم أمين هذه الأمة أبا عبيدة بن الجراح؛ ليقبض مال الصلح.

ثم طفق الإسلام يفشو فيهم، فقد ذكروا أن السيد والعاقب أسلما بعد ما رجعا إلى نجران، وأن النبى ﷺ بعث إليهم عليًّا ؛ ليأتيه بصدقاتهم وجزيتهم، ومعلوم أن الصدقة إنما تؤخذ من المسلمين[(١)].

١٣ - وفد بنى حنيفة:

كانت وفادتهم سنة ٩هـ، وكانوا سبعة عشر رجلًا فيهم مُسَيْلِمة الكذاب[(٢)] - وهو مُسَيْلِمة ابن ثُمَامَة بن كبير بن حبيب بن الحارث من بنى حنيفة - نزل هذا الوفد فى بيت رجل من الأنصار، ثم جاءوا إلى النبى ﷺ فأسلموا، واختلفت الروايات فى مسيلمة الكذاب، ويظهر بعد النظر فى جميعها أن مسيلمة صدر منه الاستنكاف والأنفة والاستكبار والطموح إلى الإمارة، وأنه لم يحضر مع سائر الوفد إلى رسول الله ﷺ، وأن النبى ﷺ أراد استئلافه بالإحسان بالقول والفعل أولا، فلما رأى أن ذلك لا يجدى فيه نفعًا تفرس فيه الشر.

وكان النبى ﷺ قد أرى قبل ذلك فى المنام أنه أتى بخزائن الأرض، فوقع فى يديه سواران من ذهب، فكبرا عليه وأهماه، فأوحى إليه أن انفخهما فنفخهما فذهبا، فأوَّلَهُمَا كذابين يخرجان من بعده، فلما صدر من مسيلمة ما صدر من الاستنكاف - وقد كان يقول: إن جعل لى محمد الأمر من بعده تبعته - جاءه رسول الله ﷺ وفى يده قطعة من جريد،

(١) فتح البارى ٨/ ٩٤- ٩٥، وزاد المعاد ٣/ ٣٨- ٤١ وقد اضطربت الروايات فى بيان كيفية وفد نجران، حتى جنح بعض المحققين إلى أن وفادة أهل نجران كانت مرتين. وقد ذكرنا- ملخصا- ما ترجح عندنا فى هذا الوفد.

(٢) فتح البارى ٨/ ٨٧.

ومعه خطيبه ثابت بن قيس بن شَمَّاس، حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه، فكلمه، فقال له مسيلمة: إن شئت خلينا بينك وبين الأمر، ثم جعلته لنا بعدك، فقال: «**لو سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرتَ ليعقرنك الله، والله إنى لأراك الذى أُرِيتُ فيه ما رأيتُ، وهذا ثابت يجيبك عنى**»، ثم انصرف[١].

وأخيرًا وقع ما تَفَرَّسَ فيه النبى ﷺ، فإن مسيلمة لما رجع إلى اليَمَامة بقى يفكر فى أمره، حتى ادعى أنه أشرك فى الأمر مع النبى ﷺ، فادعى النبوة، وجعل يسجع السجعات، وأحل لقومه الخمر والزنا، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ أنه نبى، وافتتن به قومه فتبعوه وأصفقوا معه، حتى تفاقم أمره، فكان يقال له: رحمان اليمامة لعظم قدره فيهم، وكتب إلى رسول الله ﷺ كتابًا قال فيه: إنى أشركت فى الأمر معك، وإن لنا نصف الأمر، ولقريش نصف الأمر، فرد عليه رسول الله ﷺ بكتاب قال فيه: «**إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين**»[٢].

وعن ابن مسعود: جاء ابن النَّوَّاحَة، وابن أُثَال رسولا مسيلمة إلى النبى ﷺ، فقال لهما: «**أتشهدان أنى رسول الله؟**» فقالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله. فقال النبى ﷺ: «**آمنت بالله ورسوله، لو كنت قاتلًا رسولًا لقتلتكما**»[٣].

كان ادعاء مسيلمة النبوة سنة عشر، وقتل فى حرب اليمامة فى عهد أبى بكر الصديق رضي الله عنه فى ربيع الأول سنة ١٢هـ، قتله وَحْشِى قاتل حمزة. وأما المتنبئ الثانى، وهو الأسود العَنْسِى الذى كان باليمن، فقتله فَيْرُوز، واحتز رأسه قبل وفاة النبى ﷺ بيوم وليلة، فأتاه الوحى فأخبر به أصحابه، ثم جاء الخبر من اليمن إلى أبى بكر رضي الله عنه[٤].

١٤ـ وفد بنى عامر بن صَعْصَعَة:

كان فيهم عامر بن الطُّفَيْل -عدو الله- وأرْبَد بن قيس - أخو لَبِيد لأمه - وخالد بن جعفر، وجَبَّار بن أسلم، وكانوا رؤساء القوم وشياطينهم، وكان عامر هو الذى غدر بأصحاب بئر مَعُونة، فلما أراد هذا الوفد أن يقدم المدينة تآمر عامر وأربد، واتفقا على الفتك بالنبى ﷺ، فلما جاء الوفد جعل عامر يكلم النبى ﷺ، ودار أربد خلفه، واخترط

---

(١) انظر: صحيح البخارى: باب وفد بنى حنيفة، وباب قصة الأسود العنسى ٢/ ٦٢٧، ٦٢٨، وفتح البارى ٨/ ٨٧- ٩٣.

(٢) زاد المعاد ٣/ ٣١، ٣٢.

(٣) رواه الإمام أحمد، مشكاة المصابيح ٢/ ٣٤٧.

(٤) فتح البارى ٨/ ٩٣.

سيفه شبرًا، ثم حبس الله يده فلم يقدر على سله، وعصم الله نبيه، ودعا عليهما النبى ﷺ، فلما رجعا أرسل الله على أربد وجمله صاعقة فأحرقته، وأما عامر فنزل على امرأة سَلُولِيَّةٍ، فأصيب بغُدَّةٍ فى عنقه فمات وهو يقول: أغدة كغدة البعير، وموتا فى بيت السلولية.

وفى صحيح البخارى: أن عامرًا أتى النبى ﷺ فقال: أُخَيِّرُكَ بين خصال ثلاث: يكون لك أهل السَّهْلِ ولى أهل الْمَدَرَ، أو أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بغَطَفَان بألف أشقر وألف شقراء، فطعن فى بيت امرأة، فقال: أغدة كغدة البعير، فى بيت امرأة من بنى فلان ! ايتونى بفرسى، فركب، فمات على فرسه.

١٥ـ وفد تُجِيب:

قدم هذا الوفد بصدقات قومه مما فضل عن فقرائهم، وكان الوفد ثلاثة عشر رجلًا، وكانوا يسألون عن القرآن والسنن يتعلمونها، وسألوا رسول الله ﷺ أشياء فكتب لهم بها، ولم يطيلوا اللبث، ولما أجازهم رسول الله ﷺ بعثوا إليه غلامًا كانوا خلفوه فى رحالهم، فجاء الغلام، وقال: والله ما أعْمَلَنِى[1] من بلادى إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لى ويرحمنى، وأن يجعل غناى فى قلبى، فدعا له بذلك. فكان أقنع الناس، وثبت فى الردة على الإسلام، وذكر قومه ووعظهم فثبتوا عليه، والتقى أهل الوفد بالنبى ﷺ مرة أخرى فى حجة الوداع سنة ١٠ هـ.

١٦ـ وفد طيِّئ:

قدم هذا الوفد وفيهم زَيْدُ الخَيْلِ، فلما كلموا النبى ﷺ، وعرض عليهم الإسلام أسلموا وحسن إسلامهم، وقال رسول الله ﷺ عن زيد: «**ما ذكر لى رجل من العرب بفضل، ثم جاءنى إلا رأيته دون ما يقال فيه، إلا زيد الخيل، فإنه لم يبلغ كل ما فيه**»، وسماه زيد الخير.

وهكذا تتابعت الوفود إلى المدينة فى سنتى تسع وعشر، وقد ذكر أهل المغازى والسير منها وفود أهل اليمن، والأزْد وبنى سعد هُذَيْم من قُضَاعَة، وبنى عامر بن قَيْس، وبنى أسد، وبَهْرَاء وخَوْلان ومُحَارِب وبنى الحارث بن كعب وغَامِد وبنى المُنْتَفِق، وسَلامان، وبنى عَبْس، ومُزَيْنَة، ومُرَاد، وزُبَيْد، وكِنْدَة، وذى مُرَّة، وغَسَّان، وبنى عِيش، ونَخْع – وهو آخر الوفود، توافد فى منتصف محرم سنة ١١هـ فى مائتى رجل – وكانت وفادة الأغلبية من

(١) ما أحضرنى.

هذه الوفود سنة ٩ و ١٠هـ، وقد تأخرت وفادة بعضها إلى سنة ١١ هـ.

وتَتَابُع هذه الوفود يدل على مدى ما نالت الدعوة الإسلامية من القبول التام، وبسط السيطرة والنفوذ على أنحاء جزيرة العرب وأرجائها، وأن العرب كانت تنظر إلى المدينة بنظر التقدير والإجلال، حتى لم تكن ترى محيصًا عن الاستسلام أمامها، فقد صارت المدينة عاصمة لجزيرة العرب، لا يمكن صرف النظر عنها، إلا أننا لا يمكن لنا القول بأن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم ؛ لأنه كان وسطهم كثير من الأعراب الجفاة الذين أسلموا تبعًا لسادتهم، ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد عما تأصل فيها من الميل إلى الغارات، ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب.

وقد وصف القرآن بعضهم بقوله فى سورة التوبة:] ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ Z [التوبة]

وأثنى على آخرين منهم فقال:] وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ Z [التوبة].

أما الحاضرون منهم فى مكة والمدينة وثقيف، وكثير من اليمن والبحرين، فقد كان الإسلام فيهم قويًا، ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين[1].

(١) كلمة للخضرى فى محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ١/ ١٤٤. وانظر فى تفاصيل الوفود التى ذكرناها أو أشرنا إليها: صحيح البخارى ١/ ١٣، ٢/ ٦٢٦- ٦٣٠، وابن هشام ٣/ ٥٠١- ٥٠٣، ٥١٠- ٥١٤، ٥٣٧- ٥٤٢، ٥٦٠- ٦٠١، وزاد المعاد ٣/ ٢٦- ٦٠، وفتح البارى ٨/ ٨٣- ١٠٣.

نجاح الدعوة وأثرها

وقبل أن نتقدم خطوة أخرى إلى مطالعة أواخر أيام حياة الرسول ﷺ، ينبغى لنا أن نلقى نظرة إجمالية على العمل الجلل الذى هو فذلكة حياته، والذى امتاز به عن سائر الأنبياء والمرسلين، حتى توج الله هامته بسيادة الأولين والآخرين.

إنه ﷺ قيل له:] ! " # $ % & ' (Z الآيات [المزمل]. و] يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ Z الآيات [المدثر] ، فقام وظل قائمًا أكثر من عشرين عامًا يحمل على عاتقه عبء الأمانة الكبرى فى هذه الأرض، عبء البشرية كلها، وعبء العقيدة كلها، وعبء الكفاح والجهاد فى ميادين شتى.

حمل عبء الكفاح والجهاد فى ميادين الضمير البشرى الغارق فى أوهام الجاهلية وتصوراتها، المثقل بأثقال الأرض وجواذبها، المكبل بأوهاق الشهوات وأغلالها. حتى إذا خلص هذا الضمير فى بعض صحابته مما يثقله من ركام الجاهلية والحياة الأرضية، بدأ معركة أخرى فى ميدان آخر، بل معارك متلاحقة... مع أعداء دعوة الله المتألبين عليها، وعلى المؤمنين بها، الحريصين على قتل هذه الغرسة الزكية فى منبتها، قبل أن تنمو وتمد جذورها فى التربة، وفروعها فى الفضاء، وتظلل مساحات أخرى... ولم يكد يفرغ من معارك الجزيرة العربية حتى كانت الروم تعد لهذه الأمة الجديدة، وتتهيأ للبطش بها على تُخُومِها الشمالية.

وفى أثناء هذا كله لم تكن المعركة الأولى – معركة الضمير – قد انتهت، فهى معركة خالدة، الشيطان صاحبها، وهو لا يَنِى لحظة عن مزاولة نشاطه فى أعماق الضمير الإنسانى، ومحمد ﷺ قائم على دعوة الله هناك، وعلى المعركة الدائبة فى ميادينها المتفرقة، فى شظف من العيش، والدنيا مقبلة عليه وفى جهد وكَدٍّ، والمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الأمن والراحة، وفى نُصُب دائم لا ينقطع، وفى صبر جميل على هذا كله، وفى قيام الليل، وفى عبادة لربه وترتيل لقرآنه، وتَبَتُّل إليه كما أمره أن يفعل[1].

وهكذا عاش فى المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عامًا، لا يلهيه شأن عن شأن فى خلال هذا الأمد، حتى نجحت الدعوة الإسلامية على نطاق واسع تتحير له

(١) كلمة لسيد قطب فى ظلال القرآن ٢٩/ ١٦٨، ١٦٩.

العقول، فقد دانت لها الجزيرة العربية، وزالت غبرة الجاهلية عن آفاقها، وصحت العقول العليلة حتى تركت الأصنام بل كسرت، أخذ الجو يرتج بأصوات التوحيد، وسمع الأذان للصلوات يشق أجواء الفضاء خلال الصحراء التى أحياها الإيمان الجديد، وانطلق القراء شمالًا وجنوبًا، يتلون آيات الكتاب، ويقيمون أحكام الله.

وتوحدت الشعوب والقبائل المتناثرة، وخرج الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة الله، فليس هناك قاهر ومقهور، وسادات وعبيد، وحكام ومحكومون، وظالم ومظلوم، وإنما الناس كلهم عباد الله، إخوان متحابون، متمثلون لأحكامه، أذهب الله عنهم عُبِّيَّةَ[1] الجاهلية ونخوتها وتعاظمها بالآباء، ولم يبق هناك فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، الناس كلهم بنو آدم، وآدم من تراب.

وهكذا تحققت - بفضل هذه الدعوة - الوحدة العربية، والوحدة الإنسانية، والعدالة الاجتماعية، والسعادة البشرية فى قضاياها ومشاكلها الدنيوية، وفى مسائلها الأخروية، فتقلب مجرى الأيام، وتغير وجه الأرض، وانعدل خط التاريخ، تبدلت العقلية.

إن العالم كانت تسيطر عليه روح الجاهلية - قبل هذه الدعوة - ويتعفن ضميره، وتأسن روحه، وتختل فيه القيم والمقاييس، ويسوده الظلم والعبودية، وتجتاحه موجة من الترف الفاجر والحرمان التاعس، وتغشاه غاشية الكفر والضلال والظلام، على الرغم من الديانات السماوية، التى كانت قد أدركها التحريف، وسرى فيها الضعف، وفقدت سيطرتها على النفوس، واستحالت طقوسًا جامدة، لا حياة فيها ولا روح.

فلما قامت هذه الدعوة بدورها فى حياة البشرية، خلصت روح البشر من الوهم والخرافة، ومن العبودية والرق، ومن الفساد والتعفن، ومن القذارة والانحلال، وخلصت المجتمع الإنسانى من الظلم والطغيان، ومن التفكك والانهيار، ومن فوارق الطبقات، واستبداد الحكام، واستذلال الكهان، وقامت ببناء العالم على أسس من العفة والنظافة، والإيجابية والبناء، والحرية والتجدد، ومن المعرفة واليقين، والثقة والإيمان، والعدالة والكرامة، ومن العمل الدائب لتنمية الحياة، وترقية الحياة، وإعطاء كل ذى حق حقه فى الحياة[2].

وبفضل هذه التطورات شاهدت الجزيرة العربية نهضة مباركة لم تشاهد مثلها منذ نشأ فوقها العمران، ولم يتألق تاريخها تألقه فى هذه الأيام الفريدة من عمرها.

---

(١) أى: الكبر.

(٢) من كلمة سيد قطب فى مقدمة: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١٤.

حجة الوداع

تمت أعمال الدعوة، وإبلاغ الرسالة، وبناء مجتمع جديد على أساس إثبات الألوهية لله، ونفيها عن غيره، وعلى أساس رسالة محمد ﷺ، وكأن هاتفًا خفيًّا انبعث فى قلب رسول الله ﷺ، يشعره أن مقامه فى الدنيا قد أوشك على النهاية، حتى إنه حين بعث معاذا على اليمن سنة ١٠هـ قال له - فيما قال: «**يا معاذ، إنك عسى ألا تلقانى بعد عامى هذا، ولعلك أن تمر بمسجدى هذا وقبرى**»، فبكى معاذ خشعًا لفراق رسول الله ﷺ.

وشاء الله أن يرى رسوله ﷺ ثمار دعوته، التى عانى فى سبيلها ألوانًا من المتاعب بضعًا وعشرين عامًا، فيجتمع فى أطراف مكة بأفراد قبائل العرب وممثليها، فيأخذوا منه شرائع الدين وأحكامه، ويأخذ منهم الشهادة على أنه أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة.

أعلن النبى ﷺ بقصده لهذه الحجة المبرورة المشهودة، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ[١]. وفى يوم السبت لخمس بقين من ذى القعدة تهيأ النبى ﷺ للرحيل[٢]، فتَرَجَّل وادَّهَنَ ولبس إزاره ورداءه وقَلَّد بُدْنَه، وانطلق بعد الظهر، حتى بلغ ذا الحُلَيْفَة قبل أن يصلى العصر، فصلاها ركعتين، وبات هناك حتى أصبح. فلما أصبح قال لأصحابه: «**أتانى الليلة آت من ربى فقال: صَلِّ فى هذا الوادى المبارك وقل: عمرة فى حجة**»[٣].

وقبل أن يصلى الظهر اغتسل لإحرامه، ثم طيبته عائشة بيدها بذَرِيرَة[٤] وطيب فيه مِسْك، فى بدنه ورأسه، حتى كان وَبِيصُ[٥] الطيب يرى فى مفارقه ولحيته، ثم استدامه ولم يغسله، ثم لبس إزاره ورداءه، ثم صلى الظهر ركعتين، ثم أهل بالحج والعمرة فى مُصَلَّاه، وقَرَن بينهما، ثم خرج، فركب القَصْوَاءَ، فأَهَلَّ أيضًا، ثم أَهَلَّ لما استقلت به على البَيْدَاء.

ثم واصل سيره حتى قرب من مكة، فبات بذى طُوَى، ثم دخل مكة بعد أن صلى الفجر واغتسل من صباح يوم الأحد لأربع ليال خلون من ذى الحجة سنة ١٠هـ - وقد قضى فى الطريق ثمانى ليال، وهى المسافة الوسطى - فلما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت،

---

(١) روى ذلك مسلم عن جَابر: باب حجة النبى ﷺ ١/ ٣٩٤.

(٢) انظر لتحقيق ذلك: فتح البارى ٨/ ١٠٤.

(٣) رواه البخارى عن عمر ١/ ٢٠٧.

(٤) نوع من الطيب.

(٥) بَرِيق.

وسعى بين الصفا والمروة، ولم يَحِلَّ ؛لأنه كان قارنًا قد ساق معه الهدى، فنزل بأعلى مكة عند الحَجُون، وأقام هناك، ولم يعد إلى الطواف غير طواف الحج.

وأمر من لم يكن معه هَدْى من أصحابه أن يجعلوا إحرامهم عمرة، فيطوفوا بالبيت وبين الصفا المروة، ثم يحلوا حلالًا تامًّا، فترددوا، فقال: «**لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معى الهدى لأحللت**»، فحل من لم يكن معه هدى، وسمعوا وأطاعوا.

وفى اليوم الثامن من ذى الحجة – وهو يوم التَّرْوِيَة – توجه إلى منى، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر – خمس صلوات – ثم مكث قليلًا حتى طلعت الشمس، فأجاز حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بِنَمِرَة، فنزل بها، حتى إذا زالت الشمس أمر بالقَصْوَاء فرحلت له، فأتى بطن الوادى، وقد اجتمع حوله مائة ألف وأربعة وعشرون أو أربعة وأربعون ألفًا من الناس، فقام فيهم خطيبًا، وألقى هذه الخطبة الجامعة:

«**أيها الناس، اسمعوا قولى، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدًا**»[(١)].

«**إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا. ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث – وكان مسترضعًا فى بنى سعد فقتلته هُذَيْل – وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع من ربانا ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله**».

«**فاتقوا الله فى النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مُبَرِّح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف**».

«**وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله**»[(٢)].

«**أيها الناس، إنه لا نبى بعدى، ولا أمة بعدكم، ألا فاعبدوا ربكم، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، طيبة بها أنفسكم، وتحجون بيت ربكم، وأطيعوا أولات أمركم، تدخلوا جنة ربكم**»[(٣)].

---

(١) ابن هشام ٢/ ٣٠٣.

(٢) صحيح مسلم: باب حجة النبى ﷺ ٩/ ٣٩٧.

(٣) رواه ابن جرير وابن عساكر، انظر: معدن الأعمال، ح (١١٠٨، ١١٠٩).

«**وأنتم تسألون عنى، فما أنتم قائلون؟**» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت.

فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس: «**اللهم اشهد**» ثلاث مرات[(١)].

وكان الذى يصرخ فى الناس بقول رسول الله ﷺ - وهو بعرفة - ربيعة بن أمية بن خَلَف[(٢)].

وبعد أن فرغ النبى ﷺ من إلقاء الخطبة نزل عليه قوله تعالى:] K L M N Z O Q P R S T U [[المائدة: ٣]، ولما نزلت بكى عمر، فقال له النبى ﷺ: «**ما يبكيك؟**» قال: أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شىء قط إلا نقص، فقال: «**صدقت**»[(٣)].

وبعد الخطبة أذن بلال ثم أقام، فصلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ولم يصل بينهما شيئًا، ثم ركب حتى أتى الموقف، فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصَّخَرَات[(٤)]، وجعل حَبْل[(٥)] المشاة بين يديه، واستقبل القبلة، فلم يزل واقفا حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلًا حتى غاب القُرْص.

وأردف أسامة، ودفع حتى أتى المُزْدَلِفَة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئًا، ثم اضطجع حتى طلع الفجر، فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المَشْعَرَ الحرام، فاستقبل القبلة، فدعاه، وكبره، وهلّله، ووحده، فلم يزل واقفًا حتى أسْفَر جِدًّا.

فَدَفَع - من المزدلفة إلى منى - قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل بن عباس حتى أتى بَطْنَ مُحَسِّرٍ، فَحَرَّك قليلًا، ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة - وهى الجمرة الكبرى نفسها، كانت عندها شجرة فى ذلك الزمان، وتسمى بجمرة العَقَبَة وبالجمرة الأولى - فرماها بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخَذْف، رمى من بطن الوادى، ثم انصرف إلى المنحر، فنحر

---

(١) مسلم ١/ ٣٩٧.
(٢) ابن هشام ٢/ ٦٠٥.
(٣) رواه ابن أبى شيبة وابن جرير، انظر: تفسير ابن كثير ٢/ ١٥، والدر المنثور ٢/ ٤٥٦.
(٤) هى أسفل جبل الرحمة.
(٥) مُجتَمَعهم.

ثلاثًا وستين بدنة بيده، ثم أعطى عليًّا فنحر ما غَبَرَ[١] - وهى سبع وثلاثون بدنة، تمام المائة - وأشركه فى هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة، فجعلت فى قِدْر، فطبخت، فأكلا من لحمها، وشربا من مَرَقِها.

ثم ركب رسول الله ﷺ، فأفاض إلى البيت، فصلى بمكة الظهر، فأتى على بنى المطلب يَسْقُون على زمزم، فقال: «**انزعوا بنى عبد المطلب، فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم**»، فناولوه دلوًا فشرب منه[٢].

وخطب النبى ﷺ يوم النحر - عاشر ذى الحجة - أيضًا حين ارتفع الضحى، وهو على بغلة شَهْبَاء، وعلى يعبر عنه، والناس بين قائم وقاعد[٣]، وأعاد فى خطبته هذه بعض ما كان ألقاه أمس، فقد روى الشيخان عن أبى بكرة قال: خطبنا النبى ﷺ يوم النحر، قال: «**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مُضَر الذى بين جمادى وشعبان**».

وقال: «**أى شهر هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «**أليس ذا الحجة؟**» قلنا: بلى؟ قال: «**أى بلد هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «**أليست البلدة؟**» قلنا: بلى. قال: «**فأى يوم هذا؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسمية بغير اسمه، قال: «**أليس يوم النحر؟**» قلنا: بلى. قال: «**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، فى بلدكم هذا، فى شهركم هذا**».

«**وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدى ضلالًا يضرب بعضكم رقاب بعض**».

«**ألا هل بلغت؟**» قالوا: نعم، قال: «**اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فَرُبَّ مُبَلَّغ أوعى من سامع**»[٤].

وفى رواية أنه قال فى تلك الخطبة: «**ألا لا يجنى جَانٍ إلا على نفسه، ألا لا يجنى جان**

---

(١) ما بقى.

(٢) رواه مسلم عن جابر: باب حجة النبى ﷺ ١/ ٣٩٧- ٤٠٠

(٣) روى ذلك أبو داود: باب أى وقت يخطب يوم النحر ١/ ٢٧٠.

(٤) صحيح البخارى: باب الخطبة أيام منى ١/ ٢٣٤ وغيرها.

على ولده، ولا مولود على والده، ألا إن الشيطان قد يئس أن يُعْبَد فى بلدكم هذا أبدًا، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم، فسيرضى به»[(١)].

وأقام أيام التشريق بمنى يؤدى المناسك ويعلم الشرائع، ويذكر الله، ويقيم سنن الهدى من ملة إبراهيم، ويمحو آثار الشرك ومعالمها.

وقد خطب فى بعض أيام التشريق أيضًا، فقد روى أبو داود بإسناد حسن عن سَرَّاءِ بنت نَبْهَانَ قالت: خطبنا رسول الله ﷺ يوم الرءوس، فقال: **«أليس هذا أوسط أيام التشريق»**[(٢)]. وكانت خطبته فى هذا اليوم مثل خطبته يوم النحر، ووقعت هذه الخطبة عقب نزول سورة النصر.

وفى يوم النَّفْر الثانى - الثالث عشر من ذى الحجة - نفر النبى ﷺ من منى، فنزل بخِيف بنى كِنَانة من الأبْطَح، وأقام هناك بقية يومه ذلك، وليلته، وصلى هناك الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم رقد رقدة، ثم ركب إلى البيت، فطاف به طواف الوداع، وأمر به الناس.

ولما قضى مناسكه حث الركاب إلى المدينة المطهرة، لا ليأخذ حظًّا من الراحة، بل ليستأنف الكفاح والكدح لله وفى سبيل الله[(٣)].

آخر البعوث:

كانت كبرياء دولة الروم قد جعلتها تأبى حق الحياة على من آمن بالله ورسوله، وحملها على أن تقتل من أتباعها من يدخل فى الإسلام، كما فعلت بفَرْوَة بن عمرو الجُذَامِى، الذى كان واليًا على مَعَان من قبل الروم.

ونظرًا إلى هذه الجراءة والغطرسة، أخذ رسول الله ﷺ يجهز جيشًا كبيرًا فى صفر سنة ١١هـ، وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يوطئ الخيل تُخُوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، يبغى بذلك إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود، حتى لا يحسبن أحد أن بطش الكنيسة لا معقب له، وأن الدخول فى الإسلام يجر

---

(١) رواه الترمذى ٢/ ٣٨، ١٣٥، وابن ماجه فى الحج، انظر: مشكاة المصابيح ١/ ٢٣٤.

(٢) أبو داود: باب أى يوم يخطب بمنى ١/ ٢٦٩.

(٣) انظر لتفصيل حجة النبى ﷺ: صحيح البخارى: كتاب المناسك، ح ١، و ٢/ ٦٣١، وصحيح مسلم: باب حجة النبى ﷺ، وفتح البارى ج ٣ من شرح كتاب المناسك، و ٨/ ١٠٣- ١١٠، وابن هشام ٢/ ٦٠١- ٦٠٥، وزاد المعاد ١/ ١٩٦، ٢١٨- ٢٤٠.

على أصحابه الحتوف فحسب.

وتكلم الناس فى قائد الجيش لحداثة سنه، واستبطأوا فى بعثه، فقال رسول الله ﷺ: **«إن تطعنوا فى إمارته، فقد كنتم تطعنون فى إمارة أبيه من قبل، وايم الله، إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان من أحب الناس إلىّ، و إن هذا من أحب الناس إلىّ بعده»**[(١)].

وانتدب الناس يلتفون حول أسامة، وينتظمون فى جيشة، حتى خرجوا ونزلوا الجُرْف، على فَرْسَخ من المدينة، إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ ألزمتهم التريث، حتى يعرفوا ما يقضى الله به، وقد قضى الله أن يكون هذا أول بعث ينفذ فى خلافة أبى بكر الصديق[(٢)].

(١) صحيح البخارى: باب بعث النبى ﷺ أسامة ٢/ ٦١٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، وابن هشام ٢/ ٦٠٦، ٦٥٠.

obeikandl.com